المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية

إعداد

مشهور موسى مشهور مشاهرة

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد حسن عواد

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

أيار ٢٠٠٤م

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (**المتشابه اللفظي في القرآن الكريم – دراسة نحوية بلاغية**) وأجيزت بتاريخ : ٢٠٠٤/٥/٢٠

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
• الأستاذ الدكتور محمد حسن عواد أستاذ النحو العربي – اللغة العربية	
• الأستاذ الدكتور نهاد ياسين الموسى أستاذ العربية واللسانيات العربية – اللغة العربية	
• الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي أستاذ اللغة والنحو – اللغة العربية	
• الأستاذ الدكتور سلمان محمد القضاة أستاذ النحو – جامعة اليرموك	

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإهداء

أهدي هذا العمل

إلى مقام حضرة سيّد الخلق أجمعين، إمام المجاهدين، سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم. الذي أضرع إلى الله عز وجل أن يجعلنا ممّن يرد الحوض عليه، فنشرب من يده الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدا.

وإلى تلامذته من المؤمنين، الذين يشرونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة، فنَفَروا في سبيل الله، فقَتَلوا وقُتِلوا، فكانوا من الطائفة التي قال فيها الحقّ تبارك وتعالى: ﴿إنّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهُم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنّةَ يُقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلونَ وعْداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومَن أوفى بعهده من الله فاستَبشِروا ببَيعِكُم الذي بايعتُم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ التوبة: ١١١.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وإلى المرابطين في سبيل الله، من أهل فلسطين خاصّة، الذين تمثلوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتّى تقوم الساعة، وهم ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس.

وإلى مَن أمرني ربّي أن أخفضَ لهما جناح الذلّ من الرحمة، كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، إلى والديّ الكريمين، اللذين عشت في كنف دعائهما ورضاهما. وإلى جميع إخوتي وأخواتي.

وإلى الشجرة الطيّبة المباركة، تلك الخضراء الوارفة الظلال، متاع الدنيا، وطريق الآخرة، التي أدعو الله أن يجمع بيني وبينها على الخير، وأن يحفظنا من كلّ سوء، راجيا الحقّ تبارك وتعالى أن يختم لنا بعمل يُبَلّغنا رضاه.

شكر وتقدير

روى أبـــو سعيد الخُدري عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (من لا يشكر النّاس لم يشكر الله)([1]).

فإلى مشرفي الأستاذ الدكتور محمد حسن عواد، ملح الأرض في النحو العربي، وصاحب العلم القويّ القـــويم، كـــلّ الشكر والتقدير والاحترام. وإلى إخوته فرسان الكلام، وأساتذة النحو والبيان، أعضاء اللجنة المُناقشـــة: الأســـتاذ الدكتور نهاد الموسى، والأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، والأستاذ الدكتور سلمان القضاة، كنوزٌ من الشكر وافرة.

وإلى الأساتذة الكرام الأجلّاء، الذين تفضّلوا عليّ بقراءة الرسالة قبل تقديمها للجنة المناقشة، الأستاذ الدكـــتور مصطفى عليان، والأستاذ الدكتور صلاح الخالدي، والأستاذ الدكتور أحمد نوفل، إليهم جميعا أجلّ دعاء رُفع، وأحق نداء سُمع، وأفضل سؤال سُئل، وأوجه ابتهال ابتهل، أطال الله بقاءهم، ونفعنا بعلمهم.

ولّـــا كانت عادات الأيادي على الكرام ديونا، وكان الشكر حقّا على حامل المعروف مفروضا، فقد وجب عليّ أن أشكر الأستاذ الفاضل زهدي الخطيب، وأخي سيف الشاملتي، والدكتورة لطيفة النجّار، ومن أسهم معهم في الإعانة على إتمام هذه الرسالة شكرا ترتاح له المكارم، وتمتنّ له المواسم، فجزاهم الله عنّي خير الجزاء.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وأمّا أنت يا أخي، يا مسك الختام، يا عبد الرحمن أبا صقر، فقد حمّلتني ما لا أطيق من الشكر، فمهما اســـتفرغت في القـــول وســـعي، فإنّ ذلك لم يبلغ بعض ما في نفسي، وأنا أعلم أنّي لو استعرتُ الدهر لسانا، واتّخذت الرّيح تُرجُمانا، ليُشيعا شُكرَ إنعامك حقّ الإشاعة، لقصّرت بهما يدُ الاستطاعة، فما أدري–والحال ما ذكرت– كيف أشكرك: (الطويل)

فكـــم لـــك عـــندي مـــن يـــدٍ صـــامتيّةٍ يقـــلّ لهـــا شـــكري ويعـــيا بهـــا وصـــفي

ولذلك حسبي في هذا المقام قول البحتري: (الكامل)

اللهُ يجـــــزيكَ الـــــذي لم يجـــــزِه شـــــكري ولم يـــــبلغ مـــــداهُ لســـــاني

([1]) رواه أحمد والترمذي. وأرقامه في مسند أحمد هي: (٧٤٩٥، ١١٣٠٠، ١٨٦٤٠، ١٨٦٤١، ١٩٥٦٥، ١٩٥٦٦)، وعند الترمذي برقم: (١٩٥٥).

فهرس المحتويات

قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ح
المقدّمة	١
التمهيد	٧
أولا: تعريف المتشابه اللفظي	٧
ثانيا: الفرق بين المتشابه اللفظي والمتشابه قسيم المُحكَم	١٠
ثالثا: أهمية دراسة المتشابه اللفظي وأسباب التأليف فيه	١١
رابعا: القواعد التي تُعين على توجيه المتشابه اللفظي	١٤
الفصل الأول: المتشابه اللفظي في الحروف	١٦
المبحث الأول: رسالة الحرف في كتاب الله	١٧
المبحث الثاني: التضمين في الحروف	٢٢
أوّلا: (مرَّ بــ) و(مرَّ على)	٢٥
ثانيا: (يشرب بـ) و (يشرب من)	٣٣
المبحث الثالث: التناوب في الحروف	٣٦
أولا: ﴿ فاسأل به خبيرا﴾	٤٠
ثانيا: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾	٤٢
ثالثا: ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾	٤٤
رابعا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾	٤٨
خامسا:﴿ فويل للمصلينَ الذين هم عن صلاتهم ساهونَ﴾	٥١

محفوظة ... الاردنية ... الجامعية

المبحث الرابع: الزيادة في الحروف ٥٤
أولا: دعوى زيادة (الباء) وما فيها من تشابه ٦٠
ثانيا: دعوى زيادة (الواو) وما فيها من تشابه ٦٤
ثالثا: دعوى زيادة (أن) وما فيها من تشابه ٦٨
المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في حذف الحرف وذكره ٧٦
أولا: دعوى حذف (من) وذكرها، وما في ذلك من تشابه ٧٧
ثانيا: دعوى حذف (الواو) وذكرها، وما في ذلك من تشابه ٨٥
ثالثا: دعوى حذف (الفاء) وذكرها، وما في ذلك من تشابه ٨٩

المبحث السادس: المتشابه اللفظي في استعمال أحرف مختلفة في أماكن متشابهة ٩٧
أولا: (الفاء والواو) ٩٧
ثانيا: (الفاء وثم) ١٠٤
ثالثا:(اللام وإلى) ١٠٩

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الثاني: المتشابه اللفظي في المفردات ١١٩
المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية ١٢٠
المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في التعريف والتنكير ١٢٩
المطلب الأول:(بغير الحق)و(بغير حق) ١٣١
المطلب الثاني:(بلدا)و(البلد) ١٣٩
المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في الإفراد والجمع ١٤٨
المطلب الأول: (معدودة و معدودات) ١٤٩
المطلب الثاني:(رسالة و رسالات) ١٥٩

المبحث الرابع: المتشابه اللفظي في كلمات قريبة المعنى ١٦٦
المطلب الأول: (ألفينا)و(وجدنا) ١٦٨
المطلب الثاني:(أتاها)و(جاءها) ١٧٦

المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في الإدغام وفكّه ١٨١
المطلب الأول: (يُشاقّ) و (يُشاقِق) ١٨١
المطلب الثاني:(يَضَّرعون) و (يَتَضَرَّعون) ١٨٩
المبحث السادس: المتشابه اللفظي في المفردات المتماثلة ١٩٣
الفصل الثالث: المتشابه اللفظي في الجمل ٢٠٩
المبحث الأول: المتشابه اللفظي فيما يُشبه رد العجز على الصدر ٢١١
المطلب الأول: التقديم والتأخير في الفاعل ٢١٣
المطلب الثاني: التقديم والتأخير في المفردات ٢٢٢
المطلب الثالث:التقديم والتأخير في الضمائر ٢٢٨
المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في تقديم الجار والمجرور وتأخيره ٢٣٠
المطلب الأول: اختلاف مُتعلّق الخبر في جملتين متشابهتين ٢٣١
المطلب الثاني: الفصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور ٢٣٧
المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في التكرار الجُمَلي ٢٤٢
المطلب الأول: التكرار الجملي في ما جاء على حرفين ٢٤٣
المطلب الثاني: التكرار الجملي في ما جاء على ثلاثة أحرف ٢٥٢
الخاتمة ٢٦٠
قائمة المصادر والمراجع ٢٦٢
الملخص باللغة الإنجليزية:Abstract ٢٧٣

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية

إعداد

مشهور موسى مشهور مشاهرة

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد حسن عواد

ملخص

تناولت هذه الدراسة موضوع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية. وكان من أهدافها: التطبيق العملي على الإعجاز القرآني، ومحاولة رفع اللبس والإشكال عن كثير من الآيات المتشابهة في لفظها، وكذلك الرد على الطاعنين على مثل هذه الآيات، ورجاء الوصول إلى رسم منهج عملي لدراسة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم لعامة الرسائل الجامعية

أمّا مجتمع الدراسة، فقائم على اختيار عيّنة من الآيات المتشابهة، والتي تمثّل الظاهرة المُتحدَّث عنها. وذلك بالاعتماد على منهج تفسيري تحليلي موازن.

وقد خلصت الدراسة إلى مجوعة من النتائج منها:

ضرورة فهرسة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ودراسته دراسة تحل إشكالاته النحوية والبلاغية، إضافة إلى ضرورة مراجعة وتنقيح ما كتبه المتقدّمون الأوائل، مع الاعتراف أنّ دراسة المتشابه غير متناهية، كونها تتعامل مع نصوص مفتوحة غير متناهية. وكذلك الإشارة أيضا إلى أن هناك كثيرا من المباحث الخلافية ينبغي عدم الاشتغال بها عن دراسة الوجوه النحوية والبلاغية للنص القرآني.

المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي(٢٨)﴾طه:٢٥-٢٨.

الحمد لله القائل في محكم التنزيل:﴿ إِنَّا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾الحجر:٩، سبحانه وتعالى خلق الإنسان، علّمه البيان. والصلاة والسلام على نبيِّ الهدى ونور النّجى، سليل أكرم نبعة، وضجيع أشرف بقعة، أخرجَ أُمّته من الظلمات إلى النّور، وأفاء عليهم الظلّ بعد الحرور، وعلى آله وصحبه الذين عظّمهم توقيرا، وطهّرهم تطهيرا.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبعد، فإنّ كتاب الله عزّ وجل لهو أحقّ ما أنفقت فيه نفائس الأعمار، وقضى معه الدارسون الليل والنهار، فهو البحر الذي لا تستنفد جواهره، ولا تستدرك بواطنه وظواهره، ذو عمق لا يبلغ أحد آخره، وذو طول وعرض لا تقطع مزاخره، هو الغنم الذي من حازه ظفرت يداه، ولم يجزع لفوت ما عداه، كتاب مصون، لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفه، تنزيل من حكيمٍ حميد، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا، ﴿قُل بِفَضلِ اللهِ وبِرَحمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيفرَحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾يونس:٥٨.

إنّ من الواجبات المفروضة على كلّ مسلم: خدمة كتاب الله عزّ وجل، فالبلاغي كما اللغوي والمفسّر والمحدّث وغيرهم على ثغرة من ثغر الإسلام، كلٌّ حسب اختصاصه، ودرجة استطاعته.

ولمّـا كـان اخـتلاف التعبيرات القرآنية في سياقات متشابهة مدعاةً سؤال واستفسـار عند بعض المتعلّمين، وسهاما مسمومة، ومطاعن خبيثة عند كثير من المارقيـن، فقـد عمـدت إلـى الكتابة في موضوع المتشابه اللفظي، في محاولة متواضـعة لرفع اللبس والإشكال، ومحاولة الإجابة عن كلّ سؤال، أملا في تبيان الحكـم والـدلالات، وتوعية لأصناف كثيرة من النّاس، وذلك بأسلوب قريب، فيه شـمول غير مبتسر، وطريق يبس، لمن أراد أن يُتابع الرحلة والمسير، خاصّة أنّ اشـتغال الباحثين بتوجيه الآيات المتشابهة لفظا والتأليف فيها نادر، مع أهمية هذا العلم، الذي يُعَدّ تطبيقا عمليّا على الإعجاز القرآني.

ومـع أنّ عـددا مـن الباحثين لهم جهود طيّبة في خدمة الإعجاز القرآني عامّـة، إلا أنّ مُصَـنّفاتهم -على أهميّتها- غير متخصّصة في المتشابه اللفظي وحده، فيأتي المتشابه فيها عرَضا ضمن مجموعة من الأسايب البيانيّة، التي تحتاج مـثل غـيرها إلـى وقفات وتأمّلات. ومن هؤلاء الباحثين: فضل عباس، ومحمد الأميـن الخضري، وفاضل السامرائي وغيرهم ممن اجتهد في التحليل والدراسة. وعلـى الـرغم من ذلك إلا أنّ دراساتهم كانت منارات شامخة، وكثيرا ما اهتديت بها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أمّـا دراسـتي هـذه، فهي متخصّصة في جزئية من التطبيق العملي على الإعجـاز القرآنـي، وقد وسمتها بـ: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحويـة بلاغـية. فهـي نحوية بلاغية؛ لأنّ فهم النظم القرآني يحتاج إلى فقه في الجانب الصرفي والإعرابي، ومن ثمّ دقّة نظر في التوجيه البلاغي. وبالجملة فهما كفرسي رهان، قد يتقدّم أحدهما ويتأخّر الآخر، ولكنّ استحضارهما وتوظيفهما في الدراسة ضرورة حتمية أو علمية، وذلك بصرف النظر عن رتبتهما.

وفـي مـا يـتعلق بمـنهج الدراسة، فقد أقمتها على منهج تفسيري تحليلي مـوازن، يقـوم على اختيار عيّنة من الآيات، وذلك بناء على توافق مع الغرض المنشـود، ثُـمّ العـرض والتحليل؛ عرض آراء العلماء الأوائل، خاصّة تصانيف

المتشـــابه اللفظـــي، أو من عُني به من المفسّرين، غير أنّي لم أغفل الرجوع إلى اتّجاهـــات مخـــتلفة في كتب التفسير، فتجد في هذه الدراسة استشارة كتب التفسير بالـــرأي، ومـــن اهـــتم بالجانـــب الفقهي والكلامي منهم، فضلا عن التفاسير ذات الصـــبغة الـــنحوية والبلاغية التي تتعالق وعنوان الدراسة ومجالها، وبعض آراء الباحثيـــن المحدثيـــن، كـــل ذلك رجاء تنويرٍ للمراد من كلام الله سبحانه وتعالى، ورغبة في الإحاطة التي تجنّب الدراسة العثار والخلل في المقصديّة والتوجّه.

وقـــد حاد التحليل عن الوقوف عند شرح المفردات ودوالّها القريبة – وإن كانـــت المـــنطلق التأسيسي للمواد – إلى تتبعٍ لانفتاح الدلالة ومقاصدها عند أهل العلـــم، قصدا إلى تلاقح الأفكار، وتبيّن الآراء الموافقة والناقضة، لتكون الإضافة بذلـــك جديـــرة بالتنويه والرعاية، وذلك بنيّة الفهم والإفهام لا الرد والإفحام. على أنّنـــي لـــم أكـــن الناقل في ذلك أو الراوي أو السارد، بل أدليت بدلوي ما وسعني الجهـــد في ذلك، وما أسعفني الفهم في التوجيه والاستنباط والتفسير والاجتهاد، فما أصـــبت فيه الغاية فذلك الفضل من الله وحده، وما قصّرت بي الوسيلة عن إدراكه فأســـأل الله العفو والمغفرة، ولله در الخطيب الإسكافي وهو يستوعب هذا الموقف بفهمـــه وبصيرته: " إذا أورد الحكيم تقدّست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة، ثمّ أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر فيها لفظة عمّا كانت عليه في الأولى، فـــلا بُدّ من حكمة هناك تُطلب، فإذا أُدركتموها فقد ظفرتُم، وإن لم تُدركوها، فليس لأنّه لا حكمة هناك، بل جهلتم "([1]).

وفي هذا المقام، أنبّه إلى أنّ القارئ قد يظن أنّ بعض الأمثلة التي سيمرّ بها في مباحث هذه الرسالة ومطالبها تصلح لأن تكون شاهدا على ظاهرة أو أكثر من وجـــوه المتشابه اللفظي. ولا عجبَ، فظنّه يقين؛ إذ إنّ هذه المباحث وشيجة الصلة ببعضـــها، ويصـــعب ضـــبط متشابهها تحت عنوان جامع مانع، فهي تهجم على

([1]) الإسكافي، أبو عبد الله محمد، (ت٤٣١هـــ)، درة التنزيل وغرة التأويل، ط١، (اعتنى به: الشيخ خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٦.

البحـــث، فأحاول توزيعها وفقا للأنسب فيما يغلب على ظنّي، فلا تعجب والحال ما ذكـــرت أن يصـــلح المثال في موطن أو أكثر، وحسبُك أنَّك أمام نصٍّ قرآني ذي دلالات لا يُمكِـــنُ للبشـــر حصرُ وجوهها، وإنّما يتلمّس كل باحث منها ما يفتح الله عليه، ويهديه إلى أسراره.

أمّـــا بناء الرسالة فقائم على تمهيد، وثلاثة فصول: قدّمت في التمهيد تعريفا للمتشابه اللفظي، وأفصحت عن الفرق بين المتشابه اللفظي والمتشابه قسيم المُحكَم، ثُـــمّ كشـــفت النّقاب عن أهمية دراسة المتشابه اللفظي وأسباب التأليف فيه، وكذلك القواعد التي تُعين على توجيهه. ويلي ذلك الفصل الأول من الدراسة، وقد وسمته بالمتشـــابه اللفظي في الحروف، وفيه ستة مباحث دقيقة، قدّمت لها برسالة الحرف في كتاب الله عز وجل، فجاءت على النحو التالي:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول: رسالة الحرف في كتاب الله.

المبحث الثاني: التضمين في الحروف.

المبحث الثالث: التناوب في الحروف.

المبحث الرابع: الزيادة في الحروف.

المبحث الخامس: حذف الحرف وذكره.

المبحث السادس: استعمال أحرف مختلفة في أماكن متشابهة.

وفـــي الفصـــل الثاني، عالجت المتشابه اللفظي في المفردات، وهو كصنوه الأول يشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية.

المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في التعريف والتنكير.

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في الإفراد والجمع.

المبحث الرابع: المتشابه اللفظي في كلمات قريبة المعنى.

المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في الإدغام وفكّه.

المبحث السادس: المتشابه اللفظي في المفردات المتماثلة.

وكان لا بُدّ لي بعد دراسة المتشابه اللفظي في الحروف والمفردات أن أُفرد الجمـــل بدراســـة مستقلّة، فبدأت أفكّر في تقسيم لها، وقد أعياني البحث والتفكير، وبرزت صعوبات كثيرة في ذلك، ذكرت جزءا منها في مطلع الفصل الثالث، إلى أنْ اهتديـــت بحمد الله إلى هذا البناء الاجتهادي، وكلّ أجزاء الرسالة كذلك. فكان الفصـــل الأخـــير من هذه الدراسة بعنوان: المتشابه اللفظي في الجمل، وفيه ثلاثة مباحث، ومجموعة من المطالب. ولعلّ عدم تساويه مع الفصلين الأولين يعود إلى الرغـــبة فـــي تجنّب التكرار، إضافة إلى خشية الإطالة، إذ إنّ المتشابه يحتاج إلى الـــتفرّد بدراســـة ذات استقلال تام، فمن المعلوم أن الجملة مجموعة من الحروف والمفردات، وقد تقدّمت دراستهما. وقد جاء تقسيم هذا الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول: المتشابه اللفظي فيما يُشبه رد العَجُز على الصدر.

المبحث الثاني:المتشابه اللفظي في تقديم الجار والمجرور وتأخيره.

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في التكرار الجُمَلي.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الدراسة لم تخل من الصعوبات، ولعلّ من أبرزها تعـــدّد أشكال المتشابه اللفظي على مستوى الحرف والمفردة والجملة، إضافة إلى كثرة الآراء في المسألة الواحدة؛ فأحيانا تختلف الآراء اختلافا حادّا، وأحيانا أخرى تـــرد علـــى نحوٍ من التباين البسيط، حتى تكون أقرب إلى الاتّفاق الخفيّ، ومن ثمّ صـــعوبة تقسيمها. وقد نتج عن ذلك إشكالات جمّة، كثيرا ما تركتني متدثّرا بثياب الحيْرة، وأنا أسال عن الجديد الذي يمكن أن أقدّمه، خشية أن تكون دراستي نسخا واجـــترارا، وذلـــك بعد أن أدلى جهابذة العلماء بآرائهم. فكنت والحال ما وصفت، أضرع إلى الله عزّ وجل أن يفتح عليّ بقول أو رأي لم يذكره الأوائل.

ومـــع ذلـــك فقد كانت دراسة ممتعة؛ تفيّأت من خلالها في ظلال كتاب الله وآياتـــه، حتّى إنّي وجدت من الفرح والسرور ما لا يبلغ معشاره غريبٌ ألقى بين أهله عصا التّرحال، أو مُحبٌ لقي حبيبه بعد طول افتراق.

أمـــا وقد طرّزتها بالجهد والنقد، ووشّحتها بالآراء والحواشي، تعليقا عليها وتغلـــيقا، فإنّـــي أقرّر أنّي ما كتبت فيها حرفا إلّا خائفا من الله مستعينا به، معتمدا علـــيه، ومُردّداً قوله تعالى وداعياً:﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِـــلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾البقرة:٢٨٦.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تمهيد:

أولا: تعريف المتشابه اللفظي

قال ابن منظور: "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمعُ أشباهٌ...والمشتبهات من الأمور: المُشْكِلات، والمتشابهات: المتماثلات"(1) .

ومنه يُفهم أنّ التشابه في اللغة يعني: التماثل والتساوي، ويعني المُشكِل أو المُلبِس، ولذلك تتماثل الأمور و تشتبه، حتى تصل إلى درجة تختلط فيها وتلتبس.

---

(1) انظر مادة (شبه) من :

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ). لسان العرب، ط٢، ١٨م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م. وانظرها أيضا من:

الفراهيدي، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، (ت١٧٥هـ). كتاب العين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر، (ت٥٣٨هـ). أساس البلاغة، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (ت٨١٧هـ). القاموس المحيط، ط١، ٢م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م.

ويـــبدو أنّ المعـــنى اللغوي قريب- إلى حدٍّ ما - من المعنى الاصطلاحي الـــذي أورده **الزركشـــي** فـــي تعريف المتشابه اللفظي، قال: " وهو إيراد القصة الواحدة في صُوَرٍ شتّى وفواصلَ مختلفة "([1]) .

ومـــع أن **الزركشي** صاحب فضل في تحرير كثير من حدود مباحث علوم القـــرآن، إلا أن تعـــريفه هذا لا يوصف بالجامع المانع؛ الأمر الذي دعا الباحثين: **عطـــية الأطـــرش ومنصـــورا أبا زينة** إلى الوقوف عند هذا التعريف ومناقشته. فـــتعريف **الزركشي** يُفهَمُ منه إخراج ما كان واردا بصيغ لفظية مكررة في قصتين أو أكثر مختلفتين. ويُخرِجُ كذلك ما تكرر بفاصلة واحدة...إلخ.([2])

ولذلك اختار **عطية الأطرش** تعريفا يستدرك فيه ما فات **الزركشي**، فقال: " ومـــن هـــنا فإنـــه يُمكنني القول: إن المتشابه اللفظي هو إيراد الآية أو الآيات في القصـــص والموضوعات القرآنية المختلفة في السورة الواحدة، أو في سور شتّى بأساليب بيانية متعددة "([3])

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وهـــو تعـــريف فيه شمول، وفيه من الضوابط والمحترزات ما يؤهله لأن يكون جامعا، لولا أخطاء تسربت، وإشكالات تواردت؛ **فالأطرش** يقول: إيراد الآية أو الآيـــات، وفي سورة واحدة أو في سور شتّى، وهذا يشكل؛ فقد يكون المتشابه جزءاً من آية؛ فلا آية ولا آيات. وأدق من قوله في السورة الواحدة قولُ **أبي زينه** في الآية الواحدة، ثُمَّ إنَّ قوله في السورة الواحدة أو في سور شتّى خطأ ورد عليه من تغييره لعبارة **الزركشي** في تعريفه؛ **فالزركشي** قال: في صور شتّى، والباحث غـــيّر العبارة إلى سور شتّى، وثمة فرق بين المفردتين. وقد تنبّه الباحث **أبو زينه**

([1])الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (ت٧٩٤هـــ)، البرهان في علوم القرآن، ط٢، ٤م، (تحقيق يوسف المرعشلي وآخرين)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م،ج١،ص٢٠٧.

([2])انظر عطية الأطرش، دراسات في كتب المتشابه اللفظي،(رسالة ماجستير). الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م ص١٠-١٢ . وانظر: منصورا أبا زينة، الحذف والذكر في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم،(رسالة ماجستير). الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م، ص١٣-١٧.

([3])عطية الأطرش، دراسات في كتب المتشابه اللفظي، ص١٢.

إلى ذلك وتعقّب **الأطرش** وناقشه([1]) . ولكنه لم يرتض تعريفه؛ فاختار تعريفا آخر للمتشـــابه اللفظـــي فقـــال: " هو الكلام المعاد في أكثر من موضع بأساليب بيانية مختلفة "([2]).

٥٨٩٩٩٢

وهذا أقرب إلى ما نحن بصدده، ولكنه أيضا أغفل جزءا كبيرا أرى أنه من المتشابه، وهو ورود التعبير القرآني على نحو يُخيّل للباحث أنه على خلاف قواعد العربـــية، وهو كثير، ولا يدخل تحت الكلام المعاد. وذكر **أبو زينة** أنّ قيد (المعاد فـــي أكثر من موضع) ضروري ليُخرِجَ به القراءات القرآنية، وهذا فيه نظر؛ لأنّ مشـــكلة هـــذا الضـــابط لا يُخـــرجُ القراءة القرآنية وحدها، بل يُخرِجُ غيرها من المتشـــابه معهـــا. ولذلـــك أذهب إلى أن كل لبس أو إشكال معتبر يكون مردّه إلى المفـــردة القرآنـــية ســـواء أكانـــت تلك المفردة فعلا أو اسما أو حرفا، مما يحسن الســـكوت عليه أو لا يحسن([3])، وسواء أكان معادا مكررًا أم غير معاد –وإن كان في المُعاد أكثر– آية أو جزءا من آية، إنما هو من المتشابه اللفظي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

([1])انظر أبا زينة، الحذف والذكر في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ص١٤-١٥.

([2])أبو زينة، المرجع نفسه، ص١٦.

([3])خلافـــا لأبي زينة الذي قال: " وخرج بهذا القيد – يعني الكلام بالمفهوم النحوي– كل العبارات المتشابهة، التي لا تكون كلاما تاما يحسن الوقوف عليه، فلا تدخل في نطاق المتشابه اللفظي: ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾البقرة: ٩٧، ﴿وهـــدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ النحل:٨٩، ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾النحل:١٠٢ فلا يبحث فيها عن حذف (رحمة)وذكرها لأنها ليست كلاما تاما وأمثلة أخرى كثيرة"، دراسات في كتب المتشابه اللفظي، ص١٦-١٧.

ثانيا: الفرق بين المتشابه اللفظي والمتشابه قسيم المُحكَم

كثـيرا ما يخلط المتخصصون فضلا عن عامة الناس بين المتشابه اللفظي وبيـن المتشـابه الذي هو قسيم المحكم؛ فإنَّ المضاف إليه (اللفظي) ما وُضعَ إلا للتميـيز بينه وبين ما يُقابل المحكم، فهما علمان مستقلان من مباحث علوم القرآن. وقـد أُشـكلَ تفسـير المتشابه الذي يُقابل المحكم، وخفيت دلالته، على حين يُمكن إدراك الحِكَـم الكامـنة وراء المتشابه اللفظي، ويمكن تتبع دلالته، وتوجيه معناه. ومع ذلك إلا أن كثيرا من المتخصصين ما زال يخلط بين العلمين.([1])

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1])انظـر: عطية الأطرش، دراسات في كتب المتشابه اللفظي، ص١٨-٢٠ و أبا زينة، الحذف والذكر في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ص٤ . وقد خلط محقق كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن هو الآخر بيـن العلميـن، فعاب على القاضي عبد الجبار، وشنّع عليه كِبَرَ حجم كتابه. وأظنّ أنّ المحقّق قد اشتبه عليه الأمـر هو الآخر، فلم يتبيّن أنّ كتاب القاضي في المحكم قسيم المتشابه، وليس في المتشابه اللفظي الذي نحن بصـدده. انظـر الكرمانـي، بـرهان الديـن محمـود بن حمزة، (ت٥٠٥هـ). البرهان في توجيه متشابه القرآن،(تحقيق السيد الجميلي)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة،١٩٩٤م،ص٧-٨.

ثالثا: أهمية دراسة المتشابه اللفظي وأسباب التأليف فيه:([1])

أولا: رفـــع اللبس والإشكال، وتمييز معنى كل لفظة وفقا للسياق الذي وردت فيه، ســـواء أكان هذا السياق خاصا، كموضوع الآية مثلا، أم كان عاما يشمل موضوع السورة كلّها.

ثانيا: محاولة تبيان الحكم والدلالات وراء تكرار كثير من الآيات أو الألفاظ، سواء أكان ذلك في مواطن متشابهة أم مختلفة؛ إذ من المعروف أن موضوع التكرار في كـــتاب الله عز وجل من المباحث التي نالت حظّا وافرا من الدراسة ما بين مثبت، ونـــافٍ. وكذلـــك تبيان ما دخله التشابه من التقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، والتعريف والتنكير، والجمع والإفراد، والإبدال، وغير ذلك.([2])

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالـــثا: الـــرد على الجاحدين، وإيصاد الطريق على الملحدين؛ فقد اتّخذ هؤلاء من المتشـــابه اللفظـــي ســـبيلا للطعن على كتاب الله عز وجل([3]). وقد نبّه ابن الزبير الغرناطـــي من خلال عنوان كتابه: (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) إلى هذا الفريق.

رابعا: إنّ فهم دلالة هذا اللون من التشابه يُعين الحُفّاظ فضلا عن غيرهم من القرّاء والباحثين على الارتياح، وأمن العثار عند قراءة القرآن.

خامسا: توعية صنف من الناس يظن أنّ ما كان من المتشابه في كتاب الله إنّما هو

---

(١) هذه الفوائد والأهمية وسبب التأليف أذكرها بالاعتماد على ما جاء في مقدّمات كتب المتشابه اللفظي، ومن خلال قراءتي في المتشابه.

(٢) انظر: الزركشي، البرهان، ج١، ص٢٠٢-٢٤١.

(٣) انظـــر علـــى ســـبيل المـــثال مناقشـــة الشعراوي لأحدهم عند المتشابه من آية سورة إبراهيم (ويُذبّحون أبناءكم)آية:٦ وفي سورة البقرة بدون الواو(آية: ٩٤)الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، مج١٢، ص ٧٤٤٤-٧٤٤٥ ، وانظـــر كـــتاب فضـــل عـــباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن، وردّ شبهات،ط١،دار الفتح،عمان،٢٠٠٠م. فإن جميع الكتاب مخصص للرد على الشبهات، والمطاعن التي وردت في الموسوعة البريطانية.

مـــن بـــاب التفنن في أساليب العرض البياني، وأنَّ كل آية من الآيات أو لون من التشـــابه يُمكـــن أن يكون في موضع آخر دون أن يُغيّر المعنى، أو يؤثر فيه. وقد تنـــبه الخطيـــب الإسكافي لهذا المقصد فقال: " إذا أورد الحكيم تقدّست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر فيها لفظة عمّـــا كانـــت علـــيه في الأولى، فلا بد من حكمة هناك تُطلب، فإذا أدركتموها قد ظفرتم، وإن لم تدركوها، فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم"([1]).

سادســـا: عـــدم اشتغال المفسرين بتوجيه الآيات المتشابهة لفظا، والتأليف فيها مع أهمية هذا العلم.

ســـابعا: التطبـــيق العملي على الإعجاز القرآني؛ إذ إنّ تتبع دلالات هذا التشابه، تحقـــيق لما نصّ عليه جهابذة البلغاء والفصحاء من السؤال عن مزيّة الكلام ووجه الاستحسان([2])، وعدم الاقتصار على القول: إنّ هذا من باب التفنن في البلاغة([3]). وبهـــذا فـــإنّ الـــتعرُّف إلى توجيه المتشابه اللفظي إنّما هو تطبيق حقيقي على لُبّ الإعجاز القرآني، فلا تجد تكرارا ولا تغيرا في الأسلوب إلا وراءه من الحكم ما لا يمكـــن للبشـــر أن يُحيطوا به، وإنّما يفهم كل مقدار ما يفتح الله عليه، ويستدرك الأول على الآخر في سلسلة لا تبلغ نهايتها فهوم محدثة مخلوقة، وقد كان التُّستُري محقّـــا في قوله: " لو أُعطِي العبدُ بكلِّ حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنّه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل مقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير

([1]) الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، (ت٤٣١)، درة التنزيل وغرة التأويل،ط١، (اعتنى به: الشيخ خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٦.

([2]) وقد أكثر عبد القاهر الجرجاني في التنبيه إلى الآفة العظمى في ترك البحث عن العلة التي توجب المزية في الكلام، وما ذلك إلا لعظم هذا الأمر وخطورته، وغفلة كثير من المشتغلين بالعلوم عن التنبه له، وذلك في مواضع كثيرة مبثوثة في (الدلائل).

([3]) قـــال بذلـــك الألوســـي وابن عاشور وغيرهم ممن عرض لتوجيه المتشابه اللفظي كما سيتبين خلال هذه الدراسة.

مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة"([1]).

ثامـــنا: إضـــافة لذلك فإنّ في مُقدّمات بعض كتب المحدثين إشارات إلى ضرورة دراسة هذا العلم، وعلى سبيل المثال، فإنّ في مقدّمة كتاب محمد الأمين الخضري دعـــوة صريحة إلى قيام دراسات تستوعب جهود المفسرين خاصة، بحيث " تجمع النظـــير إلـــى النظـــير، وتـــوازن بين مشتبه النظم الكريم، مما اتحدت ألفاظه أو تقاربـــت، واختلفـــت حـــروف الإيصال فيه، هادفة من وراء ذلك إلى الكشف عن مواطن البلاغة وضروب الإعجاز، غير متوقفة عند تأويلات تستهدف بيان صحة الأســـاليب دون أن تـــتجاوزها إلى ومضات الحروف، أو محصورة في عدد من الأمثلة مما تعلق به النحاة ورجالات البلاغة"([2]). وقد تتبعت كتب المتشابه اللفظي، فوجـــدت أغلـــب أصحابها ينقلون عن كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإســـكافي، وعلـــى أهمية دراساتهم، إلا أنه ينقصها في كثير من الأحيان التحليل الأسلوبي أو البلاغي لوجوه المتشابه اللفظي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تاســـعا: وهـــناك سبب آخر، أرجو أن يتحقق في نهاية هذه الدراسة، وهو محاولة رســـم منهج علمي في التحليل البلاغي لوجوه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم. بحيث يتم تتبع ما قاله المفسّرون، وأصحاب كتب المتشابه اللفظي، وكذلك دراسات المحدثيـــن، ومن ثمّ التوليف بين هذه الآراء، والخروج بعد ذلك برأي وجيه يعتمد ما تقدّم، ويزيد على ذلك بوعيه لنظرية السياق.

([1]) الزركشي، البرهان، ج١، ص١٠٢

([2]) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٤.

رابعا: القواعد التي تُعين على توجيه المتشابه اللفظي

ذكـــر أبـــو زيـــنة سبعا من القواعد التي تعين على توجيه المتشابه اللفظي وهي:فهم السياق، ومراعاة علم المناسبات، ومراعاة أسباب النزول، ومعرفة المكي والمدنـــي، ومعـــرفة تاريخ النزول، ومراعاة ترتيب المصحف.(الإجماع على أن ترتيب السور توقيفي)([١]) .

وأهم هذه القواعد هو فهم السياق، قال محمد أبو موسى في كتابه خصائص التراكيـــب: " إنّ اللغة في معظم دلالاتها إنّما تعتمد على السياق"([٢]). ونص صلاح الخالدي أيضا على أنّ السياق هو الحكم في دراسة البيان القرآني([٣]).

ولـــيس فهم السياق بالأمر السهل، خاصة إذا تعلق الأمر بالمتشابه اللفظي، فـــرب آيـــة تَعْكِفُ على فهم متشابهها أياما؛ تدعو وتتأمل، ثم ترجع النظر مرّة أو مرّتيـــن لعلّـــك تجـــد مـــن جانب الطور نارا([٤]). وأنت في ذلك تحتاج إلى بعض المعايير الأسلوبية الحديثة في الصورة اللغوية السائدة والمعزولة، وكذلك إلى أوجه الشـــبه والخـــلاف، والتماثل والتقابل في الحقول الدلالية، وما إلى ذلك من أدوات معينة على دراسة التماثل أو المتشابه اللفظي؛ من استحضار مناهج علمية متعددة، وآراء منطقـــية غـــير الذوق الأدبي، بحيث لا تخرج في النهاية عن المعنى العام لمـــراد الله عـــز وجل. وهذا يوجب على الباحث أيضا أن ينظر في أمّهات كتب

([١])انظر: فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، ٢م، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٧م، ج١، ص ٤٤٩-٤٦١، وانظر: مشهور موسى مشهور مشاهرة، التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية، ط١ ، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠١م، ص١١٩-١٢٠.

([٢]) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٠م،ص١١٤.

([٣])انظر صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني، ط١، دار عمّار، عمان، ٢٠٠٠م، ص١٨٦.

([٤])ومثل هذا كان يحصل مع البقاعي، بل أكثر منه بكثير، انظر: البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر، (ت ٨٨٥هـ). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط١، ٢٢م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٦٩م،ج١، ص١٤ -١٥.

التفسير ليَقف على ما قيل في التأويل العام للآيات، وإن لم تكن تلك التفاسير تُعنى بالمتشـــابه اللفظي، فلن تعدم فيها فائدة. أمّا كتب المتشابه اللفظي خاصة فهي من ركائـــز البحث، فلا ينبغي إغفالها، ليسترشد بما فيها، ولكي لا يُكَرِّر معنى قيل من قبل.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الأول: المتشابه اللفظي في الحروف

المبحث الأول: رسالة الحرف في كتاب الله.

المبحث الثاني: التضمين في الحروف.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

المبحث الثالث: التناوب في الحروف.

المبحث الرابع: الزيادة في الحروف.

المبحث الخامس: حذف الحرف وذكره.

المبحث السادس: استعمال أحرف مختلفة في أماكن متشابهة.

المبحث الأول: رسالة الحرف في كتاب الله

هــذا مبحث رأيت أن يكون بين يدي المتشابه اللفظي من حروف المعاني، ولعلّــه يكون توطئة لازمة إذا أحسنّا ربطه بأسرار المتشابه اللفظي في كتاب الله عز وجل؛ موضع الدرس وأساس التطبيق.

فالحــرف فــي العربــية، ذو قيمة لا تقل عن الاسم والفعل، إذ الكلمة في اصــطلاح اللغوييــن، إمّا أن تكون اسما أو فعلا أو حرفا جاء لمعنى([1]). فهو لبِنَةٌ رئيســة وليســت فضلة. ولذلك ليس غريبا على أهل العربية أن يولوه من العناية بحيــث تُفــرَدُ له المصــنّفات؛ ومن أشهرها: الأزهية في علم الحروف للهروي، والجــنى الدانــي للمــرادي، ومغني اللبيب لابن هشام، ورصف المباني للمالقي وغيرها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ولقــد ذكر المرادي في مقدمة كتابه الجنى الداني في حروف المعاني أنهم حــدُّوا الحرف بحدود كثيرة، ولكنه قال: " ومن أحسنها قول بعضهم: الحرف كلمة تــدل علــى معنى في غيرها فقط "([2]). واطلع محمد حسن عواد على ما قيل في الحــرف وشــرحه، فقال موضّحا ومُبَيِّناً: "ومقتضى الحد أن الحروف روابط في التركيب، يتوقف معناها على ذكر متعلقاتها، وإذا أُفردت فقد تبخرت معانيها"([3]) .

([1]) ملاحظــة: ستقتصر دراستي على حروف المعاني، التي تكون عوضا عن جمل وتفيد معناها بأوجز لفظ، وهــذا قطعا لا يغض من قيمة حروف المباني (حروف التهجي) فإن اختيار هذه الحروف في كلام البشر له فوائــد قد تكون خاصة، فكيف إذا تعلّق الأمر بكتاب الله عز وجل. وقد أشار ابن جني إلى هذا تحت عناوين كثيرة منها: باب تقارب الحروف لتقارب المعاني، وباب ترتيب الحروف في الكلام وأنّ أصواتها على سمْت الأحــداث المُعَبّر بها عنها، وباب في زيادة الحروف وحذفها. انظر ابن جني، أبا الفتح عثمان، (ت٣٩٢هــ). الخصائص، ٣م، (تحقيق محمد علي النجار)ج٢، ص١٤٦-١٤٩، وج٢، ص١٥٥-١٦٨، و ج٢، ص٢٧٣-٢٧٤، وج٢، ص٢٢٧.

([2])المرادي، الحسن بن قاسم، (ت٧٤٩هــ). الجنى الداني في حروف المعاني، ط١، (تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ص٢٠.

([3]) محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢م، ص٧.

ويدخـــل الحـــرف سياق المباحث الفقهية، فلا يجد أهل الأصول مناصا من درســـه، وما يتعلق به من أحكام ودلالات، وهم يدركون أن ذلك ليس من مباحثهم، يقـــول الشيرازي في حديثه عن حروف المعاني: " واعلم أن الكلام في هذا الباب كـــلام فـــي بـــاب مـــن أبواب النحو، غير أنه لمّا كثر احتياج الفقهاء إليه ذكرها الأصوليون"([1]).

ويـــبدو أن حروف المعاني أخذت قِيما خاصة في كتاب الله عز وجل، فقد أكسبها النص القرآني نورا وجمالا، وبعث فيها حياة وأسرارا ما كانت لتكون، لولا انـــتظامها في كلام العليم الحكيم. ولكنّها تمنّعت، فاحتجبت أسرارها عن القرّاء إلا قارئا استعان بالله، فأدام النظر، وأعاده، وقلّب البصر، وتفكّر في منازلها، وقرأ في كتب التفسير، ووازن بين متشابهها.

جميع الحقوق محفوظة

ولـــيس هـــذا بدعا من القول، فقد قال المرادي في مقدمة الجنى: " فإنّه لمّا كانت مقاصد كلام العرب، على اختلاف صنوفه، مبنيا أكثرها على معاني حروفه، صُـــرِفت الهِمـــمُ إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها. وهي مع قلّتها وتَيَسُّرِ الوقـــوف على جملتها، قد كثر دورها، وبعُد غَوْرُها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبَت الإذعانَ إلّا لمن يُعانيها "([2]).

ولا يخفـــى أنّ في العربية كلمات تتعدّى بحروف، فتكتسب دلالة جديدة مع كـــل حـــرف تتعدّى به، وربّما ينقلب المعنى إلى الضد نتيجة للتعدّي بحرف دون آخـــر. ففـــرق شاســـع بيـــن ﴿وترغـــبون أن تنكحوهن﴾ و (وترغبون عن أن تنكحوهـــن)، وكذلك فرق إلى الضد بين ﴿ومن يرغب عن ملّةِ إبراهيم﴾ و (ومن يرغـــبُ فـــي ملّةِ إبراهيم). والفعل (سمع) هو الآخر يتعدّى بنفسه، ويتعدّى بعن،

([1]) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (ت٤٧٦هـ). اللمع في أصول الفقه، ط١، (تحقيق محيي الدين مستو و يوسف علي بديوي)، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٣٨.

([2]) المرادي، الجنى الداني، ص١٩.

وبالباء، وباللام، وبفي، وبمن، وبإلى([1])؛ فإذا تعدّى بنفسه أفاد معنى الإدراك، وإذا تعدّى بغير ذلك من الحروف فإنّه يتسع لمعانٍ وأغراضٍ، تتلاقى وتتباين طبقا للحرف المتعدّى به([2]).

ومن الأمثلة النافعة المُوَضّحة([3]) التي يكثر دورانها في كتب الإعجاز عامة، ومن يعرض لأسرار الحروف في كتاب الله خاصة، ما رواه الخطابي، في رسالته (بيان إعجاز القرآن) بسنده إلى مالك بن دينار قال: " جمعنا الحسن لعرض المصاحف، أنا وأبا العالية الرياحي، ونصر بن عاصم الليثي، وعاصما الجَحْدَرِيّ، فقال رجل: يا أبا العالية، قول الله تعالى في كتابه: ﴿فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ما هذا السهو؟ قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف؛ عن شفع أو عن وتر، فقال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس هذا، بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم. قال الحسن: ألا ترى قوله عز وجل: ﴿ عن صلاتهم ﴾ ". ويعلق الخطابي على ذلك بقوله: " قلت: وإنما أُتيَ أبو العالية في هذا، حيث لم يُفرّق بين حرف عن وفي، فنبّهه له الحسن، فقال: ألا ترى قوله ﴿ عن صلاتهم﴾ يؤيد أن السهو الذي هو الغلط في العدد إنما هو يعرض في الصلاة

---

(١) وقد تنبه الخطّابي والزمخشري إلى الفروق بين سمعت فلانا، وسمعت منه، وسمعت عنه، وسمعت إليه وغيره. انظر الزمخشري، أبا القاسم محمود بن عمر، (ت٥٣٨هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ٤م، (ترتيب وضبط محمد عبد السلام شاهين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م،ج٤، ص٣٥ وذلك عند حديثه عن تفسير الآية الثامنة من سورة الصافات، وانظر أيضا: الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص٣٢؛ فمن المعروف أنّ الفعل (سمع) يتعدّى بنفسه وبحروف الجر كثيرا، وعلى سبيل المثال انظر الآيات التالية:آل عمران:١٨١و١٨٦، والأعراف:٢٠٤، ويوسف:٣١، والصافات:٨، والغاشية:١١.

(٢)انظر تفصيل ذلك من: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٨-٩

(٣) هذا الكلام مستوحى من كتب محمد بركات أبي علي، فقد حاول في جُلّ ما صنّف أن يولي القيمة في الشاهد أو المثال عناية خاصة، من حيث السلامة اللغوية، والصحة النحوية، وعفة المضمون وما في ذلك من قيمة، ولا ريب في أن القرآن أعلى نصا، وفيه كل القيم العالية. انظر: محمد بركات أبا علي، كيف نقرأ تراثنا البلاغي، ط١، دار وائل، عمان، ١٩٩٩م، ص٢٨، و٣٤. كما أن للدكتور نظرات طيبة في حسن الاختيار، وكتابه فن الاختيار خير شاهد على ذلك.

بعد ملابستها، فلو كان هو المراد لقيل: في صلاتهم ساهون، فلما قال: عن صلاتهم دلّ على أنّ المراد به الذهاب عن الوقت "(١) .

ومِمّا شاع أيضا تفرقتهم بين حرفي الغاية (إلى وحتى) وبين (اللام وإلى). فعلى أن (إلى وحتى) لانتهاء الغاية إلا أن (حتى) تختص بكونها لآخر الغاية، وليس كذلك (إلى)، ولذلك جاز أن نقول: سرتُ إلى آخر الطريق أو إلى نصفه، ونقول: سرت حتى آخر الطريق، ولا نقول حتى نصفه. وهذا المثال مبنيٌّ على ما شاع في العربية من قولهم: أكلتُ السمكة حتى رأسها.(٢)

وقديما عاب الزمخشري على من يتجاهلون الفروق الدقيقة بين حروف المعاني، وما يترتب عليها من اختلافات دلالات التراكيب، خاصة إذا تعلق الأمر بكتاب الله عز وجل. فقد قال في الفرق بين تعدية الفعل (يجري) باللام وتعديته بـ(إلى) في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الرعد: ٢، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لقمان: ٢٩ قال: فإن قلت: ﴿يجري لأجل مسمى﴾، و﴿يجري إلى أجل مسمى﴾ أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العَطَن(٣)، ولكن المعنيين، أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قولك: يجري إلى أجل مسمى، معناه يبلغه وينتهي إليه. وقولك: يجري لأجل مسمى: تريد يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا

---

(١) الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد، (ت٣٨٨هـ). بيان إعجاز القرآن.ط٤، (تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام)، دار المعارف، مصر، ص٣٢-٣٣ وذكر أمثلة أخرى فلتُنظَر.

(٢) انظر: فضل عباس، سلامة الحرف(مقال)، ص١٨. والمثال مشهور في كتب النحو.

(٣) العَطن مُحرّكة وطن الإبل، ومبركُها حولَ الحوض، وفلان واسع العطن إذا كان رحب الذراع. انظر: مادة (عطن) من الزمخشري، أساس البلاغة ، ومن الفيروز أبادي، القاموس المحيط . أما تعبير الزمخشري فأظنه يقصد به: قصير النظر ومن لا يحسنُ التفكّر والإدراك.

المعنيين غير ناب به موضعه "([1]) .

ولا أظـــن أنّ أحدا ممن يعتني بالعربية يساوي بين: سعيت لفلان، وسعيت إلـــى فلان؛ فالأول سعيت من أجله، والثاني يدل على القصد إليه، والانتهاء عنده. ومِـــثله ما منحه فضل عباس من كلام القدماء لمّا كشف النِّقاب عن الفرق بين: ما أحـــب عمر إلى المسلمين، وما أحب عمر للمسلمين. ففي المثال الأول(المسلمون) هـــم الذين يحبون عمر، وفي المثال الثاني:(عمر) هو الذي يحب المسلمين، وذلك لأن ما بعد (إلى)يكون فاعلا، وما قبلها مفعولا، واللام على العكس من ذلك. ومن الأول أيضـــا قوله تعالى:﴿ إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منا﴾يوسف: ٨ فالمقصود أن أباهم كان يحب يوسف أكثر من حبه لهم([2]). والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصر في هذا المبحث.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الإلكترونية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ولكن الأمر يزداد صعوبة، ويتعذر على الباحث الفصل فيه، ويختلط الحابل فـــيه بالنابل، وتكثر الأقلام؛ من مؤيد ومعارض، ومن متوسط بين الآراء؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ذلك كله عندما يتعدّى الفعل بحرف ليس من شأنه أن يتعدّى بـــه، إمـــا لأنه يتعدى بنفسه، وإما لأنه يتعدّى بحرف آخر شاعت تعديته به على ألســـنة الفصـــحاء، الأمر الذي قادهم إلى مبحثي التضمين والنيابة. وسأعرض لما يخص دراستي، وما يمس المتشابه اللفظي منه، أو ما له علاقة بالمتشابه اللفظي، وأضـــرب صـــفحا عـــن آراء كثيرة، ليس قدْحا فيها، وإنّما لبعدها عن موضوع الدراسة.

([1]) الزمخشري، الكشاف،ج٣، ص٤٨٦-٤٨٧. وانظر أبا حيان، البحر المحيط، ج٨، ص٤٢٢.

([2]) انظر: فضل عباس، سلامة الحرف(مقال)، ص٢٠. وانظر أصل المثال من: المرادي، الجنى الداني، ص ٣٨٦-٣٨٧ نقلا عن ابن مالك في ذكره للمعنى الثالث لحرف الجر إلى، وانظر أيضا: ابن هشام الأنصاري، عـــبد الله جمـــال الدين، (ت٧٦١هـــ). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢م،ج١ص٨٨، وذلك في حديثه عن المعنى الثالث من معاني إلى.

المبحث الثاني: التضمين في الحروف

شـــغل التضـــمين الباحثيـــن قديمـــا وحديثا، وأحاله المُحدثون إلى المجامع اللغويـــة، وكـــان من القضايا الأُول التي يبسطها المجمع الملكي للغة العربية في القاهـــرة بحـــثا ودراسة، ليُصبح شأنه بعد ذلك شأن قضايا أخرى مثل: الفصحى والعامية، والمعرّب والدخيل، والحرف العربي، والترادف، وغير ذلك من القضايا التي لا مجال لحصرها في هذا المقام.

لقـــد انقسم الباحثون في أمر التضمين قسمين رئيسين: قسم رأى وقوعه في العربية، وأن له أغراضا وأهدافا، ومن أنصار هذا الفريق: حسين والي، والخضر حســـين، وأحمـــد الإســـكندري وغيرهم. بينما ذهب فريق آخر إلى إبطال مسألة التضـــمين فـــي العربـــية، ومن القائلين بذلك: عباس حسن، و إبراهيم السامرائي، ومحمد حسن عواد وغيرهم.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويتلخّصُ رأيُ المجمع الملكي للغة العربية في ما ذكره الإسكندري بقوله: " التضـــمين أن يـــؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير، مؤدى فعل آخر أو ما في معـــناه، فـــيعطى حكمه في التعدية واللزوم. ومجمع اللغة العربية الملكي يرى أنه قياسي لا سماعي بشروط ثلاثة:(الأول) تحقق المناسبة بين الفعلين. (الثاني) وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.(الثالث)ملاءمة التضمين للذوق البلاغي العربي "([1]).

ولم يألُ عباس حسن جهدا في الرد على ما أقرّه أصحاب المجمع في مسألة التضـــمين، وذلـــك على صفحات عديدة من كتابه النحو الوافي. ورأى هو وغيره ممن تابعه أو قلّده: ضرورة إعادة النظر في دراسة التضمين وفق ما يقتضيه علم

([1]) مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، العدد الأول، سنة١٩٣٤م، ص٢٣٠ .وللاطلاع على رأي الشيخ حسين والي، والأستاذ الخضر حسين، والشيخ الإسكندري، يُمكن مراجعة العدد الأول من مجلة المجمع الآنفة الذكر، فـــلا تجد باحثا يؤطّر لهذه القضية، ويُعنى بدراستها دون أن يكون لهذا العدد من المجلة نصيبا مفروضا من مراجع بحثه.

الدلالـــة الحديـــث، لأنـــه أقرب إلى مباحث الدلالة منه إلى التضمين، وإلغاء هذه القضـــية؛ لأن مبـــنى الأمر قائم على فكرة الأصل والفرع، وهي فكرة غير قائمة علـــى أصـــل يُمكنُ الاطمئنان إليه، لاستحالة الوقوف على نشأة الألفاظ، ومعرفة تاريخها.(١)

وقـــد صَدَرَ جُلُّ الباحثين في نقاشهم لهذه القضية عن رأي ابن جني، الذي أسّســـه في كتابه الخصائص حيث قال: " اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكـــان أحدهمـــا يـــتعدَّى بحـــرف، والآخر بآخر، فإنَّ العرب قد تتَّسعُ فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحـــرف المعـــتاد مع ما هو في معناه. وذلك كقول الله عزّ اسمه: ﴿أُحِلَّ لكم ليلةَ الصـــيامِ الرفثُ إلى نِسائكُم﴾ وأنت لا تقول: رفثتُ إلى المرأة، وإنَّما تقول: رفثتُ بهـــا، أو معهـــا، لكنّه لمّا كان الرّفث هنا في معنى الإفضاء، وكنتَ تُعَدّي أفضيت بـــ(إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـــ(إلى) مع الرّفث، إيذانا وإشعارا أنه بمعناه "(٢)

وفـــيما يـــتعلق بالمتشـــابه اللفظي في الحروف أقول: لم يأخذ التضمين في الحروف عنوان بحث مستقل عند الأوائل أو المحدثين، وإنّما انصبَّ اهتمامهم على التضـــمين في المفردات عموما، ولكنّ مَن أجاز التضمين في المفردات، فقد أجازه في الحروف، ومن منعه فقد منعه في الحروف، وفي غيرها.

---

(١) انظـــر: عـــباس حسن، النحو الوافي، ط٤، ٤م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ج٢، ص٥٦٤-٥٩٥، إبراهيم السامرائي، النحو العربي نقد وبناء، ط١، دار البيارق ودار عمار، عمان، ١٩٩٧م، ص١٦٨-١٨٥، وإبراهـــيم الســـامرائي، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٠٧-٢١٩، و محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم، ص٤٧-٨٢.

(٢) ابـــن جني، الخصائص،ج٢، ص٣٠٨.وانظر تعليق محمد عواد على نص ابن جني، فمما قاله عواد بعد استشارة معاجم اللغة العربية: "والحق أنّ الرفث في الآية لم يتضمن معنى الإفضاء، أي أنّ الإفضاء ليس فرعا، بل هو معنى من معاني الرفث" محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر في لغة القرآن، ص٧٤.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وبعد اطلاع على آراء الفريقين، ومدارسة حججهم رأيت كثيرا من الباحثين يميل إلى القول بالتأويل، أو محاولة التسويغ والتبرير؛ عُدولا منهم عن المذهب الحق الذي يقتضي استجلاء أسرار النظم، ومعرفة سبب التشابه أو المخالفة. وما القول بالتضمين في الحروف عندهم إلا محاولة لإيجاد وجه يُسوِّغ وقوع حرف مكان حرف آخر، فرارا من كشف النقاب عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء هذا العدول. ولقد أصاب محمد الأمين الخضري كبد الحقيقة، عندما قرّر أن القول بالتضمين صرف لهمم حُذّاق العربية عن استجلاء أسرار الحروف، وذكر أيضا أنّهم يُسوّغون القول به في المواضع التي يخفى فيها سر وقوع حرف موقع غيره.([1])

وخلاصة القول في ما أرى: أنْ لا بأس بأن نُقرَّ بوقوع التضمين في العربية بالشروط التي ذكروها، سواء أكان ذلك تضمينا كما رأى بعضهم، أم بحثا في الدلالة كما رأى بعضهم الآخر. والمهم من ذلك كله أن نبحث عن سرّ هذا التضمين، أو هذا التعبير الدلالي، وفقا لما يقتضيه سياق النظم، وهذه بعض الأمثلة الموضّحة:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٧و ص٢٩و ص٥٢-٥٣.

أوّلا: (مرَّ بـِ) و(مرَّ على)

ذهب النحاة إلى أنَّ فعل المرور يتعدى بالباء كثيرا، ويتعدى بعلى قليلا، ولذلك خرّجوا تعدّيه بعلى على التضمين، أو على النيابة، أو على المجاز. قال سيبويه: " وأمّا مررت على فلان فجرى هذا كالمثل، وعلينا أمير كذلك، وعليه مال أيضا، وهذا لأنه شيء اعتلاه، ويكون مررت عليه أن يريد مروره على مكانه، ولكنه اتسع "([1]).

وذهب ابن هشام إلى أنّ التعدية بالباء أكثر استعمالا، وهي أولى أن تكون أصلا. قال: " الباء المفردة حرف جر لأربعةَ عشرَ معنى: أولها: الإلصاق، قيل: وهو معنى لا يُفارقُها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه، ثمَّ الإلصاق حقيقيٌّ كـ (أمسكت بزيد) إذا قبضت على شيءٍ من جسمه، أو على ما يحبسه من يدٍ أو ثوبٍ أو نحوه، ولو قلت: (أمسكته) احتمل ذلك، وأن تكون منعته من التصرف، ومجازي نحو: (مررتُ بزيد) أي ألصقتُ مُروري بمكان يقربُ من زيد. وعن الأخفش أن المعنى مررتُ على زيد، بدليل: ﴿وإنكم لتمرّونَ عليهم مصبحين﴾ وأقول: إنَّ كلاً من الإلصاق والاستعلاء إنّما يكون حقيقيّاً إذا كان مُفْضياً إلى نفس المجرور كـ (أمسكتُ بزيد، وصعدتُ على السطح) فإن أفضى إلى ما يقرب منه فمجاز...فإذا استوى التقديران في المجازية، فالأكثر استعمالا أولى بالتخريج عليه...إلا أنَّ (مررتُ به)أكثر، فكان أولى بتقديره أصلا "([2]).

ولقد استعرضت موسوعة الشعر العربي، على الحاسب الآلي، فألفيت تعدية المرور بعلى كثيرا، وكذلك تعديته بالباء. وفي الذكر الحكيم تعدّى فعل المرور بعلى أربع مرات، وبالباء ثلاث مرات، فكيف تكون التعدية بالباء أصلا؟ ([3]).

([1]) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، (ت١٧٧هـ).الكتاب،ط٢، ٥م، (تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجيل، بيروت، ج٤،ص٢٣٠.

([2]) ابن هشام، مغني اللبيب، ج١، ص١١٨-١١٩.

([3]) أشار الأمين الخضري في كتابه: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٢ إلى صعوبة الأمر حين يتعدى الفعل بحرف ليس من شأنه التعدي به.

١- قال تعالى: ﴿أو كالذي **مرّ على** قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها﴾البقرة:٢٥٩

٢- وقال تعالى: ﴿ويصنعُ الفلكَ وكُلّما **مرّ عليه** ملأٌ من قومه سخروا منه﴾هود: ٣٨

٣- وقال تعالى: ﴿وكأيّن من آية في السماوات والأرضِ **يمرّونَ عليها** وهم عنها معرضون﴾يوسف:١٠٥

٤- وقال تعالى: ﴿وإنّكم **لتمرّون عليهم** مُصبحين﴾الصافات:١٣٧ (١).

ومـــن خلال هذا المثال أحاول أن أستأنف جهدا قدّمه محمد عواد في كتابه: تـــناوب حـــروف الجر في القرآن الكريم، فقد أوجز الفرق الدلالي بين تعدية فعل المـــرور بعلـــى، وتعديـــته بالـــباء فـــي قوله: " فمر على، هو مرور مصحوب بالاســـتعلاء، ومر بالمكان، هو مرور مع ملاصقة، ولو كان معنى الحرفين واحدا لاقتصر على حرف واحد "(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

بهذه الكلمات كان محمد عواد ينفي وقوع التضمين في العربية. ولم يقتصر علـــى نفي التضمين فحسب، بل كشف لنا النقاب عن سر التعبير بهذين الحرفين –

---

(١) ملاحظة: يُمكن الإفادة مما قاله المفسّرون في تفسير الآيات، فمن مراجع آية سورة البقرة انظر: الطـــبري، أبـــو جعفر محمد بن جرير، (ت٣١٠هـــ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط١، ١٦م، (ضبط وتعلـــيق محمود شاكر)، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م،ج٣،ص٣٥-٣٧. والزمخشري، الكشاف، ج١، ص٣٠١-٣٠٢، والـــرازي، التفسير الكبير، مج٣، ص٢٠، والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت٦٧١ هـــ). الجامع لأحكام القرآن، ط١، ١١م، (تحقيق سالم البدري)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م،ج٣،ص ١٨٧-١٨٩. وأبـــو حيان، محمد بن يوسف، (ت٧٥٤هـــ). البحر المحيط في التفسير، ١١م، (عناية صدقي محمد جميل)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢، ص٦٣٠-٦٣٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج٤، ص٥٥، و ابن عاشور، محمد الطاهر،(ت ١٣٩٣هـــ). التحرير والتنوير،١٥م، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م، ج٣،ص٣٥ -٣٦. وآيـــة ســـورة هـــود مـــن الطبري، جامع البيان، ج١٢،ص٤٣، وآية سورة يوسف من الزمخشري، الكشـــاف،ج٢،ص٤٨٨، والبقاعـــي، نظم الدرر،ج١٠، ص٢٣٨، وآية سورة الصافات من الطبري، جامع البيان، ج٢٣،ص١١٦.

(٢) محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٧٧.

وإن كـــان الكشـــف مقتضـــبا- ولتوضيح ذلك لا بد من الوقوف على سياق النظم القرآني في الآيات موضع الشاهد(١).

فآيـــة سورة البقرة﴿**أو كالذي مرّ على قرية**﴾ ترسم منظرا تعجُّبيا لرجل مرّ على قرية خاوية خربة، وقد فني أهلها، فقال متعجّبا: ﴿أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها﴾البقرة:٢٥٩. وكأنّي به يمرُّ في طريق، بمحاذاة هذه القرية، يغذّ السير غذّا، يـــريد مجـــاوزة القـــرية، قبل حلول الظلام، فيلتفت يمنة أو يسرة، وإذا به يسير بمحـــاذاة قرية مهدّمة خاوية على عروشها، فيستهجن حالها، ويهوله ما آلت إليه. ويبدو أنّ هذه الملاحظة وما خطر بباله لم يقترن بتفكّر وإمعان نظر، فالأمر مبني على استهجان فجائي سريع، أثار في نفس الرجل سؤالا تعجبيا عابرا(٢)، ولو كان مـــتفكّرا لاهتدى إلى عكس ذلك، فأراد الله عز وجل بهذا المثال التدليل على إثبات المعاد، وإثبات الحشر والنشر والبعث، فأماته الله مائة عام إلى تتمة القصة. وهذه المعاني القائمة على الاستعلاء(٣) و المجاوزة عمّا في القرية، وعدم التفكّر وإمعان النظر، يقوم بها حرف الجر (على) وليس الباء.

والآية الثانية من سورة هود﴿**ويصنعُ الفلكَ وكُلّما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه**﴾ تُعيد إلى ذاكرتنا استحضار قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه، ولا إخالنـــي أُجانـــب الصـــواب إذا قلت: إنّها تبعث في ذاكرة المتفكّر بثّا مباشرا لشـــريط أحـــداث الدعـــوة التي قام بها سيدنا نوح عليه وعلى رسولنا أتم الصلاة

---

(١) لم يُعنَ محمد عواد في كتابه: تناوب حروف الجر في القرآن الكريم كثيرا بالجانب البلاغي، وأسرار التعبير القرآني نظرا لطبيعة البحث، وسيرا مع المنهجية التي رسمها لنفسه.

(٢) ويشـــهد لهـــذا التصور ما قاله الإمام البقاعي في تفسيره نظم الدرر نقلا عن الإمام الحرالّي: " مرّ من المرور، وهو جعل الشيء على مسلك إلى غيره، مع التفات إليه في سبيله " البقاعي، نظم الدرر،ج٤، ص٥٥

(٣) انظـــر ابـــن هشـــام، مغني اللبيب،ج١، ص١٦٣ و المرادي، الجنى الداني، ص٤٧٦ فالاستعلاء رأس معانـــيها، بل إن أكثر البصريين كما يقول المرادي في الجنى لم يُثبتوا لها غير هذا المعنى، وتأوّلوا ما أوهم خلافه.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

والتسـليم. ففي مقطع من مقاطع الدعوة يبدأ سيدنا نوح بصناعة الفلك، ولكنّ علْية قومه وأشرافهم لا يتركونه وشأنه، بل يمرون عليه ساخرين مستهزئين، فالفلك إنّما تجري في الماء، ولا ماء عندهم، فلِمَ هذا الفلك إذن؟ إنّ ذلك لهو العبث والجنون. ويتعانق حرف الاستعلاء والمجاوزة في هذه الآية مع ما اشتهر عن قوم نوح عليه السلام. ويُمكن تبيّن ذلك من سورة هود نفسها، التي انفردت عن باقي أخواتها من السور بتفصيل القصة تفصيلا مطولا، يشبهها من حيث العرض التفصيلي ما جاء فـي سورة نوح التي سميت باسمه صلى الله عليه وسلم([1]). فقومه ذوو تكبّرٍ على الحـق وأهلـه، وأصـحاب عُجـبٍ وغـرور؛ أعجبتهم أنفسهم، وغرتهم أموالهم ومناصـبهم، ومكانـتهم الاجتماعية، والاقتصادية. فمن أقوالهم كما صوّرتها آيات سـورة هود: ﴿فقال الملأُ الذين كفروا من قومه ما نراك إلّا بشَرا مثلَنا وما نراك اتّـبعَكَ إلّـا الذين هم أراذلُنا بادِيَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظُنُّكم كاذبيـن﴾هـود: ٢٧ . وركب القوم متنَ العناد والغواية، فقالوا على هيئة التحدّي وعدم المبالاة: ﴿قالوا يا نوحُ قد جادلْتنا فأكثرتَ جدالَنا فأْتنا بما تعِدُنا إنْ كُنتَ من الصـادقينَ﴾هود: ٣٢. إلى أن جاءت الآية موطن الشاهد، مُتوّجَة قمة استهزائهم وتعاليهم بسفاهة عقولهم على الدعوة والداعية.

وممّـا تقدم نلاحظ أن تعدية المرور بحرف الاستعلاء يُجَسّد ما ذكرتُ من معانٍ، لا يقوم بها غيره من الحروف، فللتعدية بـ(على) أسرار وللتعدية بالباء في موطن آخر أسرار تختلف عن بعضها، حسب طبيعة الغرض، وسياق المقام.

وحظيـت سورة يوسف بعناية الدارسين للقصص القرآني، وذلك من ناحية التفسير، واللغة، والبيان، وغير ذلك. فقد تفرّدت بعرض قصة يوسف عليه السلام كاملـة، وبـورود تعابير بلاغية لم تتكرر في سورة من سور القرآن الكريم، من

([1]) انظـر فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠م، ص١٨٢. إضافة لذلك يُمكن الوقوف على ما في القصة من عبر ومواعظ، فقد أحسن فضل عرضها.

مـــثل: اطـــرحوه، غـــيابة الجـــب، يرتع، الذئب، قميصه، بضاعة، هيت، قدت، شغفها...إلخ.([1]) وغير ذلك من المزايا التي يُمكن أن يمنَحها الدارس.

ولا مِـــراء فـــي أن الجانـــب البياني في عرض القصة واضح بيّن، يشهد بإعجـــاز هذا الكتاب المجيد، ولكنّ ذلك ربّما لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، من أجـــل ذلك أورد الحق سبحانه وتعالى آيات أخرى دالّة على وحدانيته، ولا تحتاج فـــي وضـــوحها أكـــثر مـــن نظرة عقلانية، ومع ذلك لم ينتفعوا بها بل جاوزوها وأنوفهـــم شـــامخة مستعلية، غطرسة وتكبّرا غير مبالين بها، على الرغم من شدة وضـــوحها، وعـــدم خفائها. ولكنّه مرور المُجاوزة والتكبّر غير التلبّث والاعتبار. وإذا علمـــنا أن الســـورة مكـــية أدركنا أيضا ما كانت عليه نفوس القوم في الكبر والـــتحدّي والعـــناد، وعدم الاستماع لداعي الحق، قال تعالى: ﴿وكأيّن من آية في السماوات والأرضِ **يمرّون عليها** وهم عنها معرضون﴾يوسف:١٠٥.

ولـــم تكن مساكن قوم لوط بعيدة عن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم أول مـــا نـــزل([2]). فكان تجار قريش يرون البقعة التي كانت فيها أماكن قوم لوط علـــيه السلام([3])، ومع ذلك يشتدون في العناد والمخالفة غير آبهين بالمصير، ولا معتبرين بحال الأولين. ولذلك نعى الحق تبارك وتعالى عليهم هذه المجاوزة وعدم الاعتبار؛ لأن ذلك لم يكن عندهم من باب الخفاء، وعدم الوضوح، وإنّما هو العلوُ والاســـتكبار. وهـــذا ما ظهر جليّا من خلال حرف الاستعلاء الذي عُدّي به فعل المرور، قال تعالى: ﴿وإنّكم **لتمُرّون عليهم** مُصبحين﴾الصافات:١٣٧.

([1]) انظـــر: أحمد نوفل، سورة يوسف دراسة تحليلية، ط٢، دار الفرقان، ١٩٩٩م،ص١٠. ويمكن الاطلاع علـــى تسلســـل أحـــداث القصة، وتحليلها بيانيا من الكتاب نفسه، فقد أحسن دراسة السورة في كتابه الآنف الذكـــر؛ فقد عرّف بالسورة، وما تؤول إليه من إعجاز فني، وتناسق بلاغي، وتصوير للشخصيات وغير ذلك مما هو مبسوط في موضعه من الكتاب.

([2]) انظر فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص٣٥٣.

([3]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١٦، ص٢٨٩.

هذا عن تعدية فعل المرور بـــ(على)، وهو تفصيل وبيان لما أوجزه محمد عـــوّاد، وتلاقٍ في عموم المعنى مع ما ذكره الأمين الخضري في حديثه عن تعدية فعل المرور بـــ(على) حيث قال: " وباستعراض الأمثلة التي تعدّى فيها بـــ(على) تجدهـــا جميعا تدل على مجاوزة المرور عليه بالسير دون التلبّث، وللاستعلاء فيها دلالة على أنّ المار شامخ بأنفه، لا يلقي لما مرّ به بالا ولا يُعيره اهتماما "([1]).

٥٨٩٩٩٢

والفعـــل مرّ كغيره من الأفعال التي تتعدّى بغير ما حرف واحد، وقد تعدّى بـــــ(على)، فذكرت من أسرارها ما يشهد بأن على لم تتضمن معنى حرف آخر، بـــل بقيت على بابها، فأكسبت الآيات بلاغةَ تصوير، وحسنَ أداء ما كان ليقوم به غـــيرها مـــن حروف الجر. فإذا ما جئنا لتعدية فعل المرور بالباء، ألفينا أسرارا ومعاني لم نجدها في حرف الجر على.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ذكـــر المـــرادي للباء المفردة ثلاثة عشر معنى، وذكر لها ابن هشام أربعة عشـــر معـــنى، ولكـــنّهما اتفقا على أنّ الإلصاق أصل معانيها، ونقلا عن سيبويه اقتصاره على هذا المعنى وحده، وهو معنى لا يُفارقُها([2]).

١- قال تعالى: ﴿فلمّا تغشّاها حَمَلَتْ حملاً خفيفا **فمرّت به**﴾الأعراف:١٨٩

٢- وقـــال تعـــالى: ﴿والذيـــن لا يشهدون الزور وإذا **مرّوا باللغوِ** مرّوا كِراما﴾ الفرقان:٧٢

٣- وقال تعالى: ﴿وإذا **مرّوا بهم** يتغامزون﴾المطففين:٣٠ ([3]).

([1]) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٨٣.

([2]) انظر ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص١١٨ و المرادي، الجنى الداني، ص٣٦.

([3]) يمكـــن الـــرجوع في آية الأعراف إلى الطبري، جامع البيان،ج٩، ص١٧٠، والزمخشري، الكشاف،ج٢ ،ص١٧٩-١٨٠،وآية سورة الفرقان من الطبري، جامع البيان، ج١٩، ص٥٨-٦٠، و البقاعي، نظم الدرر،ج ١٣، ص٤٣٢-٤٣٣. وآيـــة ســـورة المطففين من الطبري، جامع البيان، ج٣٠، ص١٣٦، و البقاعي، نظم الدرر،ج٢١، ص٣٣١.

تُصوّرُ آية الأعراف ﴿**فلمّا تغشّاها حَمَلَتْ حملاً خفيفا فمرّت به**﴾ طبيعة حَمْـل المرأة ماء زوجها، والماء وما آل إليه –لا ريب– ملتصق بها، غير مستعلٍ عليها، وأنّى له الاستعلاء وهو في البطنِ محمول!

وأمّا آية سورة الفرقان﴿**وإذا مَرُّوا باللغوِ مَرُّوا كِراما**﴾ فصفة من صفات عـباد الرحمن، لو استبدلنا بالباء حرف الاستعلاء لأخرجنا الآية عن مقصدها. فقد أراد الحـق سبحانه وتعالى –والله أعلم– أن يعلّمنا صفات الداعية، وما يجب عليه فعلـه. فعـباد الله الذيـن يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر– وهو المقصود بكـراما–([1]) غـير لائق بهم –اعتزال مواطن المنكر، واجتناب أهله؛ والاستعلاء والـنظر مـن بعـيد لمشـاهدة ما يجري في واقعهم، وكأنّهم غير آبهين، أو غير مسـتطيعين، أو عاجزيـن، خائفين من التغيير. هذه الصفات كانت ستلحق بهم لو كانـت تعديـة فعل المرور بحرف (على). فما استحقّوا وصف عباد الرحمن إلا لأنّهـم يمتازون عن باقي أفراد مجتمعهم، امتياز الذهب عن باقي المعادن. فهؤلاء ليسـوا قريبيـن من الهدف المرجوّ بل ملتصقون ملتحمون غير خائفين من المنكر سواء أكان كلاما، أم فعلا، وحتى لو كان صاحب الباطل متحَصّناً بباطله، ذا منَعةٍ وقوّةٍ بأسٍ تقود إلى خطرٍ مُحتَّمٍ([2]). وهكذا يجب أن يكون الداعية، ثابتا ومتيقّنا من نصر الله وعونه، فلا يخشى في الله لومة لائم، ولعمر الله مَن يُخالط الناس، ويأمر وينهى، ويصـبر، ولا تغيّره الأهواء – مع اقترابه من المواطن الحرجة – لهو أفضـل، وأعـلى شأوا ومنزلة ممن يعتزل الناس خشية أن يتأثر بما هم فيه. وكل ذلك وغيره من معناه، يُمكن أن يُقال في تعدية فعل المرور بالباء.

وتكشف آية سورة المطففين﴿**وإذا مَرّوا بهم يتغامزون**﴾ معاني وأسرارا مـا كانت لتكون لو عُدّيَ فعل المرور بعلى. إنّ في التعدية بالباء صورة أو لوحة فنـية ذات وجوه متعدّدة يُمكن لِمُمْعِنِ النظر تخيّلها. وكأنّ الآيات تتحدّث عن زمنٍ

([1]) انظر توضيح البقاعي لمعنى كراما في تفسيره نظم الدرر،ج١١، ص٤٣٢-٤٣٣.

([2]) انظر الطبري، جامع البيان، ج١٩، ص٥٨-٦٠ للوقوف على اتساع معنى اللغو وشموله.

فـيه الغلـبة للكافريـن، أو للمجرمين من أصحاب المعاصي، حيث يظهرُ هؤلاء المجـرمون ولا يسـتترون، ونحن بعد ذلك أمام مشهدين رئيسين: أحدهما: حركة المجـرم، وسكون الداعية، بمعنى وقوع فعل المرور من قبل الكافرين، فهم الذين يقصـدون المؤمنيـن، أو ضعاف المؤمنين، ويتعمّدون الاقتراب منهم، والاختلاط بهم، ومن ثمّ التحرّش بالاستهزاء؛ غمزا ولمزا، قولا أو فعلا. والمشهد الآخر قائم علـى أنّ هـؤلاء المجرميـن يجلسون بكل صراط للصد عن سبيل الله، أو حتى يُقـيمون بالقـرب مـن منازلهم، فيمر بهم الدعاة من المؤمنين، ويقتربون منهم، ناصـحين واعظين، فيبادرهم المجرمون بالاستهزاء والسخرية. وعلى العموم فإن تعديـة فعـل المـرور بالـباء، يدل على القرب والملاصقة، سواء أكان ذلك من المؤمنين أم من الكافرين أم المجرمين(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبهـذه الكيفـية يُمكن معالجة أمر المتشابه اللفظي في الحروف، بعيدا عن إشـكالات التضـمين والنيابة، إذ الاقتصار على القول بالتضمين أو النيابة، يُفوّتُ علـى القارئ أو الباحث معاني جليلة من الذكر الحكيم. ولقد لاحظنا ما في حرف الاستعلاء، وحرف الإلصاق من معانٍ وأسرار، لا يُمكنُ لأحد الحرفين أن يقوم بها لو وضع أحدهما مكان الآخر. على أنّ عناصر السياق كفيلة بحل أي إشكال يُمكن أن يعرض في المتشابه اللفظي، ولكنّ الأمر يحتاج إلى تأنٍ وتؤدة، وعمق نظر في السياق العام للسورة، وفي سياق الآية نفسها.

---

(١) لقـد أشار المفسرون إلى هذين المعنيين، وإن لم يصرّحوا بذلك، فمنهم من أعاد الضمير إلى المؤمنين، ومنهم من أعاده إلى الكافرين. وأرى أنّ المعنى كما ذكرت يحتمل الوجهين.انظر: البقاعي، نظم الدرر،ج٢١، ص٣٣١. يُذكّـر أنّ محمـد الأمين الخضري قد قصر المعنى على تحرّش الكافرين بالمؤمنين، وأنّهم هم الذين يتعمّدون الاحتكاك بالمؤمنين وليس العكس، بدليل قوله تعالى: (وإذا انقلبوا إلى أهلهم) . انظر: محمد الأميـن الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٨٤. ولا أرى في الآية معنى واحدا، بل هـي تحـتمل المعنى الآخر أيضا، فلو تخيلنا أن الدعاة مروا بهم، وهذه من صفات عباد الرحمن، مرّوا بهم، وهو جلوس في مكان ما، وحصل الاستهزاء والسخرية من قبلهم تجاه المؤمنين، ردّا على نصحهم وإرشادهم، ثمّ لمّا عادوا إلى مجالسهم أخذوا يتذاكرون ويتحدّثون معجبين بما فعلوه مع المؤمنين.

ثانيا: (يشرب بـِ) و (يشرب من)

ندرس في هذا المثال بلاغة تعدية فعل الشرب بالباء في قوله تعالى: ﴿عيناً **يشربُ بها** عبادُ الله يُفجِّرونها تفجيرا﴾الإنسان:٦ وقوله:﴿ ومزاجُهُ من تسنيمٍ عينا **يشـــربُ بها** المُقرَّبون﴾المطففين:٢٨. فمن المعروف بداهة أنّنا نقول: يشرب من العين، ولا نقول: يشرب بالعين، قال تعالى: ﴿إنَّ الله مُبتَليكُم بنَهَرٍ فمن **شربَ منهُ** فلـيسَ منّـــي﴾الـبقرة:٢٤٩، وقال: ﴿إنَّ الأبرار **يشربونَ من** كأسٍ كان مزاجُها كافورا﴾الإنسان:٥، وغير ذلك من الآيات. فما توجيه تعدية فعل الشرب بالباء في سورتي الإنسان والمطففين؟ أهو من التضمين في الحروف؟ أم أن الباء نابت عن حرف التبعيض؟

تنـبه الزمخشـــري كعادتـــه لهذا الاختلاف في النظم، وأجاب عنه بطريق الفـنقلة، قـــال: " فـــإن قلت: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا، وبحرف الإلصـــاق آخـــرا ؟ قلـــت: لأن الكأس مبدأ شربهم، وأول غايته، وأمّا العين ففيها يمزجون شرابه، فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل "(١).

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٤،ص٦٥٥-٦٥٦ (حديث الزمخشري هذا عن آية سورة الإنسان). وقد لاحظت اعتماد أغلب المفسرين كلام الفراء في هذه القضية، انظر مثلا: الطبري، جامع البيان، ج٢٩،ص٢٤٩، ونقلوا كذلـك كلام الزمخشري فيما بعد إضافة إلى كلام الفراء، انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص ٨١-٨٢، والبيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، (ت٦٩١هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط١، ٢م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٨م، ج٥، ص٢٧٠، وأبا حيان، البحر المحيط، ج١٠، ص٣٦٠-٣٦١، وابن هشـــام، مغني اللبيب،ج١،ص١٢٢-١٢٣، و البقاعي، نظم الدرر،ج٢١، ص١٣٦-١٣٧. هذا كله فيما يتعلق بآية سورة الإنسان.

ولم يزيدوا شيئا يُذكرْ فيما يتعلق بآية سورة المطففين، فلم يولها الطبري ولا الزمخشري أي عناية، مـــن حيـــث ذكرها، أو التعليق عليها، وتعليقات يسيرة من القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص١٧٥، والبيضـــاوي، أنـــوار التنزيل، ج٥، ص٢٩٦، وأبي حيان، البحر المحيط، ج١٠، ص٤٣١، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص٣٣٠.

وأورد محمد عواد هاتين الآيتين؛ آية سورة الإنسان: ﴿يشربُ بها﴾، وآية سورة المطففين: ﴿يشرب بها﴾، وذكر أيضا مع الآيتين بيت أبي ذؤيب الهذلي المشهور في هذا المقام:[1] (الطويل)

شَرِبْنَ بِماءِ البحرِ ثُمَّ ترفَّعت ... متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهُنَّ نئيجُ

وقد نفى أن يكون في الآيتين تضمين، أو نيابة؛ فإذا كان شرب بمعنى جرع، فهو متعدٍ، ولا يلزم حينئذ التضمين، وتكون الباء زائدة كما ذكر الفراء وابن جني[2]، أي يشربها، وفي بيت الهذلي: شربن ماء البحر. وإذا كان بمعنى روى، فهو لازم، والفعل روى يتعدى بالباء، ويتعدى بمن كما ذكر ابن منظور[3]، ومن ثَمّ جاز إيقاع (من) موقع الباء.

لقد نظر محمد عواد في هاتين الآيتين، وفي بيت الهذلي، من الوجهة النحوية، وأحسن في معالجته للقضية، لولا قوله بزيادة الباء[4]. وفي كُلِّ حال فإنَّ ما قام به محمد عواد جهد يحتاج إلى متابعة من الباحثين، وذلك للوقوف على الأسرار البلاغية في الآيات التي نفى عنها النيابة أو التضمين.

ولو أمعنّا النظر في الآيتين، لرأينا بونا شاسعا، بين قوله تعالى: يشرب بها، وقوله: يشرب منها؛ فنحن نشرب من الإناء أو غيره ثمّ نتركه، وقد لا نرى

---

(1) انظر: الفراء، أبا زكريا يحيى بن زياد، (ت ٢٠٧هـ). معاني القرآن، ط٣، ٣م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م،ج٣،ص٢١٥، وانظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٦٠-٦٢.

(2) انظر: الفراء، معاني القرآن،ج٣، ص٢١٥، وابن جني، أبا الفتح عثمان، (ت٣٩٢هـ). سر صناعة الإعراب،ط١، ٣م، (تحقيق مصطفى السقا وآخرين)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١، ص١٥٢، وابن منظور، لسان العرب، مادة(شرب) وقال صاحب اللسان عقب ذلك: "ومثله كثير، منه ما مضى، ومنه ما سيأتي، فلا تستوحش منه". وانظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٦٢.

(3) انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادة (روي).

(4) انظر: محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٣٦. ولا أريد أن أنقض ما شيّدت، ولكنْ يبدو لي أنّ قضية الزيادة فيها حديث طويل؛ فمن جهة بلاغية أستطيع أن أنفي الزيادة من القرآن الكريم وأنا مطمئن، ولكنّها قد تكون من جهة نحوية ولا تعني الفضول. وهذا الكلام ينسحب على موضوع الحذف في كتاب الله عز وجل. وأظنّ أنّ هذا هو ما يقصده محمد عواد في حديثه عن الزيادة.

المصـــدر الـــذي أُخِذَ منه المشروب، بخلاف يشرب بها، وكأنّهم ثابتون متمتّعون على ظهر عين ماء، كلّما عطشوا شربوا، وليس هذا حسب، فقد يكون الشارب من الكـــأس لا يـــتأخر أحد عن خدمته، ولكن في التعدية بالباء معاني أخر زائدة: فهم ملاصقون لهذه العين، يتمتّعون بجمالها، وجمال منظر عيون الماء، ولذلك كان من جـــزاء المؤمنين مبدأ جريان الأنهار من تحتهم، فهؤلاء الصنف من عباد الرحمن أو المقرّبين، يتحقّق لهم الشرب ممزوجا بجمال العيون. وبهذا نعضد ما قاله محمد عـــواد فنرد القول المجرد بالتضمين أو النيابة، وبالوقوف على أسرار تعدية فعل الشرب بالباء ننفي الزيادة كذلك([1]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر توجيه محمد الأمين الخضري لأسرار التعدية بالباء في الآيتين من كتابه: من أسرار حروف الجر فـــي الذكـــر الحكيم، ص١٩٧. وانظر ما قاله فضل عباس في كتابه: لطائف المنّان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، ط١، دار النور، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٢٣-١٢٥.

المبحث الثالث: التناوب في الحروف

إن مبحث التناوب في الحروف، لهو الآخر من المباحث الشائكة التي حظيت بعناية مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة، وذلك في الدورة الأولى لانعقاده. وما كان ذلك ليحدث لولا أنّ القضية فيها من الخلاف ما سطّره النحاة في كتبهم، وتنازعوا في قبوله وردّه.

وكتب المحدثون في هذا الموضوع، ومن أشهر من أفرده بالبحث محمد حسن عواد في كتابه: تناوب حروف الجر في لغة القرآن، الذي قرّر على صدر الصفحة الأولى من مقدمته إبطال وقوع بعض حروف الجر موقع بعضها الآخر، وفاقا للبصريين، وخلافا للكوفيين ومن تابعهم.([1])

جميع الحقوق محفوظة
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ولقد اعتمد كغيره من الباحثين على نص ابن جني في الخصائص، ونص ابن هشام في المغني، إضافة إلى ما مثّل به من الشعر والنثر، حيث قال عقب نص أبي محجن الثقفي: "تحقق إذن أن الحرف لا يقع موقع غيره من الحروف إلا إذا أردنا معنى ذلك الحرف الآخر، وإلا صار الأمر ضربا من العُجمَة وعدم البيان، وفوضى في التعبير لا حد لها "([2]). وقال بعد استقرائه لنص سهل بن هارون: "إنّ البلغاء والفصحاء على مستوى الاستعمال يأبَوْن إيقاع بعض الحروف موقع بعضها الآخر"([3]).

وقد أشار ابن جني وابن هشام إلى هذه الفوضى فيما لو أُخِذ بظاهر القول غُفلا هكذا، أو لو فُتح الباب على مصراعيه دون ضابط. قال ابن جني: " هذا باب يتلقّاه الناس مغسولا ساذجا في الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه. وذلك أنهم يقولون: إن (إلى) تكون بمعنى (مع)، ويحتجون لذلك بقوله تعالى: ﴿مَن

([1]) انظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٥.

([2]) محمد حسن عواد، المرجع نفسه، ص١٧.

([3]) محمد حسن عواد، المرجع نفسه، ص١٨.

أنصاري إلى الله﴾ أي: مع الله. ويقولون: إن (في) تكون بمعنى (على)، ويحتجون بقولـه عز اسمه: ﴿ولأُصلِّبَنَّكم في جذوع النخل﴾ أي عليها. ويقولون: تكون الباء بمعنى (عن) و(على) ويحتجون بقولهم: رميتُ بالقوس، أي عنها وعليها...ولسنا ندفعُ أن يكونَ ذلكَ كما قالوا، لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوّغة له، فأمّا في كل موضع وعلى كلّ حال فلا؛ ألا ترى أنك إن أخذتَ بظاهر هذا القول غُفْلاً هكذا، لا مُقيَّداً، لزمك عليه أن تقول: سرتُ إلى زيد، وأنت تريد: معه، وأن تقول: زيد في الفرس، وأنت تريد عليه في العداوة، وأن تقول: رويت الحديث بزيد، وأنت تريد: عنه، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش "([1]).

ويرى محمد الأمين الخضري توسط ابن جني في هذه القضية، ويَعُدُّه أحسن من عرض لرأي البصريين كما قال البطليوسي([2]). وقد أحسن حين وضع رسما يُعمَلُ عليه، ويؤمن التزام الشناعة لمكانه، الذي تمثل في قضية التضمين، ولكنْ على نحو غير ما أورده مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة([3]). ومهما كُتِبَ في قضية التناوب يبقى الأمر فيه مجالا للخلاف.

وقد تنبّه ابن هشام لذلك، فقال في المغني آخر حديثه عن الباء المفردة: "مذهب البصريين أن أحرُف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس، كما أنَّ أحرف الجزم، وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ، كما قيل في ﴿ولأُصلِّبَنَّكم في جذوع النخل﴾: إنّ (في) ليست بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب، لتمكنه من الجذع بالحالِّ في الشيء، وإما على تضمين الفعل معنى فعلٍ يتعدى بذلك الحرف، كما ضمّن بعضهم(شربن)في قوله: (شربن بماء البحر)معنى رَوِينَ، وأحسن في ﴿وقد أحسنَ بي﴾ معنى لَطَفَ، وإما

([1]) ابن جني، الخصائص،ج٢،ص٣٠٦-٣٠٨.

([2]) انظر البطليوسي، محمد عبد الله، (ت٥٢١هـ). الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ٢م، (تحقيق الأستاذ مصطفى السقّا و حامد عبد المجيد) مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م، ،ج٢،ص٢٦٤.

([3]) انظر: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٧ وما بعدها.

علـــى شـــذوذ إنابة كلمة عن أخرى، وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين، وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شاذاً، ومذهبهم أقل تعسُّفاً "([1]).

وابن هشام، وإن استهواه رأي الكوفيين، حيث رأى فيه أقل تعسفا من رأي البصـــريين، إلا أنّـــه يرفض كما رفض ابن جني من قبل أخذ الأمر على ظاهره، حـــتى لا يقـــع الدارس في الفوضى، كما أشار محمد عواد. ولذلك عاد وذكر في نهاية المغني؛ في الباب السادس منه، تحت عنوان: في التحذير من أمور اشتهرت بيـــن المعربين، والصواب خلافها، قال: " قولهم: (ينوب بعض حروف الجر عن بعـــض) وهذا أيضا مما يتداولونه ويستدلون به، وتصحيحه بإدخال **قد** على قولهم يـــنوب، وحينئذ فيتعذر استدلالهم به، إذ كل موضع ادّعوا فيه ذلك يقال لهم فيه: لا نسلم أنّ هذا مما وقعت فيه النيابة، ولو صح قولهم لجاز أن يقال: مررت في زيد، ودخلت من عمرو، وكتبت إلى القلم"([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ومقتضـــى كـــلام ابـــن هشام كما قال محمد عواد([3]) أن هذا التناوب قليل الوقـــوع فـــي العربية، وهذا خلاف ما جاء عن ابن جني حيث قال: "ووجدت في اللغـــة مـــن هذا الفن شيئاً كثيرا لا يكادُ يُحاطُ به، ولعلّهُ لو جُمِعَ أكثره (لا جميعه) لجاء كتابا ضخما، وقد عرفت طريقه، فإذا مرَّ بك شيء منه فتَقَبّله وأُنس به، فإنّه فصلٌ من العربية لطيف، حسن يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها "([4]).

ويـــبدو لـــي أنَّ ابن هشام أراد ألّا يفتح الباب على مصراعيه في التناوب، غُفْـــلا دون تقيـــيد، ولمّا قبل النيابة قيّدها بالقلة. أمّا ابن جني فلا يُفهَم من عبارته

([1]) ابـــن هشـــام، مغنـــي اللبيـــب،ج١، ص١٢٩-١٣٠، ويمكن الاستزادة في موضوع تناوب حروف الجر بالاطلاع على ما جاء عند ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـــ). تأويل مشكل القرآن، (شرح وتحقـــيق السيد أحمد صقر)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٤٢٦، والبطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب،ج٢،ص٢٦٢-٢٩.

([2]) ابن هشام، المصدر نفسه،ج٢، ص٧٥٥-٧٥٦.

([3]) انظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص١٩.

([4]) ابن جني، الخصائص،ج٢، ص٣١٠

كثرة التناوب، إنّما الكثرة التي أشار إليها مُتَمَثِّلَةً في التعدية بالحروف، على خلاف الظاهر من القاعدة، ومن ثَمَّ البحث عن سر ذلك.

والـــذي نخـــتاره في هذه الدراسة هو ما اختاره المحققون من أهل العربية، ومـــا ســـار علـــيه محمـــد عـــواد والأمين الخضري وفضل عباس وغيرهم من الباحثين([1])، من أن حروف الجر لا تتعاقب، خاصة في كتاب الله عز وجل، إذ إنّ فـــي جواز تعاقبها إبطالا لحقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها كما قال ابن درستويه. وقال العسكري لا يقول بجواز التناوب إلا من لا يتحقق المعاني([2]).

وتدخـــل شواهد تناوب حروف الجر تحت باب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم؛ ذلك أنها تشتبه في معناها مع حرف آخر يقتضيه ظاهر المعنى. وقد ذكر محمـــد عواد جملة من هذه الشواهد([3])، ولكنّ معالجته لها كانت نحوية أكثر منها بيانـــية، وقلـــت: إنّ جهـــده بحاجة إلى من يستأنفه بيانيا، ولعلّ جزءا من دراستي يكون من هذا الباب.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص١٨٩.

([2]) يُنظر كلام ابن درستويه والعسكري من: العسكري الحسن بن عبد الله، (ت٤٠٠هـــ). كتاب الفروق، ط١ ، (تقديم وضبط أحمد سليم الحمصي)، طرابلس، لبنان، ١٩٩٤م، ص٢٧. وقد نقل رأي المحققين من أهل العربية في هذه المسألة.

([3]) انظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٢٣-٤٦.

أولا:قوله تعالى: ﴿ فاسأل به خبيرا﴾

ذكـــر محمد عوّاد أنّ مُجَوِّزي التناوب استشهدوا بآياتٍ قرآنية على مجيء الـــباء بمعـــنى عن([1])، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الذي خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستّة أيامٍ ثمّ استوى على العرشِ الرحمنُ **فاسأل به** خبيرا﴾الفرقان:٥٩.

وقد تنازع المفسرون كغيرهم من النحاة في معنى الآية، ومما أشكل عليهم فيها، قوله تعالى: ﴿فاسأل به خبيرا﴾ أهو على الأصل، أم على التضمين، أم على النـــيابة. فقـــال الطبري معناه: فاسأل يا محمد خبيرا بالرحمن، خبيرا بخلقه، فإنه خـــالق كـــل شـــيء، ولا يخفـــى عليه ما خلق، وإذا أخبرتك شيئا، فاعلم أنه كما أخـــبرتك([2]) . وفرّق الزمخشري بين قوله تعالى ﴿فاسأل به﴾ وبين قولنا: فاسأل عنه. فالأولى بمعنى: اهتم به، واعتنى به، واشتغل به، والثانية بمعنى: بحث عنه، وفتّش عنه، ونقّر عنه. ولكنّه لم يُوظّف الفرق بين المعنيين، فعاد وقال: يريد: فسل عـــنه رجـــلا عارفـــا يخبرك برحمته، أو فسل رجلا خبيرا به وبرحمته، أو فسل بسؤاله خبيرا، هذا إن جعلت خبيرا مفعولا لسل، فإن جعلته حالا عن الهاء أردت: فسل عنه عالما بكل شيء([3]) . وبنحو ما قال الزمخشري أو قريب منه قال أغلب المفســـرين، ونسبوا معنى المجاوزة للأخفش والزجاج، واستشهدوا ببيتي عنترة، وعلقمـــة. وذكر القرطبي أيضا أن جماعة من أهل اللغة يقولون بذلك ([4]). ومنهم

([1]) انظر محمد حسن عواد، المرجع نفسه، ص٣٢.

([2]) انظر الطبري، جامع البيان، ج١٩، ص٣٥

([3]) انظر الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص٢٨١.

([4]) انظـــر الرازي، التفسير الكبير، مج٨، ص٤٧٨، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤،ص١٢٩، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣،ص٤٣، وأبا حيان، البحر المحيط،ج٨، ص١٢١، و البقاعي، نظم الدرر، ج١٣ ، ص٤١٥-٤١٦، والخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (١٠٦٩هـــ). عناية القاضي وكفاية الراضي، ط١ ، ٩م، (ضـــبط وتخريج الشيخ عبد الرزاق المهدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٧،ص١٥٠، و الألوســـي، أبـــا الفضل محمود، (ت١٢٧٠هـــ). روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ط١، ١٥م، (تحقـــيق وتقديـــم الشيخ محمد أحمد و الشيخ عمر عبد السلام السلامي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ج١٩، ص٥٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩، ص٦١. والذي استشهدوا به من شعر عنترة قوله:

مـــن احتمى بالتضمين خشية القول بالتناوب، كما حصل مع الألوسي، حيث ضمّن ســـأل معنى فتّش أو اعتنى؛ والتفتيش، والاعتناء، والاهتمام، والاشتغال، والبحث، والتنقـــير كلها كما قال الزمخشري من قبل تتعدّى بحرف المجاوزة. ويرى محمد عواد أنّ الواجب علينا أن نقول: إنّ من معاني سأل ما أوردوه، وفي ذلك مندوحة عن القول بالتضمين([1]).

إنّ ما خُيّل إليهم من تشابه بين الباء وبين حرف المجاوزة أو غيره، يُذهب بـــرونق المعـــنى البياني للآية القرآنية. فالآية تتحدث عن التعريف بالرحمن، وقد حشـــدت لذلك أدلة ليست قريبة المتناول والتداول بين الناس، فلم تُعَرِّفه الآية بخلق الأنعـــام مـــثلا، بـــل عرفته بِخَلق السموات، وبخَلق الأرض، وخَلْقِ ما بينهما، ثم بالاستواء على العرش. هذا هو الرحمن خالق كل شيء، فاسأل يا محمد، أو يا من تريد السؤال خبيرا. ولكن ينبغي في سؤالك أن تستصحب الله، وأن تستحضر لطفه وتوفيقه، كي يُرشِدَك إلى فهْم الجواب وعقله، فأنت تسأل عن الرحمن، مُعرّفا بأدلة جِســام تَحتاج فضلا عن المُعرِّف بها إلى استصحاب الهداية والتوفيق من الله، كي يفتّح عليك فتحا، يجعلك تفْقَه من خلاله معنى الرحمن. والذي يؤكد استصحاب الله فـــي الـــتعرُّف إليه بهذه الأدلة، هو ما وقع فيه كثير من الباحثين في حديثهم عن الاســـتواء، وعن خلق السموات والأرض، وما بينهما في ستة أيام. وكأن ما وقع فـــيه الدارسون كان بسبب عدم استصحابهم لطف الله وهدايته، في طلب هذا النوع مـــن المعرفة، وذلك كائن في التعدية بالباء، وهي على أَصلها في الالتصاق، ومن ثمّ لا حاجة إلى القول بالتضمين، أو التناوب، أو غيره([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

هلّا سألت الخيلَ يابنةَ مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وبيت علقمة: فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيبُ

أي عن النساء، وبما لم تعلمي.

([1]) انظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٣٣-٣٤.

([2]) وقريـــب من هذا المعنى ما ذكره محمد الأمين الخضري، في كتابه من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٠٤.

ثانيا:قوله تعالى:﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾

وممّـــا تشابه لفظه من هذا الباب، وتأوّله المفسّرون والنحاة على التضمين مـــرة، وعلـــى النيابة أخرى، وأحيانا على الزيادة قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾المعارج:١. فمنهم مَن ضمَّن سأل معنى دعا، كأنْ قد قيل: دعا داعٍ، أو إنّ ســـأل بمعـــنى دعـــا. ومنهم مَن ضمَّن الفعل معنى الاعتناء، والاهتمام، والبحث، والاستفهام، والاستدعاء، أو إنّ من معناه ذلك. وأورد الألوسي احتمال المجاز، أو جـــواز أنّ الـــباء زائدة، وقال القرطبي: " والباء وعن يتعاقبان، كما تقول: رميت بـــالقوس، وعـــن القوس "([1]). ولم يَخرج محمد عواد عن هذه المعاني، فقد رفض التضمين، والنيابة، وأقرَّ مَن قال: إنّ من معاني سأل دعا أو غيره([2]).

إنّ الســـرّ –والله أعلم– وراء تعدية سأل بالباء دون غيرها من الحروف في هذه الآية، يعود إلى حال السائل، وإلى المعلومة التي يُريد الله عز وجل أن يُبلّغها في هذا المقام. فالباء ترسم لنا حال السائل، وتكشف لنا عن نفسيته، وعمّا يُداخِلُها مـــن سيطرة فكرة العذاب عليه، واستصحابها لحاله، وملاصقتها له. وأنّ الله يُريد أن يُبَيِّنَ لنا أن السؤال في هذا المقام لم يكن لولا عظم المسؤول عنه. ومع ذلك –

([1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣،ص١٨، وانظر أيضا: الطبري، جامع البيان، ج٢٩،ص٨٢ فإنّ ســـأل عنده بمعنى دعا. وفي الزمخشري، الكشاف،ج٤،ص٥٩٦ ضمّن سأل معنى دعا، أو عنى واهتم. وفي الـــرازي، التفســـير الكبـــير، مج١٠، ص٦٣٧ عن ابن الأنباري أن الباء بمعنى عن. وفي القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٨،ص١٨١ أن الباء يجوز أن تكون زائدة، ويجوز أن تكون بمعنى عن، ويجوز أن يكون السؤال بمعنى الدعاء. وفي البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥،ص٢٤٤ سأل بمعنى دعا. وفي البحر المحيط لأبي حـــيان،ج١٠،ص٢٧١ أن سأل بمعنى دعا، وقيل: بمعنى بحث واستفهم، وقيل الباء بمعنى عن. وفي البقاعي، نظـــم الدرر،ج٢٠، ص٣٨٩ أن الباء بمعنى عن، أو تفيد السببية. وأورد الألوسي في تفسيره،ج٢٩،ص٨٨ هـــذه الآراء مجتمعة ما خلا السببية، وزاد احتمال القول بالمجاز. وفي ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٩ ،ص١٥٥ أنّ من بلاغة القرآن الكريم تعدية سأل بالباء، ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام، والدعاء، والاستعجال، لأن الباء تأتي بمعنى عن، وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال. وعند الجميع أن ذلك كثير بعد فعل السؤال.

([2]) انظـــر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٣٣-٣٤. ويذكر أنّ محمد عواد قد كفانا في كثير مـــن الأحـــيان مؤونة التفتيش في كتب النحو، لتوثيقه النصوص من كتبهم خاصة، فلْتُراجع حيث أحلتُ على كتابه لمن أراد الزيادة.

حيـــث يقتضي الحال الاعتبار والتلبُّس بالإيمان- إلّا أنَّ هذا السائل عديم الإدراك، ذو خفـــة في عقْله حيث لم يقده سؤاله، على ما فيه من تحقق الوقوع، وتأكّد نزول العـــذاب إلـــى الإيمـــان بالله وبرسوله. فالباء على أصلها، أفادت دوام الالتصاق والمصاحبة، في صورة لذاك المكابر السادر في غيّه، على الرغم من تحققّ وقوع العذاب عنده، في إشارة إلى أن اللهو والكبر أساس معصية الله.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثا:قوله تعالى: ﴿ ويومَ تشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾

وآيــة ثالثة ذكرها محمد عواد من شواهد مُجوّزي مجيء الباء بمعنى عن، وهي قوله تعالى: ﴿ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمامِ ونُزِّلَ الملائكَةُ تنزيلا﴾الفرقان:٢٥. اعــتمد أغلــب المفسرين في تأويل ما أشكل من هذه الآية على ما أورده الفراء، حيــث قال في تأويل معنى الباء في قوله تعالى: ﴿تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾الفرقان: ٢٥ "ومعــناه –فــيما ذكروا–تشَقَّقُ السماءُ عن الغمام...وعلى وعن والباء في هذا الموضــع بمعــنى واحــد، لأنَّ العرب تقول: رميتُ عن القوس، وبالقوس، وعلى القــوس، يُراد به معنى واحدٌ"([1]). وذكر المفسرون أيضا أن الباء في هذا المقام قد تفيد السببية، أو هي للآلة، أو تكون بمعنى باء الحال؛ وهي باء الملابسة نفسها كما قال الألوسي، أو التي يصح وقوع مع موقعها، على ما أورد محمد عواد نقلا عن أبي حيان، وعن الزركشي([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ومــن زحمة هذه الآراء التي قيلت في معنى الباء، يُمكن أن نمتح بالاعتماد علــى الســياق معــنى يُناسبُ المقام، ويُسعف في توجيه ما تشابه من تعدية فعل التشــقق بالــباء دون غيره، على الرغم من أنّ ظاهر السياق يتطلّب غير حرف الباء.

لا يــرتاب الباحث في أنّ ما قيل من معانٍ للباء في الآية الآنفة الذكر يحُلُّ جُزءا من إشكال مقصودها، ويُذهِب التشابه عنها. ولكنّ هذا الحل قائم على حساب

([1]) الفراء، معاني القرآن، ج٢، ص٢٦٧. وانظر أيضا أقوال المفسرين من: الطبري، جامع البيان، ج١٩،ص ١٠-١١ فهــي عنده بمعنى عن، وفي الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص٢٦٨ تفيد السببية، وفي الرازي، التفسير الكبــير،مج١٩، ص١٠ بمعنى عن، ولا يمنع أن تفيد السببية، ويرى البيضاوي في تفسيره،ج٤،ص١٢٢ أنها تفــيد الســببية، وعند أبي حيان،ج٨،ص١٠٠ بمعنى عن، أو هي باء الحال، أو السببية، ويرى البقاعي،ج١٣ ،ص٣٧٢ أنهــا بمعنى عن، وفي الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي،ج٧،ص١٢٤ أنها تفيد السببية، أو الآلــة، أو باء الحال وهي باء الملابسة وهو الأظهر، ومثله عند الألوسي، روح المعاني،ج١٩،ص١٤، وعند ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٩،ص١٠ أنها أيضا بمعنى عن، أو السببية.

([2]) انظر محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٣٤. ولم يقطع في معنى هذه الآية، كما أنه لم يُرجّح قول أحد على أحد، بل أحال علمها إلى الله تعالى.

أمـــور أخـــرى أهمّها: إخراج الآية عن الدلالة الأصلية التي تُستفاد من بقاء الباء علـــى أصـــل معناها. فالأصل في هذا المقام أن ترسم لنا الباء صورة مشهد من مشاهد يوم القيامة؛ ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات...﴾ إبراهيم:٤٨، حيـــث كـــثرة الغمام وتراكمه، وشدة تأثيره في جُرم من أعظم آيات الله. فالتشقّق مصـــحوب أو مُلابس لهذه الشدّة من كثرة الغمام وتراكمه، وهذا يتناسب مع سياق المقـــام القائم على أهوال الساعة، وعلى القدرة الإلهية في تغيير هيئة السماء عمّا هـــي عليه الآن. ومن ثَمّ فإنّ هذه الدلالات يُمكنُ أن تغيب لو اعتمدنا ما قاله أغلب المفســـرين فـــي توجـــيه هذا التشابه، وإن كانت بعض توجيهاتهم محتملة لو قلنا بتـــناوب حـــروف الجـــر في القرآن الكريم؛ قال الزمخشري: " ولما كان انشقاق الســـماء بســـبب طلـــوع الغمام منها، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء، كما تقـــول: شق السنام بالشفرة، وانشق بها. ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ المزمل: ١٨. فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات، وانشقت عن النـــبات؟ قلـــت: معنى انشقت به: أنّ الله شقّها بطلوعه فانشقت به، ومعنى انشقت عـــنه: أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها"([1]).

ورأى محمـــد الأميـــن الخضـــري أنّ باء الآلة هي باء المصاحبة، وبذلك امـــتدح ما جاء به الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾المزمل: ١٨. ونـــص كلامه: "وقد أحسن الألوسي رحمه الله الكشف عن سر الباء في هذه الآية (يعني آية المزمل)، فقال:(والباء للآلة، مثلها في قولك: فطرت العود بالقَدوم فانفطـــر بـــه...) وبـــاء الآلة ليست إلا باء المصاحبة، لأنّ الفعل يقع بمصاحبتها، وإلصاقه بمجرورها"([2]).

([1]) الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص١٦٨.

([2]) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٠٧.

إنّ كـــلام الخضـــري يحـــتاج إلـــى نقاش؛ فالحكم على باء الآلة بأنّها باء المصـــاحبة لمجرد أنّ الفعل يقع بمصاحبتها، وإلصاقه بمجرورها كلام لا يستقيم. فالمعنى الذي تفيده الآلة غير المعنى الذي تفيده المصاحبة. فباء الآلة تفيد أنّ شدة يوم القيامة كفيل بأن يُصدّع السماء ويُشقّقها، فتنفطر بذلك اليوم، وهي بهذا التأويل قريـــبة من باء السببية. أمّا باء المصاحبة فتزيد على ذلك، وتُعطي دلالات أُخرى، وربّمـــا مغايـــرة للمعنى الأول؛ والفرق بين المعنيين دقيق، إذ إن المصاحبة ترسم صـــورة انفطـــار الســـماء، ومـــا يُصاحب ذلك أيضا، فليس من اللازم أن يكون الانفطار بسبب ذلك اليوم أو به على معنى الآلة. وبذلك فإنّ ترجيحه قَصَرَ المعنى الدلالـــي علـــى أن يـــوم القيامة هو آلة انفطار السماء، وتزامن الفعل مع صورة الحـــدث. فالقدوم على سبيل المثال يشق العود، فالعود مشقوق بالقدوم، ولاشك أنّ إيقـــاع الضـــرب بـــالقدوم على العود يُحدث شقّا، والشّقُّ المُحدَث ملاصق للفعل وملابس له. وذلك كلّه قريب، ولكنّه لا يفيد ما تفيده باء المصاحبة، إذ إنّ فيما تقدّم تركـــيزا علـــى الآلـــة؛ أي على ذلك اليوم فحسب، ولكنّ القول بالمصاحبة يشمل التركـــيز على هول اليوم وشدته، وعلى ما يُصاحب هذا الحدث العظيم. وبالعودة إلـــى مـــثال شق العود بالقدوم نرى أنّ الفرق واضح بين التركيز على فعل الشقّ بـــالقدوم، وبين ما يُصاحب فعل الشق. والآية -والله أعلم- تُركّز على ما يُصاحب فعل الانفطار، إضافة إلى إفادة الانفطار بذلك اليوم، ورسم صورته من باب أولى.

وثمّة أمر منهجي آخر: يقتضي أن يمدّح الخضريُّ الزمخشريَّ لا الألوسي؛ إذ القـــول لـــيس للألوسي، وإن أورده في تفسيره، فالنص للزمخشري، وكثيرا ما يـــنقل الألوســـي عـــن الزمخشـــري، بل إنّ تفسيره ما هو في أغلبه إلا تحقيقات واختـــيارات لما جاء به الزمخشري وأبو حيان وابن عطية وأبو السعود والشهاب الخفاجـــي. هذا لو سلّمنا للخضري جدلا أنّ باء المصاحبة هي باء الآلة، على أنّ أحـــدا من المفسرين فيما اطلعت عليه لم ينص على ذلك، ولكنّ الخضري استنتجه نفسه من كلام الألوسي. ولم يُؤوّل الخضري الباء في الآية الخامسة والعشرين من ســـورة الفرقان على معنى الآلة، مع قول الشهاب الخفاجي بذلك، وتشابه المعنيين

فيما نص عليه المفسرون، والخضري نفسه أيضا([1]).

ولعلّ آية سورة طه من أكثر الآيات التي تداولها الباحثون في الحديث عن موضوع تناوب حروف الجر؛ تلك الآية التي شغلت النحاة وكثيرا من المفسرين([2])، حيث عُدّيَ فعل التصليب فيها بحرف الظرفية(في)، مع لزوم حرف الاستعلاء في ظاهر الأمر.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر: الزمخشري، الكشاف،ج٤،ص٦٢٩، والرازي، التفسير الكبير، مج١٠، ص٦٩٢-٦٩٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج١٩،ص٣٤، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥،ص٢٥٧، وأبا حيان، البحر المحيط،ج١٠،ص٣١٩، والبقاعي، نظم الدرر،ج٢١،ص٢٧، والألوسي، روح المعاني،ج٢٩،ص١٧١، وابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٩،ص٢٧٥، ومحمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٠٥- ٢٠٧.

(٢) انظر الفراء، معاني القرآن، ج٢، ص١٨٦-١٨٧، والرمّاني، أبا الحسن علي بن عيسى، (٣٨٤هـ). معاني الحروف، ط٢، (تحقيق عبد الفتاح شلبي)، دار الشروق، جدة، ١٩٨١م،ص٩٦، وابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن،ص٤٢٦، والمالقي، أحمد بن عبد النور، (ت ٧٠٢هـ)، رصف المباني في شرح حروف المعاني، ط٣، (تحقيق أحمد الخرّاط)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٤٥١-٤٥٢ والمالقي وإن قال: المعنى في ذلك كله (على)، إلا أنّه منتبه إلى المعاني التي يُفيدها حرف الظرفية، قال: " ألا ترى أنّ معنى (في جذوع النخل) الوعاء، وإن كان فيها العلو، فالجذع وعاء للمصلوب، لأنه لا بد له من الحلول في جزء منه. و المرادي، الجنى الداني، ص٢٥١، و ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص١٩١.

رابعا:قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

قال تعالى في الحديث عن غضب فرعون، وكيده بالسحرة الذين آمنوا بموسى وهارون: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾طه: ٧١.

يرى الزمخشري أنّ في هذه التعدية تشبيها لتمكن المصلوب في الجذع، بتمكن الشيء الموعى في وعائه([1]). ونقل الرازي عبارة الزمخشري، وضعّف قولهم: إنّ (في) بمعنى على في هذه الآية([2]). وبالذي قالا قال البيضاوي([3]). وضعّف أبو حيان هو الآخر قول من قال: إن (في) بمعنى على في الآية، وضعّف أيضا قولهم: إن فرعون نقر الخشب، وصلبهم في داخله، فصار ظرفا لهم حقيقة، حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا. ورجّح أن يكون فرعون أراد بالتقطيع والتصليب في الجذوع التمثيل بهم، ولمّا كان الجذع مقرا للمصلوب، واشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف عُدّيَ الفعل بـ(في) التي للوعاء([4]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وقال الزركشي في النوع السابع والأربعين، تحت عنوان: في الكلام على المفردات من الأدوات، قال في حديثه عن هذه الآية: " ولم يقل (على) كما ظن بعضهم؛ لأن (على) للاستعلاء، والمصلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنما يصلب في وسطها، فكانت (في) أحسن من (على) "([5]). ولكنّ الزركشي عاد في حديثه ليقول: إنّ في تأتي بمعنى على كما في قوله تعالى: ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾طه:٧١. وضعّف بعد ذلك رأيين آخرين حقّهما أن يتقدّما قال: " وقيل: ظرفية؛ لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور، فلذلك جاز أن يقال: في.

---

(١) انظر الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص٧٤.

(٢) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٨، ص٧٦.

(٣) انظر البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤،ص٣٣.

(٤) انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٧،ص٣٥٨.

(٥) الزركشي، البرهان، ج٤، ص١٥٥.

وقيل: إنّما آثر لفظة(في) للإشعار بسهولة صلبهم؛ لأنّ (على) تدلّ على نبوّ يحتاج فيه إلى التحرّك إلى فوق "([1]).

وقال الألوسي متابعة لما في معاجم العربية: " في جذوع النخل أي عليها"([2]). وقد أحسن ابن عاشور إذ قال في التعبير عن المراد بهذه التعدية-وكأنّه يشرح نص الزمخشري ومن ذهب مذهبه-: " والتصليب: مبالغة في الصلب، والصلب، ربط الجسم على عود فتنصب، أو دقّه عليه بمسامير. والمبالغة راجعة إلى الكيفية أيضا، لشدة الدق على الأعواد؛ ولذلك عدّل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية، تشبيها لشدة تمكن المصلوب من الجذع بتمكّن الشيء الواقع في وعائه...وتعدية فعل لأصلّبنكم بحرف(في) مع أنّ الصلب يكون فوق الجذع لا داخله، ليدل على أنّه صلب متمكن يشبه حصول المظروف في الظرف. فحرف (في) استعارة تبعية، تابعة لاستعارة متعلّق معنى (في) لمتعلّق معنى(على) "([3]).

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومما تقدّم يتبيّنُ لنا أنّ حرف الظرفية على أصل معناه؛ فقد رسم لنا صورةً ما كان ليقوم بها حرف الاستعلاء في هذا المقام؛ لما في الظرفية من خصوصية تشخيص الحالة التي وصل إليها فرعون من الغيظ و الغضب، وتفلّت أعصابه من إيمان مَن كان له من قبل سندا وعونا، وقد تفنّن في كيفية عقابهم. وجاء فعل التصليب الدال على المبالغة في الصلب ليتناغم مع هذه الكيفية، وليكون تتويج غضبه بعد ذلك بحرف الظرفية دلالة بيّنةً على أبعد نقطة استطاع أن يصل إليها في تعذيب مَن آمن من السحرة بموسى وهارون، وهي حشرهم في جذوع النخل.

([1]) الزركشي، البرهان، ج٤، ص٢٦٤.

([2]) الألوسي، روح المعاني،ج١٦،ص٧٢١. وانظر ابن منظور، لسان العرب،مادة(صلب).

([3]) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٦،ص٢٦٥. وقد اعتمد قوله أكثر المحدثين انظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص١٨٩، و صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص ١٦٨، إلا أنّ الخالدي أورد هذه الآية مستشهدا بها على التضمين في الحروف. و محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٢٦-١٢٨. وقد ذكر محمد عواد في كتابه تناوب حروف الجر، ص٣٧-٣٨ أن (في) على بابها، واستدل على ذلك بمَنْ رأى أن في على بابها من النحاة والمفسرين.

ومـــن دلالات حـــرف الظرفية السابقة يمكننا استنتاج توجيهات وإرشادات دعويـــة؛ فلا ينبغي للمؤمن، فضلا عن الداعية أن يرجع عن دينه، ومن باب أولى لا يجوز له أن يُداهن لقاء عَرَضٍ دنيوي، حتى إن اضطر إلى الوقوع تحت سياط الجلاديـــن، وألوان التعذيب التي كثيرا ما ينهار تحت سقفها ضعاف الإيمان. ففي هـــؤلاء حديثـــي الإيمـــان، وصبرهم على ما فعله بهم فرعون توجيه وإرشاد لكل مؤمـــن بـــالله في الحفاظ على عقيدته، وعدم النكوص على الأعقاب. ثُمَّ إنَّ حرف الظرفـــية يتـــناغم مع استعباد فرعون لقوم موسى، وبطشه بهم. وفيما رسمه هذا الحرف من شدة، إشارة إلى أقصى درجات العذاب التي استطاع أن يصل إليها مَن عـــلا فـــي الأرض، وقال أنا ربُكم الأعلى، أو ما علمت لكم من إله غيري. وبهذا يظهـــر الفـــرق فـــيما تشـــابه على القوم، فدلالة حرف الظرفية غير دلالة حرف الاســـتعلاء الذي يُظهرُ فقط فعل فرعون، ولا يكشف عن درجات غضبه كما هو الحال مع حرف الظرفية.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

خامسا:قوله تعالى:﴿ فويل للمصلينَ الذين هم عن صلاتهم ساهونَ﴾

وفـــي نهاية هذا المبحث أختم بتأويل حرف المجاوزة الذي تشابه مع حرف الظرفية في قوله تعالى: ﴿فويل للمصلينَ الذين هم عن صلاتهم ساهونَ﴾الماعون:٤-٥.

فقـــد عـــرض الطـــبري لمجمل الآراء التي قيلت في تأويل هذه الآية؛ من المراءاة، والتهاون، والتأخير، والتغافل، وعدم المبالاة وغير ذلك، ثمّ قال: " وأولى الأقـــوال في ذلك عندي بالصواب بقوله:﴿ ساهون﴾: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهـــو عـــنها، والتشاغل بغيرها، تضييعها أحيانا، وتضييع وقتها أخرى. وإذا كان ذلك كذلك صحّ بذلك قول من قال: عني بذلك تركُ وقتها، وقول من قال: عني به تركها، لما ذكرت من أن في السهو عنها المعاني التي ذكرت"([1]).

وقال الزمخشري: "فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿عن صلاتهم﴾، وبين قولـــك: فـــي صلاتهم؟ قلت: معنى (عن): أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة الـــتفات إليها؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى في: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم، وكـــان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم"([2]).

ووقفـــت عائشة عبد الرحمن عند تأويل هذه الآية، وذلك بعد رفضها تعاقب الحروف بعضها مكان بعض. وردّت قول مَن تأوّل حرف المجاوزة على أنّه سهو فـــي الصـــلاة، أو تـــرك لهـــا أو ترك لوقتها، أو العبث باللحية والثياب ونحوه. ورجّحـــت أن يكـــون المراد: السهو عن حكمتها، والمراءاة بها، وبالجملة فحين لا تـــنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فذلك -والله أعلم-هو السهو عنها، فتعود بها

([1]) الطبري، جامع البيان، ج٣٠،ص٣٨٠.

([2]) الزمخشـــري، الكشـــاف،ج٤،ص٧٩٩-٨٠٠.وبـــنحو ما أورد الطبري، وما قاله الزمخشري قاله أغلب المفسرين؛ انظر البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥،ص٣٤١، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠،ص١٤٤، وأبا حيان، البحر المحيط،ج١٠،ص٥٥٣، و البقاعي، نظم الدرر،ج٢٢، ص٢٨١.

طقوسا شكلية، ونفاقا من المصلين يُراؤون به الناس. وصلاة الذي يدعُّ اليتيم، ولا يحـــضّ علـــى طعام المسكين خير شاهد على ذلك. فحرف المجاوزة نذير بالويل للمصـــلين الذين هم عن صلاتهم ساهون غافلون عن كونها قياما بين يدي الخالق، توجب الخشوع والتواضع، وتنهى عن الفحشاء والمنكر([1]).

ولم يُوافق صلاح الخالدي عائشة عبد الرحمن فيما ذهبت إليه؛ إذ إنّ قولها بعـــيد عـــن ســـياق سورة الماعون. ورأى أنّ الآية محمولة على تضمين حرف المجاوزة معنى حرف الظرفية، وجمع بين المعنيين، بناء على الشروط التي نصّ علـــيها أصـــحاب المجمـــع الملكي للغة العربية. فهم يسهون في صلاتهم أولا ثمّ يقودهم ذلك إلى السهو عنها، فالسهو في الصلاة وسيلة وطريق للسهو عنها، بحيث يُقصّر المصلي في أدائها حتى يخرج وقتها([2]).

جميع الحقوق محفوظة

حـــرص الخـــالدي علـــى القـــول بالتضمين، جمعا لمعنى الحرفين؛ حرف المجـــاوزة والظرفية، وردّ قول عائشة عبد الرحمن بعلّة البعد عن السياق. بل إنّ قولهـــا –عندي–من صلب السياق، وهو معنى شامل لما قاله المفسرون، وبعيد عن التكلف، الذي يطرأ على الجمع بين المعنيين، فليس بالضرورة أن يكون السهو في الصلاة وسيلة للسهو عنها، بل نادرا ما يكون ذلك.

إن حـــرف (عن) فيه دلالة على مجاوزة هؤلاء للصلاة، فهم غير مكترثين بها، ولا بأفعالها، وهي غير رادعة لهم عمّا يقومون به، فقد تجاوزوا معانيها، غير آبهيـــن بها، ولا بما تُحدثه فيمن يؤديها على وجهها. فهم يمرقون منها، ولا أثر لها فـــيهم، نتـــيجة لـــنفاقهم، وخـــراب قلوبهـــم. ولعلّ ما ذكرتُ يكون قريبا مما قاله المفسرون على ما أوردت، ووثيق الصلة بكلام عائشة عبد الرحمن، التي رأت أن الســـهو عنها يكون بعدم نهيها لأصحابها عن الفحشاء والمنكر. وبهذا نرد قول من

([1]) انظر عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٠٢-٢٠٣.

([2]) انظر صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١٦٩-١٧١.

أورد الآيـــة شاهدا على التناوب، أو من قال إنها بمعنى الظرفية، وفي النص الذي ذكره الخطابي(ت٣٨٨هـــ) دليل على ذلك([1]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر نص الخطابي من حاشية هذه الرسالة،ص١٩

المبحث الرابع: الزيادة في الحروف

إنّ أيــة دراســة بلاغية لدقائق الإعجاز القرآني تقتضي الإشارة لما يُسمّى بقضية الزوائد في كتاب الله عز وجل. وبما أنّ دراسة المتشابه اللفظي ما هي في حقــيقة أمــرها إلا تطبيق عملي على جانب من هذه الجوانب الدقيقة، فقد اقتضى المقــام أن يكــون لهذا الموضوع نصيب مفروض، أعالج فيه مسائل من المتشابه اللفظــي، ولكنْ فيما قيل أو خُرِّج على أنّه من الزوائد، على ألّا أخوض في معمعة الجدال الذي دار حول إثبات الزيادة النحوية في القرآن أو نفيها، وإن كنت مُنحازا إلــى القائليــن بنفي الزيادة. فالذي يهُمُّني في هذه الدراسة هو البحث عن أسرار التعبــير القرآني فيما تشابه من جهة الزيادة؛ إذ إنّ من أسباب القول بالزيادة قياس آيــة من القرآن الكريم على أخرى، بمعنى " قد يكون في كتاب الله آيتان، ذُكِر في إحداهمــا ما لم يُذكر في الثانية، فيحكم بعضهم على هذا الذي ذكر دون غيره في هذه الآية بأنه زائد، كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها﴾الزمر:٧١، و ﴿حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها﴾الزمر:٧٣."(١)

لقــد اطلعــت علــى كثير من الكتابات التي دُوّنت في موضوع الزيادة في القــرآن الكريم، سواء أكانت إشارات عند القدماء، أو دراسات عند المحدثين، إلا أنّــي وجــدت كتاب فضل عباس، الموسوم بــ:(لطائف المنّان وروائع البيان في دعــوى الزيادة في القرآن) من أفضل هذه الدراسات؛ جمعا ودراسة وتنسيقا، فقد جمــع فــأوعى، وناقش فكان صاحب رأي يعضده الدليل، ولم يغادر صغيرة ولا كبــيرة – وهــو يعلــم أنّهــا جديرة بالذكر – إلا أثبتها. وليس هذا من باب الغُلُوّ والإســراف، فللســابق فضــله، ولكنّي وجدت في (لطائف المنّان) ما قاله دارسو موضــوع الــزيادة فــي القرآن الكريم، ولم أجد في دراساتهم ما فيه، الأمر الذي جعلني أتكئ عليه كثيرا في الجانب النظري، وفي اختيار الآيات المُمثّلة لموضوع المتشابه اللفظي، وذلك من جهة ما ادُّعي أنه من باب الزيادة.

---

(١) فضل عباس، لطائف المنّان، ص٩٣-٩٤.

يُغيِّبُ المرء أحيانا عقله فيماري، ويُجادل بغير علم ولا هدى، حتى يصل به الأمر إلى المكر، ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾إبراهيم:٤٦؛ لقد أرادوا أن يطعنوا في القرآن الكريم، ولكنْ من سوء الطالع، كما يقول فضل عباس: أنهم جاؤوه من قلعته الحصينة –وكل قلاعه كذلك – قلعته البيانية التي تستعصي على جميع الرماة، وذوي النبال. ولو أنصفوا – وما هم كذلك – لوقفوا عند كلمة الوليد ابن المغيرة(١). وأيُّ زيادة تلك التي يقولون بها " وما من حرفٍ في القرآن الكريم تأوّلوه زائدا، أو قدّروه محذوفا، أو فسروه بحرف آخر، إلا يتحدّى بسرّه البياني كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز"(٢).

"إنّ ما سمُّوه زائدا أو صلة، عندما نُمعن النظر فيه، فإنّنا لا نتردّدُ أي تردد، ولا نرتاب أدنى ريب، بأنّ هذا الذي سمُّوه زائدا، لم يكن للتأكيد فحسب، ولم يكُن ليُجَمِّلَ به الإيقاعُ فقط، وليس ظاهرة أسلوبية كما قيل، إنما هو بعد ذلك كلّه أمر اقتضاه المعنى، وحتّمته الحكمةُ البيانية، والحكمة العقلية كذلك، فلو ذهبَ من الكلام لذهب جزءٌ جوهريٌّ من المعنى، فهي بحق برهان ساطع على إعجاز هذا الكتاب، بل هي من أهم روافد هذا الإعجاز"(٣).

إن حديثي عن الزوائد سيقتصر على الحروف دون غيرها من الكلمات، ليخرج بذلك ما قيل إنه زائد من الأسماء أو الأفعال، أو الزيادة التي تكون في بنية الكلمة، وتُجمَعُ حروفها في (سألتمونيها).

---

(١) ومن ذلك ما كان يقوله سعيد عقل مثلا لطلابه: ليس للقوسين قاب، بل قابان، إضافة إلى آيات أخرى أكثروا فيها الطعن والافتراء من جهات نحوية، وقول بعضهم أيضا: إنّ في القرآن إطنابا وحشوا لا لزوم له، وغيره كثير. انظر فضل عباس، لطائف المنّان، ص١٣-٢٣. ولابن عطية قديما، ومحمد درّاز حديثا كلام طيّب في الرد على القائلين بالحشو والزيادة، انظر: ابن عطية، أبا محمد عبد الحق، (ت٥٤٦هـ). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، ١٥م، (تحقيق الرحالي الفاروق وآخرين)، الدوحة، ١٩٧٧م، ج١، ص ٦٠-٦١ ، ومحمد عبد الله درّاز، النبأ العظيم، ط١، دار المرابطين، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٤٢.

(٢) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص١٣٩.

(٣) فضل عباس، لطائف المنّان، ص٦٢.

لقد بدأت قضية الزوائد تتشكل معالمها في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمــر بن المثنى(ت٢١٠هـ)(١)، وكتاب "معاني القرآن" للفراء(ت٢٠٧هـ)(٢)، ومــن ثَمَّ عند ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) في كتابه "تأويل مشكل القرآن"(٣)، لتسير بعد ذلــك إلى المفسرين، فيردّها الطبري(ت٣١٠هـ)(٤)، إلا أنّنا نجد الزمخشري(ت ٥٢٨هـ) يقــول أحـيانا بالزيادة من حيث الإعراب، ومن ثَمّ يبحث عن سرّها البيانــي، ولكــنه لا يرتضـيها في كثير من الأحيان(٥)، وينفيها الرازي(ت٦٠٦ هـ)(٦).

وممــن رفض الزيادة من المحدثين وشنّع على من قال بها كل من: محمد عــبده(٧)، ومصــطفى صــادق الرافعــي(٨)، ومحمد عبد الله درّاز(٩)، ومحمود شــاكر(١٠)، وأحمــد بــدوي(١)، وعبد الرحمن تاج(٢)، وعائشة عبد الرحمن(٣)،

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

(١) ملاحظة: أغلب هذه الإحالات موجودة عند الدكتور فضل عباس في كتابه:(لطائف المنان)انظر أبا عبيدة، مجاز القرآن، وذلك عند كثير من الآيات التي قيل بزيادتها.

(٢) وذلك في أكثر من موضع عند عرضه للآيات التي قيل بزيادتها.

(٣) انظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، حيث عقد بابا تكلم فيه عن التكرار والزيادة،ص١٩٥، و٢٩٥-٣٠٦ .

(٤) انظر مثلا: الطبري، جامع البيان،ج١،ص٣٥٧، عند تفسيره لقوله تعالى:(فادعُ ربّك يُخرجْ لنا ممّا تُنبتُ الأرضُ)البقرة:٦١ (أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها)البقرة:٢٥٩ حيث يرد على القائلين بزيادة الكاف،ج٣،ص٣٥.

(٥) انظر الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٦٤٥-٦٤٦، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: (لا أقسم بيوم القيامة)القيامة:١.

(٦) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٣، ص٤٠٦-٤٠٧، وذلك عند تفسيره مثلا لقوله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم)آل عمران:١٥٩، وقد ذكر أمثلة أخرى كثيرة.

(٧) انظر محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣٧٩. وذلك عند تفسير مثلا لقوله تعالى: (فقليلا ما يؤمنون)البقرة:٨٨ حيث يرد القول بزيادة(ما).

(٨) انظر مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ط٢، ٣م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م، ج ٢، ص٢٣١.

(٩) انظر محمد عبد الله درّاز، النبأ العظيم ، ص١٦٢-١٧٣.

(١٠) انظر: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٢٤-١٢٥ نقلا عن هامش الطبري، جامع البيان، ج١،ص٤٤٠.

وفضـــل عـــباس(٤)، وصـــلاح الخالدي(٥). ولئن كتب عبد الرحمن تاج في مجلة الأزهر نافيا للزيادة، فإنّ علي العماري كتب هو الآخر في المجلة نفسها، ردّا على مـــن نفـــى الـــزيادة في القرآن الكريم(٦). ليخرجَ علينا بعد ذلك عبد العال مكرم بمذهـــب عجيـــب – كمـــا ســـمّاه فضـــل عباس – مذهب يُفرّق فيه بين المعنى والأســـلوب، لـــيخلص إلـــى القـــول: بأنهـــا زيادة من حيث المعنى لا من حيث الأسلوب(٧)، فيرد عليه فضل عباس، ويُبطِل ما جاء به(٨).

وبعـــد تطواف في بطون كتب التفسير، ودراسات المحدثين، يتوصل فضل عـــباس إلى أن أسباب القول بالزيادة في القرآن الكريم تعود إلى اثني عشر سببا، وكـــل سبب ذكره يحتاج إلى دراسة مستقلة، وهو جدير بذلك، خاصة ما يبرز لنا دومـــا في مثل هذه المباحث، ممّا يُسمّى بقضية الأصالة والفرعية. وقد مثّل فضل عباس لكل سبب ذكره، وكان التضمين آخرها، إشارة منه إلى عدم اللجوء إليه إلا حيـــن ينعدم التوجيه الدلالي. أمّا أسباب القول بالزيادة فهي حسب ما ذكرها فضل عبّاس على النحو التالي:

مركز ايداع الرسائل الجامعية

أولا: جعل القاعدة النحوية هي الأصل، وتطبيقها على آيات القرآن.**ثانيا:** قياس ما جـــاء في الشعر على القرآن الكريم.**ثالثا:** قياس آية من القرآن الكريم على أخرى (وهـــذه الـــنقطة موضع مبحثنا).**رابعا:** تصوُّر معنى الكلمة القرآنية وتفصيل الآية

---

(١) انظر أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص٩٥- ١٠٤.

(٢) انظر مجلة الأزهر، ابتداء من (٥) عدد شوال ١٣٨٦هـ.

(٣) انظر عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص١٨١- ٢٠٧.

(٤) انظر فضل عباس، لطائف المنّان، وانظر أيضا:فضل عباس، سلامة الحرف من الزيادة والحذف(مقال).

(٥) انظر صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١٧٢- ١٨٥.

(٦)انظرمجلةالأزهر سنة٤٧،محرم،١٣٩٥،فبراير،١٩٧٥.وسنة٤٧،ربيع الأول،١٣٩٥هـ،إبريل،١٩٧٥.انظر الأعداد الأخرى من مجلة المجمع.

(٧) انظر مذهب عبد العال سالم مكرم من كتابه: أسلوب (إذ) في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية،ط١، جامعة الكويت، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٥٥ وص٥٩.

(٨) وللتعرف إلى مزيد من تاريخ هذه القضية انظر فضل عباس، لطائف المنّان، ص٥٧-٩٠.

علـــى هـــذا التصـــوّر.**خامســـا:** قـــياس بعـــض الآيـــات علـــى بعض من حيث الإعـــراب.**سادســـا:** تصور حكم إعرابي لكلمة ما في آية، والتكلف لتطبيق الآية علـــيه.**ســـابعا:** إهمـــال السياق والمأثور في تفسير بعض الكلمات القرآنية.**ثامنا:** التمســـك بقـــراءة شاذة وجعلها أصلا يُقاس عليه.**تاسعا:** عدم التفرقة بين الأساليب العربية.**عاشرا:** الذهول والنسيان.**حادي عشر:** الحكم على الآية القرآنية برأي خال من التأني.**ثاني عشر:** إهمال أسلوب التضمين([1]).

إنّ الـــدارس لكـــتاب الله أو المتدبر له، تستوقفه **ثلاث آيات تجرد فيها خبر ليس الصريح المفرد من الباء التي قيل بزيادتها**([2])؛ قوله تعالى:﴿ **لستَ مؤمنا**﴾ النســـاء:٩٤، وقوله تعالى: ﴿**ليس مصروفا عنهم**﴾هود:٨، وقوله تعالى: ﴿**لستَ مرســـلا**﴾الـــرعد:٤٣. في حين جاء خبرها صريحا مفردا مقترنا بالباء في ثلاث وعشرين آية([3]). فما تأويل هذا التشابه القائم على ما يسمّى بالزيادة ؟

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظر فضل عباس، لطائف المنّان، ص٩١-٩٨. وهي أسباب يُمكن أن تُناقش، خاصة أنّ فضل عبّاس قد جمع في أسبابه التي ذكرها بين النحو والبلاغة، وعليه فقد يقول قائل: إنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، على سنن كلام العرب، وهو لا يُخالف كلام العرب إلا من جهة إعجازه، أمّا قواعد النحو والصرف فواحدة. وعلى العموم فالحديث في هذا يطول، ولكنّي أكتفي بما أشرت إليه.

([2]) الآيات التي جاء فيها خبر ليس مفردا صريحا، وتجردت من الباء التي قيل بزيادتها هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـــا الَّذِيـــنَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ **لَسْتَ مُؤْمِنًا** تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَـــيَاةِ الدُّنْـــيَا فَعِـــندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء:٩٤

﴿وَلَئِـــنْ أَخَّـــرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ **لَيْسَ مَصْرُوفًا** عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾هود:٨

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ **لَسْتَ مُرْسَلاً** قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾الرعد:٤٣

([3]) أحصـــت عائشة عبد الرحمن ثلاثة وعشرين موضعا من كتاب الله عز وجل جاء فيها خبر ليس صريحا مفردا مقترنا بالباء التي قيل بزيادتها، انظر: عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص١٨٤-١٩٠.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أولا: دعوى زيادة الباء وما فيها من تشابه

نقل النحاة والمفسرون عن الأخفش وابن كيسان أن الباء في قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا**﴾ يونس: ٢٧ زائدة([1])، والدليل ورودها في آية سورة الشورى بدون هذه الباء، قال تعالى: ﴿**وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾الشورى:٤٠.

لقد تشابهت الآيتان، حتى إن المفسرين لم يقفوا طويلا عند آية الشورى، بل أحالوا على آية سورة يونس([2]). فما الفرق بين الآيتين؟ وهل الباء زائدة ؟ أم أنّ المعنى في كلتا الآيتين واحد؟

وقف فضل عباس عند آية يونس ابتداء، ونظر في الآية المتقدمة عليها، فرأى أن الباء تشارك في معناها الآية التي قبلها؛ فالذين فعلوا الخيرات يُجزَون بما فعلوا، ويُكرمهم الله بالزيادة، أما الذين يفعلون السيئات، فلا يُجزون إلا بمثل سيئاتهم. وأما حذف الباء في آية سورة الشورى فلأن السياق مختلف؛ فسياق آية سورة يونس إنما هو الحديث عن العدل الإلهي، أما آية الشورى فإنّما تعني الناس بعضهم مع بعض([3]).

([1]) انظر: الأخفش، سعيد بن مسعدة،(ت٢١٥هـ). معاني القرآن،ط١، (تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد) ،عالم الكتب، بيروت،٢٠٠٣م، ص٤٧٧. ونقل عنه ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي، (ت٦٤٣هـ). شرح المفصل للزمخشري، ط١، ٦م، (تقديم إميل يعقوب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م،ج٢ ،ص١٢١ عند حديثه عن دخول الباء في خبر(ما)، وج٤،ص٤٧٧ ، و ج٥،ص٨٠ عند حديثه عن زيادة الباء.وانظر ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص١٢٨، والعكبري، أبا البقاء عبد الله بن الحسين، (ت٦١٦هـ). التبيان في إعراب القرآن، ط١، ٢م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢،ص٩. ونقل القرطبي وأبو حيان عن ابن كيسان فانظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص٢١٢، و أبا حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٤-٤٥، والزركشي، البرهان ، ج٣، ص١٥٩، و البقاعي، نظم الدرر،ج٩، ص١٠٥.

([2]) انظر الطبري، جامع البيان، ج٢٥،ص٤٧، والزمخشري، الكشاف،ج٤،ص٢٢٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦،ص٢٧، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥،ص٨٣، وأبا حيان، البحر المحيط،ج٩،ص ٣٤٤، والبقاعي، نظم الدرر،ج١٧، ص٣٣٥.

([3]) انظر فضل عباس، لطائف المنّان، ص١٠٩-١١٠.

والـــذي يـــبدو لي- والله أعلم- أن آية سورة يونس تحدثت عن مقابلة بين فريقيـــن؛ من حيث الجزاء. فأما الذين أحسنوا فلهم الحسنى، وفي لفظ الحسنى من التفخـــيم ما فيه، فالكلمة بتعريفها أفادت الكمال في الجزاء، ثم أكرمهم الله بالزيادة، وهـــي بتنكـــيرها زيـــادة مفتوحة يذهب معها الخيال كل مذهب، وذلك ما لم يثبت تقيـــيدها بـــنص صحيح([1]). وليس هذا فحسب بل أخذت الآية تسترسل في وصف حـــال هـــذا الصنف من أصحاب الجنة. ثُمَّ جاء دور الفريق الآخر، الذين كسبوا الســـيئات. وكـــأن النفس بعد أن عرفت جزاء الذين أحسنوا تشوفت لمعرفة جزاء الذيـــن كسبوا السيئات، فأخبرهم الحق تبارك وتعالى أن عدله يقتضي أن يُحاسبهم حســـابا دقـــيقا؛ لا زيادة فيه، ولا نقصان، عدل مطلق، فهم لا يستحقون الإكرام، ولـــيس من عدل الحق تبارك وتعالى أن يُضاعف لهم العذاب فوق ما قرّر في علم الأزل. وقـــد أفادت الباء بدلالتها على الإلصاق والمصاحبة أعلى درجات التشابه بين الفعل والجزاء، وعدم مجاوزة أي سيئة فعلوها. ويُمكن أن نضرب مثلا -ولله المثل الأعلى – فلو فرضنا أن أستاذا يتحدث عن عدله في التقويم، أمام جماعة من خـــيرة طلبته، أو أمام طلبته وقد انتهى العام الدراسي، ويُبين لهم أن الطلبة الذين جدّوا واجتهدوا لهم نصيب وافر من العلامات، وزيادة على ذلك لهم تكريم خاص يُســـعدُهم ويرضـــيهم. وفي هذه الأثناء كأنَّ أحد الطلبة الحضور بدا عليه ملامح الاستفهام عن جزاء المهملين، غير المكترثين بدرس الأستاذ الذي كانوا فيه جميعا. فأجـــابهم الأســـتاذ إن عَدْلـــي يمنعني من ظلمهم، ولكنهم لا يستحقون الإكرام ولا التكريم، ومن ثَمَّ سأحاسبهم على النقير والقطمير، وكما يقولون: (على الشعرة) أي أنَّ كـــلّ فعـــل قـــاموا به لن أنساه لهم، سأحاسبهم عليه بدقة. ولا شك أن في هذا الصـــنيع ســـعادة للمجتهدين، وتحفيزا لهم على الإقدام والمتابعة، وتبكيتا للمهملين،

([1]) ومـــن هذه الحسنى، وتلك الزيادة ما ذكره الطبري مثلا قال : " إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عـــباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعاتهم إياه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الـــزيادة علـــيها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة: أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يُعطيهم غرفا من لآلئ، وأن يـــزيدهم غفـــرانا ورضـــوانا، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته "الطـــبري، جـــامع البيان، ج١١، ص١٢٦ وبالجملة فهي زيادة مفتوحة انفتاح دلالة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ووضعهم في سياق الألم والحسرة.

وبالعودة إلى الآية الكريمة نرى أنّ الباء قد أفادت أقصى درجات الدقة في العدل الإلهي؛ فلا إكرام ولا مجاوزة لفعل فعلوه، إنّما الدقّة البالغة في الحكم على أفعال هذا الفريق. وفي ذلك أيضا تبكيت للذين كسبوا السيئات، إذا ما قارنوا أنفسهم أو وازنوها بجزاء الذين أحسنوا.

وأمّا آية سورة الشورى فإن حديثها -كما قال فضل عباس من قبل- عن علاقة الناس بعضهم ببعض. فقد تحدثت السورة عن نعم الله عز وجل؛ من الغيث وآثاره، ومن نشر الدواب برا وبحرا، ثمّ بيّنت الآيات أن كل ذلك إنما هو متاع الحياة الدنيا؛ نعيم زائل لا نفع فيه إلا مدة حياة الإنسان، وهذا من دواعي الاعتبار والإعراض عمّا هو زائل، والتنبه لما عند الله من خير دائم ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾الشورى:٣٦. ولمّا بيّن الحق تبارك وتعالى نعيم الدار الآخرة، وما في ذلك من نفاسة ترغيبا فيها، بيّن من هي له فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾الشورى:٣٦.

ولمّا كان الإيمان والتوكل أمرين باطنين كان لا بد من دلائل من ظواهر الأعمال بحيث تُجَسّد هذين المعنيين، فبدأ سبحانه وتعالى بتعداد ظواهر الإيمان والتوكل، وذكر منها([1]): اجتناب الكبائر، والصفح وعدم الانتقام ما لم يكن من الظالم بغي، ثم زاد الحق تبارك وتعالى الأمر تخصيصا، فذكر إقامتهم للصلاة، والمشاورة والنصح في ما بينهم، وإدامتهم للإنفاق، وانتصارهم على من يتمادى في البغي عليهم، ليكونّ غفرانهم السالف الذكر من قبيل علو الشأن لا الهوان. وقد دعاهم الله إلى الانتصار، ولكنّ قصر ذلك لهم على المماثلة وعدم الزيادة في العقاب، لأن المقصد إظهار عدلهم إلى جانب شجاعتهم، إذ الشجاعة وحدها قد

([1]) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧)وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨)وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩)وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠)﴾ الشورى:٣٧-٤٠.

تقـود إلى تجاوز العدل في الانتصار، وكما يقول البقاعي: " والقصر على المماثلة دعـاء إلـى فضيلة التقسيط بين الكل، وهي العدل، وهذه الأخيرة كافلة بالفضائل الـثلاث؛ فـإنّ من علم المماثلة كان عالما، ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفا، ومـن قصـر نفسه على ذلك كان شجاعا"([1]). ولكنّ لمّا كان ذلك كلّه صادرا من الإنسـان فـي علاقـته مع جنسه، والإنسان مهما سما بأخلاقه لا يُمكن بحال من الأحوال أن يصل في عدله إلى عدل الله سبحانه وتعالى.

وكأنّـي بالـباء التي قيل بزيادتها قد جاءت للتفرقة بين عدل الحق تبارك وتعالى في آية سورة يونس، وبين عدل المؤمنين الذين يتوكلون على الله، فهم وإن كـانوا كذلـك على ما بيّن الله من صفاتهم، إلا أنّ درجة المشابهة، وبلوغ أقصى درجات العدل وغايته خاصة بالمولى سبحانه وتعالى، لا يشاركه في ذلك أحد كائنا من كان. فيكفي من هؤلاء المؤمنين الذين يتوكلون على الله القيام بمجازاة أصحاب البغـي سـيئة -من باب المشاكلة في اللفظ- مثل سيئتهم، وليس بمثلها، ولو كانت الآية: وجزاء سيئة بمثلها، لكان ذلك تعجيزا للمؤمنين، وخروجا عن سياق المعنى المراد ومقصود الآية السابقة. فالباء في آية سورة يونس ليست زائدة، والمعنى في آية سورة الشورى مختلف كل الاختلاف عنه في آية سورة يونس. وبهذا أكون قد أمطت اللثام عن إشكال المتشابه اللفظي في هذه الآية، وأبطلت قولهم: إنّ الباء في آيـة سـورة يونس زائدة، والمعنى واحد في الآيتين. وقد رأينا الفرق العظيم بين المعنيين، والوظيفة التي قامت بها الباء.

([1]) البقاعي، نظم الدرر،ج١٧، ص٣٣٦.

ثانيا: دعوى زيادة الواو وما فيها من تشابه

نقرأ في سورة الزُّمَر قوله تعالى، في حق الكافرين: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا **حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الزمر:٧١ ، ثم نقرأ بعدها في حق المتقين: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا **حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر:٧٣. فما بال حرف الواو حُذِفَ من الآية التي تتحدث عن جزاء الكافرين، وأُثبِتَ في جزاء المتقين، حتّى عُدّ ذلك من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

لقد تنبه النحاة والمفسرون إلى هذا اللون من التشابه اللفظي، ولكنهم اختلفوا في توجيهه، فنُقِل عن الكوفيين، وأبي الحسن الأخفش، وأبي العباس المبرّد، وأبي القاسم بن بَهْران من البصريين، وابن مالك، والبغداديين أنّ الواو تأتي زائدة، واحتجّوا بأنّها قد جاءت في مواضع من القرآن الكريم، ومنها الآية الثالثة والسبعون من سورة الزمر([1]). وعن الحريري، وابن خالويه، والثعلبي من المفسرين، وغيرهم من ضعفة النحويين -كما قال المرادي وابن هشام- أنّها واو

([1]) انظر ابن الأنباري، كمال الدين أبا البركات عبد الرحمن، (ت٥٧٧هـ). الإنصاف في مسائل الخلاف، ٢ م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٣م،ج٢، ص٤٥٦-٤٦٢، و المالقي، رصف المباني، ص٤٨٧-٤٨٨، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٥،ص١١-١٢، والعكبري، التبيان، ج٢،ص٣٦٩، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥،ص١٨٥، وأبا حيان، البحر المحيط،ج٩،ص٢٢٤-٢٢٥ ، و المرادي، الجنى الداني، ص١٦٥-١٦٦، والسبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، (ت٧٧٣هـ). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ط١، ٢م، (تحقيق خليل إبراهيم خليل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، مج٢،ص٣٨، والأنصاري، أبا يحيى زكريا، (ت ٩٢٨هـ). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، ط١، (تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني)، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠١م، ص٢٦٩-٢٧٠، والخضري، محمد بن مصطفى الدمياطي الشافعي، (ت١٢٨٧هـ). حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ٢م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥،ج٢،ص٩٧. ومن المحدثين انظر فضل عباس، لطائف المنّان(من الحاشية)، ص١٩٥ فقد أورد فضل عباس في حاشيته عن طه الزيلي زيادتها للتأكيد.

الثمانية(١).

وقـد ردَّ أغلـب النحاة، والمفسرون على من قال هي واو الثمانية، والمقام لتبـيان سر الواو، والرد على من زعم زيادتها، ولكنْ لا بأس أنْ أورد نصا لابن هشام يرد فيه على من قال إنها واو الثمانية قال: " لو كان لواو الثمانية حقيقة، لم تكن الآية منها؛ إذ ليس فيها ذكر عدد البتة، وإنما فيها ذكر الأبواب، وهي جمع لا يـدل علـى عدد خاص، ثم الواو ليست داخلة عليه، بل على جملة هو فيها"(٢). ونفـى القرطبي أن تكون الواو في الآية واو الثمانية، وذكر للجنة ثلاثة عشر بابا، وليس ثمانية(٣).

إنّ سـورة الزمـر تقوم في كثير من آياتها على ثنائيات متقابلة، فمن الآية الأولـى، تضعنا السورة أمام ثنائية إخلاص العبادة لله في مقابل الشرك به، والكفر فـي مقابل الشكر، وحاجة المرء إلى الله عند الشدة في مقابل النسيان والتخلي عند حضـور الـنعمة، والذيـن يعلمـون في مقابل الذين لا يعلمون إلى غير ذلك من الثنائـيات الكثـيرة، فبضـدها تتميز الأشياء. إلى أن تصل بنا الآيات إلى صورة مشـهدية ليوم الحساب، فيه الحديث عن جزاء الكافرين، مقابل الحديث عن جزاء المتقين. وبدأ بالنبيين والشهداء، وهذان صنفان مميزان لا يحتاجان إلى مقابلة، فلا نزاع في تفضيل الناس لهما في الدنيا قبل الآخرة. وتقع المقابلة بعد ذلك بين الكفر والإيمان، ويُستَفتح بأهل الكفر؛ ليكون مسك الختام بأهل الإيمان، فمن عادة الناس أن يـبدأوا بـالأقل مـنزلة، ويختموا حديثهم بالمتفوقين، فتكون النفوس مشدوهة، ومتشوقة طوال المشهد، ويشدها في ذلك الختام.

---

(١) انظر المرادي، الجنى الداني، ص١٦٥-١٦٦، و ابن هشام، مغني اللبيب،ج٢، ص٤١٧-٤١٩.

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب، ج٢، ص٤١٩.

(٣)انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٥،ص١٨٥-١٨٧.

يُســاق الكفرة إلى جهنم دعا ودفعا، جماعات جماعات، ومقابل ذلك تساق مراكــب أهل الجنة إلى دار الكرامة والرضوان، وشتان ما بين السوقين. ولا تَفتَح جهــنَّمُ أبوابهـــا إلا عــند وصول الكافرين، فهي مقفلة، مؤصدة، حتّى إذا جاؤوها فُتحــت أبوابها دون تأخُّر أو تريُّث، فلا فاصل بين الشرط والجزاء، لشدة السرعة والمــبادرة، وكأنهم مفاتيح أبوابها، وهي المصير، ونهاية الجزاء. وكأنّي بهم وقد وقفــوا علـــى شــفيرها، يــتذوّقون شــدّة حرّها ولظاها، وخزنتها يسألونهم، وهم يتضـــوّعون من هول منظرها، وشدة حرّها. ولم يقع السؤال من الخزنة مباشرة، فـــالواو لا تفيد الترتيب ولا التعقيب، ويُمكننا أن نتخيل منظر مَن يقف على شفير جهـــنم، منـــتظرا مصـــيره، كـــيف تكون حاله، إلى أن يُسألوا فيعترفوا، فيؤمروا بدخولها.

وجـــريا على عادة الناس في الدنيا، فإن السجون تكون مغلقة، ولا تُفتح إلا لداخل أو خارج، وجهنَّم –والعياذ بالله– أشد السجون والمحابس.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

أمّـــا المـــتقون فكما ذكرت: تساق مراكبهم، ويُزفّون، فهم في فرحة ونعيم، حتّى إذا جاؤوها، أي وصلوا إلى أبواب الجنة، ولم يقل الحق تبارك وتعالى(فتحت أبوابهـــا) بل قال: ﴿وفتحت أبوابها﴾ فالجنة دار نعيم وكرامة، غير مغلقة، مُفتَّحة أبوابهـــا لاســـتقبال الكرام الأجلاء، مصداقا لقوله تعالى:﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْـــأَبْوَابُ﴾ص: ٥٠ ، فلـــم ينتظروا على بابها حتى تُفتح، فربما يكون في الانتظار مهانـــة، ولا يليق ذلك بأصحاب الجنة، وهي الأخرى دار كرامة وإنعام وضيافة، ولا يلـــيق بهـــا أن تُغلـــق أبوابها دون الوارد عليها. وجريًا على عادة الناس، إذا بُشِّـــروا بعزيز، لم يُغلقوا الأبواب، بل يفتحوها، ويُزيّنوا للقادم، ويفرشوا الأرض عطـــرا وزهورا، وذلك أنّ الأكابر الأجلاء الأعزاء تُفتح لهم أبواب الأماكن التي يقصـــدونها قبل وصولهم إليها، إكراما لهم وتبجيلا، وصيانة من وقوفهم منتظرين فتحها، فكيف بالجنة ؟ هل يُعقلُ أن تُغلَقَ في وجه هؤلاء المتقين، فلا تُفتَحُ إلا حين يصـــلوا إلـــيها، كالحال مع أهل النار ؟ ذلك كائن لو قلنا بزيادة الواو، وجعلنا فتح أبواب الجنة جزاء للمتقين.

ويجـــوز أن تكـــون الواو عاطفة، فتكون الواو أيضا ذات فائدة في الريث والأنـــاة في فتح أبواب الجنة تقديرا للمؤمنين، إذ في المُغايرة بالواو (وفتحت) عن (فتحـــت) ما يدل على شيء من ذلك. ولكن على ألّا يكون فتح أبواب الجنة جوابا للشـــرط، فجزاء المتقين أكبر من أن تفتح لهم أبواب الجنة – على ما في ذلك من حســـن الجـــزاء– وعليه فالجواب محذوف، وفي الحذف دلالة على أنّ جزاءهم لا يُحـــيط به وصف، تذهب معه النفس كل مذهب ممكن، فلا يكون تصور لجزائهم، إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه، بخلاف ما لو ذُكر، فإنه يتعين، وربما يسهل أمره، والمقام مقام تفخيم وإجلال، وليس مقام حصر وذكر[١]. وتقدير الكلام: حتّى إذا جاؤوهـــا وفُتحـــت أبوابها وقال لهم خَزَنَتُها سلام عليكم طِبْتُمْ فادْخلوهَا خالدينَ، دخلوها وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

إنَّ القـــول بـــزيادة الواو في الآية التي تتحدث عن جزاء المتقين، لا يُنقصُ مـــن جزاء أصحاب الجنة فحسب، بل يُغيِّرُ المعنى، فالواو ليست زائدة، ولا ينبغي لنا أن نحكم بزيادتها قياسا على الآية التي تجردت من الواو في حديثها عن جزاء الكافريـــن[٢]، فقد ذكر الحق تبارك وتعالى كلا الفريقين بما يليق به. ومن ثَمَّ فإنّ التشابه اللفظي في الآية وراءه اختلاف كبير في المعنى.

وبعد، فإنّ ما ذهبت إليه، ليس بدعا من القول، إنّما هو شرح وتوضيح لما قاله المحققون، وجمهور البصريين، من أنَّ الواو في الآية هي واو الحال، وليست زائدة كما زعم الكوفيون، والبغداديون، ومن تبعهم[٣].

([١]) انظر بلاغة حذف جواب الشرط من: ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٦١–٤٦٢، والتفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، (ت ٧٩٢هـ)، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط١، (تحقيق عبد الحميد الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص٤٨٧.

([٢]) انظر فضل عباس، لطائف المنّان، ١٩٥–١٩٦ فقد ذكر مجموعة من الآيات تتشابه بحرف، من حيث ذكره في آية وحذفه من أخرى، ومع ذلك مُحال أن نقول: إن هذا الحرف زائد، لكونه ذُكر في آية ولم يُذكر في الأخرى.

([٣]) انظر ما قيل في تأويل الآيتين، خاصة ما قيل في الواو، وجواب الشرط من: الطبري، جامع البيان، ج ٢٤،ص٤٢–٤٥، والإســـكافي، درة التـــنزيل، ص٢٨٠، والـــبرهان للزملكاني،ص٢٨٥، و المالقي، رصف

ثالثا: دعوى زيادة (أن) وما فيها من تشابه

إنّ ممّـــا اشتهر عند النحويين، وغيرهم ممن اشتغل بالتفسير وعلوم القرآن أنّ (أنْ) المُخَفَّفَـــة كثيرا ما تُزاد بعد (لمّا)، وذكروا من زيادتها مجيئها بعد لمّا في قولـــه تعالى: ﴿ **ولَمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا لوطاً** ﴾العنكبوت: ٣٣، قياسا على عـــدم وجودهـــا فـــي آية سورة هود، من قوله تعالى : ﴿**ولمّا جاءتْ رُسُلُنا لوطاً** ﴾هود: ٧٧.

قـــال ابن يعيش: " وقد تُزاد (أنْ) المفتوحة أيضا توكيدا للكلام، وذلك بعد لمّـــا...قال تعالى: ﴿ ولَمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سيء بهم ﴾العنكبوت: ٣٣، فأنْ فـــيه مؤكدة، بدليل قوله تعالى في سورة هود: ﴿ولمّا جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سيء بهم ﴾هود: ٧٧، والقصة واحدة "(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

وذكر ابن هشام لزيادة (أن) أربعة مواضع، فقال: "أحدها: وهو الأكثر، أنْ تقعَ بعدَ لمّا التوقيتية، نحو: ﴿ ولَمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سيء بهم ﴾ "(٢).

وفـــي توجـــيه ابـــن الزبير الغرناطي لمتشابه هذه الآية ذكر أنّ (أنْ) هذه الخفـــيفة كثـــيرا ما تُزاد، وزيادتها على ضربين: بقياس وغير قياس، فالذي بغير

المبانـــي،ص٤٨٧-٤٨٨، و ابـــن يعيش، شرح المفصل،ج٥،ص١١-١٢، والعكبري، التبيان ،ج٢،ص٣٦٩، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥،ص١٨٥، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥،ص٥٠، وأبا حيان، البحر المحيط،ج٩،ص٢٢٤-٢٢٥، والدر المصون للسمين الحلبي،ج٦،ص٢٥-٢٦، و المرادي، الجنى الداني، ص ١٦٥-١٦٦، و ابن هشام، مغني اللبيب،ج٢، ص٤١٧-٤١٩.

والغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، ج٢، ص٩٩٢-٩٩٧، ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم، (ت٧٣٣هـــ). كشف المعاني في المتشابه المثاني، ط١، (تحقيق مرزوق علي إبراهيم)، دار الشري، الرياض، ١٤٢٠هـــ، ص٣٣٢، والسبكي، عروس الأفراح،مج٢،ص٣٨، و البقاعي، نظم الدرر،ج١٦، ص٥٦٥-٥٦٩ ، والأنصـــاري، فـــتح الرحمـــن، ص٢٦٩-٢٧٠، وحاشية الخضري على شرح ابن عقيل،ج٢،ص٩٧. و فضل عباس، لطائف المنّان، ص١٩٥-١٩٨.

(١) ابن يعيش، شرح المفصل،ج٥،ص٦٧.

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص٤١-٤٢. وانظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٨،ص٣٥٥.

قياس كأن تُزاد بعد كاف التشبيه، وأمّا التي تُزاد بقياس فبعد (لَمّا)(١).

وقـــال الزركشي: " وأمّا أنْ المفتوحة فتزاد بعد لمّا الظرفية، كقوله تعالى: ﴿ ولَمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سيء بهم ﴾العنكبوت: ٣٣ "(٢).

وبـــالعودة إلى الآيتين: من سورة هود، وسورة العنكبوت أقول: لقد تجاوز كثـــير مـــن المفســـرين عـــن تـــأويل مـــا يُمكن أن يُقال في آية هود مُقابَلَةً بآية العنكبوت(٣)، وكأنّ الإشكال يكمُن عندهم في العدول عن الأصل، وهذا حاصل في آية العنكبوت، وليس في آية هود.

فتوجهـــت تِلقاء آية سورة العنكبوت فوجدت: الزمخشري والرازي يَلمَحان أبعـــادا دلالية ما وجدتها عند غيرهما من الأوائل(٤)، ولقد كان لنص الزمخشري أثـــر واضح في توجيهات النحويين والمفسرين، خاصّة الذين جاؤوا من بعده(٥). حيـــث قال: " (أنْ) صلة أكّدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنّه قيل: لمّا أحسّ بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه "(٦).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

(١) انظر الغرناطي، ملاك التأويل،ج٢،ص٦٦٤.

(٢) الزركشي، البرهان،ج٣، ص١٥٢.

(٣) وممـــن تجـــاوز عن ذلك من المفسرين: الزمخشري، والرازي، وابن عطية، وأبو حيان، وأبو السعود، والألوســـي، ومحمد عبده وغيرهم. أمّا الإمام البقاعي، وقد عُني بالتناسب، وتوجيه المتشابه أحيانا، فقد أوجز قـــائلا: "ولم يذكر الحرف المصدري، لأن سياقه ومقصود السورة لا يقتضي ذلك " البقاعي، نظم الدرر،ج٩، ص٣٣٧.

(٤) لـــم يقل ابن عطية، ولا أبو حيان-وإن قال بزيادتها-،ج٨،ص٣٥٥ شيئا يُذكر من جهة التوجيه الدلالي، ولـــم يـــزد البقاعـــي و أبو السعود و الألوسي وغيرهم من المفسرين شيئا على ما قاله الإمامان: الزمخشري والرازي.

(٥) انظر اعتماد كلام الزمخشري، والنقاش حوله من: ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص٤٣ فقد رد ابن هشام علـــى أبي حيان، وخطّاه في نقل نص الزمخشري، وانظر الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي،ج٥،ص ٢٠٠ فقد ردّ على أبي حيان، وعلى ابن هشام، وبعض المفسرين في فهم كلام الزمخشري.

(٦) الزمخشري،ج٣،ص٤٣٨. وقد أقرّ محمد أبو موسى في نقله لنص الزمخشري هذا بزيادة (أنْ) في الآية.انظر محمد أبا موسى، البلاغة القرآنية، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٨، ص٤١٩-٤٢٠.

والمعـــنى أنّ (أنْ) قاربـــت بين وقت المجيء والمساءة، أو جعلت المساءة مُترتّـــبة علـــى المجـــيء، فاختصرت الوقت، وطوت زمن المجيء، لتتحدّث عن النـــتائج، إذ هـــي أكـــبر وأخطر من الحديث عن المجيء، لما فيها من المساءة، والأذى لضـــيوف نبـــيٍّ مُرســـلٍ مـــن عند الله عز وجل. ولعلّ هذا التوضيح من الزمخشري هو الذي قاد فضل عباس إلى القول بإمكانية " أن تكون(أنْ) ظاهرة أسلوبية نأتي بها إذا أردنا طيّ بعض الكلام واختصاره، والانتقال إلى النتائج، دون ذكـــر جميع المقدمات والحقائق، ونترك (أنْ) إذا لم نُرد أن نوجز الكلام ونختصره "(١). ومـــنه يُفهَم أن سياق الحديث في آية سورة العنكبوت كان مختصرا موجزا، ومُركّزا على نتائج المجيء، وليس على فعل المجيء نفسه، وذلك ما أفادته (أنْ).

وتلقّف الرازي ما أوجزه الزمخشري، فحرّك الفكرة وقلّبها، وأمعن النظر، حتى متح منها دلالات ذكية أخرى، أغفلها كثير ممن جاء بعده. فقد نظر إلى سياق الآيتين، وإلى ما قبلهما وما بعدهما، وخلص إلى وجود رابط ما بين قصة إبراهيم، وقصة لوط عليهما السلام في سورتي هود والعنكبوت، وهذا النمط من التعالق ما بيـــن القصـــتين أسهم إسهاما كبيرا في أنْ يكون التعبير بذكر (أنْ) في العنكبوت، والتجرد من (أنْ) في هود.

فحيث ذكر الحق سبحانه وتعالى: ﴿ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيم بالبشرى﴾ هـــود:٦٩ تجـــرد السياق من (أنْ) في قصة لوط فقال تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطـــا ســـيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾هود:٧٧. وحيث ذكر: ﴿ولمّا جاءت رُسُلُنا إبراهـــيم بالبشـــرى﴾العنكبوت:٣١ ذكر (أنْ) فقال تعالى: ﴿ولمّا أنْ جاءت رُسُلُنا لوطا﴾العنكبوت:٣٣.

---

(١) فضل عباس، لطائف المنّان،٢٦٥. وثمة أمثلة ساقها فضل عباس ص٢٦١ في كتابه لطائف المنّان.

وسبب ذلك أنّ تعبير ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾هود:٦٩ يختلف في نظمه عن ﴿ولمّا جاءت رسلنا﴾العنكبوت:٣١ فالتعبير الأول حكاية عن الماضي، وليس معنيا بإبراز لحظة المجيء كما هو في التعبير الثاني، فقد حصلت أمور كثيرة منها: ما جرى بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة من سلام وكلام، ثم تقديم الطعام، ثمّ ﴿ قالوا لا تخف إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾، فالملاحظ تأخير النتيجة وهي هنا الإنذار، معنى ذلك: إذا أردنا تأخير النتائج لم نأتِ بأن.

ولو سرنا نحو آية ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا﴾هود:٧٧، وطبّقنا عليها ما تقدّم من مفهوم كلام الرازي، في تأخير النتائج إذا ما تجرد السياق من (أنْ) نرى ما يلي: أنّ الرسل قد جاءت لوطا عليه السلام، فأصابته المساءة ولحق به الضيق، ولم يجد منفذا للخلاص من هذا المأزق الصعب؛ ضيوف كرام، وقومه يُهرولون مسرعين لعمل السيئات، ويُجادلُ قومه، ويعرض عليهم بناته للتزويج، أو يرشدهم إلى الزواج الشرعي، ويرجوهم ألّا يفضحوه في ضيفه، ويرفضوا هذا العرض، ويُصرّوا على فعل الفاحشة، حتى اضطر نبي الله عليه السلام إلى القول: ﴿ لو أنّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾هود:٨٠، ويرحم الله لوطا عليه السلام، فقد كان -كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم- يأوي إلى ركن شديد؛ وأي ركن أقوى من الاعتماد على الله، إلى أن جاءت النتيجة المُبَشِّرة بعد كل هذا الضيق والمساءة، وما وصلت إليه حالة نبي الله لوط عليه السلام، فلقد تأخرت، ولكنّها جاءت مُفَرِّجة للكرب، وكاشفة للغم، صريحة واضحة تشفي الغليل، على ما في النهاية من حزن وألم لمصير هؤلاء القوم، ممن خالفوا الفطرة السليمة، وأبوْا إلاّ التمرد والعصيان: ﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هود:٨١.

وأمّـا نظـم التعبير في سورة العنكبوت فمتّسقٌ كل الاتساق هو الآخر، مع سياق الآيات، ومع القاعدة الآنفة الذكر؛ من تأخر النتائج إذا تجرد السياق من (أنْ) حيـث يقتضـي ذلـك الانفصـال، وتعجـيل النتائج إذا ما وجدت (أنْ) التي تفيد الاتصال.

قـال تعالى: ﴿ولما جاءتْ رُسُلُنا إبْراهيمَ بالبشرى قالوا إنّا مُهْلِكوا أهلِ هذهِ القريَةِ إنّ أهْلَها كانوا ظالمين﴾العنكبوت:٣١. وكما يقول الرازي: فالواقع في وقت المجـيء هـو قـول الملائكة: ﴿إنّا مُهلكوا﴾، وهو لم يكن متّصلا بمجيئهم لأنّهم بشّـروا أوّلا ولبـثوا، ثـمّ قالوا إنّا مهلكوا، وأيضا فالتأنّي واللبث بعد المجيء، ثم الإخـبار بـالإهلاك حسن، فإنّ من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يُفاجئ بـه([1]). إنّ تعبير الرازي هذا يُفهَم منه تأخير النتيجة وهي هنا: الإهلاك، بمعنى الانفصـال، وكأنه يُريد أن يؤكّد ما جاء به الزمخشري من أنّ (أنْ) تفيد الاتصال، وعدم وجودها يقتضي التأخير والانفصال؛ فبين المجيء والإخبار بالإهلاك فعلان استغرقا زمنا وهما: البشارة واللبث، وذلك لحكمة بيّنها الرازي.

ومن ثَمّ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ولَمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سِيءَ بِهم وضاقَ بهمْ ذَرْعاً وقالوا لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ إنّا مُنَجُّوكَ وأهْلَكَ إلّا امرأتَكَ كانت من الغابِرين﴾العنكبوت: ٣٣ .

إنّ هـذه الآيـة من سورة العنكبوت لا تخرج عن القاعدة الآنفة الذكر، بل تسـير معها جنبا إلى جنب، إذ الآية الكريمة ترسم خوف لوط على ضيوفه، وفي هـذا السـياق يقول الرازي: فالمؤمن حينما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغـي أن يحـزن ويخـاف عليه من غير تأخير، فلقد خاف عليهم حين المجيء فأفادت الاتصال(٢)؛ الاتصال بين وقت المجيء وخوفه عليهم.

([1]) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٩، ص٥٢.

([2]) انظر الرازي، المصدر نفسه، مج٩، ص٥٢.

وخلاصـــة ما تقدّم: إنّ تجرّد السياق من (أنْ) بعد لمّا في سورة هود عليه السـلام كـان لحكـم بالغة منها: التفصيل في سبب المساءة وضيق الذرع، وعدم استعجال النتائج، بمعنى انفصال الفعل عن النتيجة بزمن ما.

وأمّا ذكر (أنْ) بعد لمّا في سورة العنكبوت؛ فلأنّ القصة **أولا**: كانت موجزة ومقتضـبة، مقارنة بالتفصيل الذي جاءت عليه في سورة هود عليه السلام، وكأنّ هذا الحرف أخذ على عاتقه اكتناز الزمن، واختصاره، أو طيّ ما فُصّل من القصة فـي سـور أخـرى. **وثانـيا**: استعجال النتيجة، فلمّا طُويَ الزمن اقتضى الحال المواجهة والاتصال بين الفعل والنتيجة، وهذا ما كان؛ فقد خاف لوط على ضيوفه وقـت مجيئهم، ودون تأخّر، ولذلك فقد طمأنه الرسل أيضا مباشرة، ودون تأخر، فمجـرد أن حصـلت المساءة والضيق كانت النتيجة حاضرة – ولم يكن التفصيل الـذي كـان فـي سورة هود – ﴿قالوا لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ إنّا مُنَجُّوكَ وأَهْلَكَ إلّا امـرأتَكَ كانتْ من الغابِرين﴾ العنكبوت: ٣٣. **وثالثا**: التنبيه على أن ما حدث به مـن المسـاءة وضـيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاؤوا لإهلاك أهل القرية، وقبل أن يقولوا: ﴿لا تخف ولا تحزن﴾.

سورة هود:ولمّا __ جاءت الرسل لوطا +حديث طويل = زمن طويل ____النتيجة(سيء بهم)
سورة العنكبوت:ولمّا __ أنْ __ جاءت الرسل لوطا ___النتيجة(سيء بهم)

ومـنه أيضـا يتبيـن لـنا أنّ (أنْ) فـي آية سورة العنكبوت ليست زائدة للتوكـيد([1])، فقـد طوت هذه المُخفّفة الزمن طيّا، حتى اقترن الشرط بالجزاء في سُـرعةِ توقيتٍ ما كانت لتكون لولا وجودها، فهي هنا كما قال ابن عاشور(٢) – وإن ذهـب لزيادتها– لتحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد لمّا، أي بين مجيء الرسل ومساءة لوط بهم، وعلى النحو الذي ذكرت من قبل.

([1]) وممن قال بزيادتها للتوكيد إضافة لما تقدم: الإمام الألوسي،ج٢٠،ص٤٨٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٤،ص١٩٧–١٩٨.

([2]) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠،ص٢٤٤–٢٤٥.

ومـــن ثَمّ فليس وجيها ما قاله الغرناطي، أو بالأحرى إنّ قوله:- " لمّا كان اللفظ اللفظ وكانت زيادة (أنْ) وعدم زيادتها هنا هَيّناً فصيحا جيءَ بالجائزين معاً، وتأخرت الزيادة إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين"(١) – فيه نظر.

وتجـــدر الإشـــارة إلى أنّ الإمام الإسكافي اقترب من المعاني التي ذكرتها عـــن الإمام الزمخشري وغيره، إلا أنّ عبارته بقيت موجزة غامضة، عصيَّة على الدارســـين، وهذا عين نصه: " اقتران (أنْ) بها في سورة العنكبوت تكملة لمعناها فـــي نفســـها، لـــيدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متصلا به ما يكمله، ويخلصه لتحقيق أو بطلان، فالتي في سورة العنكبوت قد اتصل بجوابها: ﴿سيء بهم وضاق بهـــم ذرعا﴾، ما يكمله ويخلصه لبطلان الذرع السابق إليه...وفي سورة هود، لم يتصـــل بجوابهـــا – لما – ما يخلصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند قولـــه: ﴿قـــالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فبَعُد هذا عن الجواب، ولم يتصل به ما يكون من تمامه"(٢)

بمكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وأمّـــا تعلـــيل الزركشي لسبب زيادتها؛ من كون لمّا ظرف زمان، بمعنى وجـــود الشيء لوجود غيره، وظروف الزمان غير المتمكنة لا تُضاف إلى المفرد، وأنّ المفتوحة تجعل الفعل بعدها في تأويل المفرد، فلم تبق لمّا مضافة إلى الجمل، فلذلـــك حكمـــوا بـــزيادتها "(٣). أمّا هذا التعليل فقائم على عقلية قياسية، تقتضي إخضاع النص القرآني لما قعّده النحاة، هذا فضلا عن اختلافهم في (لمّا)(٤).

فهل يُمكن بعد ذلك كله أن نقول إنّ (أنْ) في سورة العنكبوت زائدة بالقياس علـــى آيـــة سورة هود ؟ لا، لا يُمكن لمنُصفٍ أن يقول بذلك، بلْه وجوب ترديد-

---

(١) الغرناطي، ملاك التأويل، ج٢،ص٦٦٣-٦٦٥.

(٢) الإسكافي، درة التنزيل، ص٢٤٩. وأوضح مله كلام الكرماني في البرهان، ص١٤٢-١٤٣.

(٣) انظر الزركشي، البرهان ،ج٣، ص١٥٢.

(٤) اختلف النحاة في (لمّا) أهي حرف، أم اسم، أم ظرف أم غير ذلك، انظر تفصيل آرائهم من: المالقي، رصف المباني،ص٣٥١-٣٥٥، و المرادي، الجنى الداني، ص٥٩٢-٥٩٧، و ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص٣٠٨-٣١٠.

ونحـــن مطمئنون- قولَ محمد عبد الله درّاز: " دعْ عنكَ قول الذي يقول في بعض الكلمـــات القرآنية إنها(مُقحَمة) وفي بعض حروفه إنها (زائدة) زيادة معنوية. ودع عـــنك قول الذي يستخفُّ كلمة (التأكيد) فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يُبالـــي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يُبالـــي أن يكـــون بالموضع حاجةٌ إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به. أجَلْ، دع عـــنكَ هذا وذاك؛ فإنّ الحكمَ في القرآنِ بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنّما هو ضـــربٌ مـــن الجهلِ -مستورا أو مكشوفا-بدقة الميزان الذي وضعَ عليهِ أسلوبُ القـــرآن. وخـــذ نفسَـــكَ أنـــت بالغوصِ في طلبِ أسرارهِ البيانية على ضوء هذا المصـــباح، فـــإن عُمِّيَ عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف، فإياك أن تعجل كمـــا يعجـــل هـــؤلاء الظـــانون(١)، ولكـــنْ قلْ قولا سديدا هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف؛ قل: اللهُ أعلَمُ بأسرارِ كلامه، ولا علمَ لنا إلا بتعليمه"(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

(١) انظر مثلا: عبد العال مكرم، أسلوب إذ،ص٥٥.

(٢) محمد عبد الله درّاز، النبأ العظيم، ص١٦٢-١٦٣.

المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في حذف الحرف وذكره

لم أجد وصفا للقول في الحذف أوفى ممّا قاله عبد القاهر الجرجاني، لذلك رأيت أن أستهلّ به هذا المبحث، ليكون دليلا في البحث عن أسرار الحذف في كتاب الله عز وجل، وعدم السكوت عمّا في الحذف من جمال بياني، قال الجرجاني في قيمة الحذف ووصفه: " هو بابٌ دقيقُ المَسْلَك، لطيفُ المَأْخَذ، عجيبُ الأمرِ، شبيهٌ بالسحرِ، فإنّكَ ترى به تَرك الذكرِ، أفصحَ من الذكرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطِق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن"([1]). وهذا الكلام لا يعني أنّ الذكر أقلُّ بلاغة من الحذف، فللذكرِ أغراضٌ لا يُغني الحذف عنها، " وقد قالوا: إنّ يحيى بن خالد بن برمك أمَرَ اثنين أنْ يكتُبا كتابا في معنى واحد، فأطال أحدهما واختصر الآخر، فقال للمختصِر وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان"([2]). وكثيرة هي النصوص التي سطّرت كلاما جميلا في الحذف والذكر، ولكنْ هل ينطبِق ذلك على ما سأذكره من أمثلة في هذا المبحث؟ أحسب أنّ ذلك لا ينطبق تماما، فالحذف المراد هنا ليس الحذف المعروف الذي تكلم عنه علماء النحو والبلاغة، وإنّما أعني به: الزيادة والنقصان أو الحذف والذكر في الحروف، ولكنْ ليس بالمعنى الاصطلاحي المعروف.

([1]) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

([2]) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب،ص١٣٥.

أولا: دعوى حذف (من) وذكرها، وما في ذلك من تشابه

تتبعت لفظة(بعد) في كتاب الله عز وجل، فوجدتها تكررت تسعا وأربعين ومئة مرة؛ أحيانا تسبقها(من) وأحيانا أخرى تتجرد منها، حسب سياق الحال، والمعنى المراد، وسأشير لمغزى ذلك لاحقا. ورأيت أيضا أنّ لفظة (بعد) تليها لفظة(موتها) دون فاصل بينهما قد تكررت عشر مرّات، واختلف النظم على مناحٍ متعددة؛ فمن هذه العشر:

وردت ﴿**فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ ثلاث مرّات: في سورة البقرة:١٦٤،وفي سورة النحل:٦٥، وفي سورة الجاثية:٥. ومن جهة أخرى تفرّدت آية سورة العنكبوت بنظم يُغاير بقية الآيات؛ فتسْعُ آياتٍ ورد فيها التعبير القرآني﴿ **بعد موتها**﴾، وآية سورة العنكبوت وحدها﴿**فأحيا به الأرض من بعد موتها**﴾. فلماذا ذُكرت(من) قبل (بعد) في سورة العنكبوت، وحُذفت من بقية الآيات؟

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وللإجابة عن هذا السؤال نتدبّر الآيات التي ورد فيها كلا التعبيرين؛ ﴿بعد موتها﴾ و﴿من بعد موتها﴾، قال تعالى:

١- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾البقرة:١٦٤

٢- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ **بَعْدَ مَوْتِهَا** فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ

آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾البقرة:٢٥٩

٣- ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾النحل:٦٥

٤- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ **مِن بَعْدِ مَوْتِهَا** لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾العنكبوت:٦٣

٥- ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾الروم:١٩

جميع الحقوق محفوظة

٦- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾الروم:٢٤

٧- ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾الروم:٥٠

٨- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾فاطر:٩

٩- ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾الجاثية:٥

١٠-﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ **بَعْدَ مَوْتِهَا** قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾الحديد:١٧

تنبه المفسرون لجمال صورة التشبيه والاستعارة في إحياء الأرض بعد موتها، فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها، كذلك القلب يحيا بعد أن كان ميتا بالجهل([1]). تنبهوا لذلك، ولكنّ أكثرهم أغفل البحث عن سر التغاير في آية سورة العنكبوت، فلم يكن لها نصيب وافرٌ من تفسيرهم.([2]) إلا ما كان من: البقاعي وابن عاشور؛ فالبقاعي يرى أن حذف (من) في الحديث عن قدرة الله أبلغُ من ذكرها، وأمّا سبب ذكرها في سورة العنكبوت فللإشارة إلى قرب الإنبات من زمان الممات، وإلى أمر آخر يكمن في أنّ أكثر الأرض تحيا بماء المطر دون غيره من المياه([3]).

وأمّا ابن عاشور فرأى أنّ ذكْرَ(من) في سورة العنكبوت يعود لكوْن السياق يقتضي التقرير والتأكيد، وللإشارة أيضا إلى اختصاص الإحياء بالله وحده دون غيره؛ وذلك في معنى قوله تعالى: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾الروم: ٤٠([4]).

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أمّا أصحاب كتب المتشابه اللفظي فلهم في ذلك رأي أيضا: فالإسكافي يرى أنّ (من) في آية العنكبوت تفيد التحقيق والتقرير، وليس كذلك بقية الآيات، وإن كان فيها لون منه، يقول: " والظروف إذا حدت حققت، تقول: سرت اليوم، فإن قلت: من أوله إلى آخره كان الحد تحقيقا؛ لأنه قد يُطلق لفظ اليوم وإن ذهبت ساعة أو ساعتان من أوله، وإن بقيت ساعة أو ساعتان من آخره، فإذا وقع الحد زال هذا الوهم..."([5]).

([1]) انظر مثلا: أبا حيان، البحر المحيط،ج٦،٥٥٣.

([2]) فلم يذكر الزمخشري، والرازي، وابن عطية، وأبو حيان، وأبو السعود، والشهاب الخفاجي، والألوسي في متشابه هذه الآية.

([3]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١١، ص١٩١، و ج١٤، ص٤٧٣.

([4]) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢١،ص٢٩ و ج١٤،ص١٩٧-١٩٨.

([5]) الإسكافي، درة التنزيل، ص٢٤٧.

ويرى الكرماني أنّ هذا الاختلاف يعود إلى مراعاة اللفظ، موافقة لما قبل﴿مـــن قبله﴾العنكبوت:٤٨، ومراعاة للسياق القائم على السؤال والتقرير، إذ التقرير يحتاج إلى التحقيق فوق غيره، فقيد الظرف بمن(١).

وعـــند ابن جماعة أنّ إحياء الأرض تارة يكون عُقيب شروع موتها، وتارة بعـــد تراخي موتها مدة، وآية العنكبوت تشير إلى الحالة الأولى، لأن (من)لابتداء الغايـــة، فناســـب ذلـــك مـــا تقدم من عموم رزق الله تعالى خلقه. وأما آية البقرة والجاثية مثلا فهما في سياق تعداد قدرة الله تعالى، فناسب ذلك ذكر إحياء الأرض بعد طول زمان موتها(٢).

وأمّا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، فنظر في الأمر نظرة لفظية، فرأى أنّ الحق تبارك وتعالى أثبت لفظة (من) في آية العنكبوت ليتناسب ذلك مع ذكرها من قـــبل فـــي قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عباده...ولئن سألتهم مَن نـــزّل مـــنَ السـماء مـــاءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتها﴾العنكبوت:٦٢-٦٣. ونظـــيرتها آيـــة الحـــج: ﴿يَـــا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْـــنَاكُم مِّـــن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـــةٍ لِّنُبَيِّـــنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْـــلاً ثُـــمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَـــيْلَا يَعْلَـــمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْـــتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾الحج:٥. وقد حُذفت (من) من آية النحل المتشابهة مع آية الحج؛ لعدم ذكرها من قبل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾النحل:٧٠(٣).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

---

(١) الكرماني، البرهان، ص١٤٣.

(٢) انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص٣٠٠-٣٠١.

(٣) انظر الأنصاري، فتح الرحمن ،ص١٦٧وص٢٣٧.

ويُمكنُ أن نمتَح رأي ابن الزبير الغرناطي من توجيهه لنظير آية العنكبوت، وهـو قوله تعالى:﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ **من بَعْدِ** عِلْمٍ شَيْئًا﴾الحج:٥ مقارنة بقوله تعالى: ﴿لِكَـيْ لاَ يَعْلَمَ **بَعْدَ عِلْمٍ** شَيْئًا﴾النحل:٧٠ حيث حذف منها لفظة(من). فهو يرى أن السـبب يعود إلى تناسب النظم القرآني وتشاكله، حيث تكررت لفظة (من) في آيـة الحـج ست مرات، خمس منها قبل﴿من بعد علم شيئا﴾ وواحدة بعدها، يقول عقب ذلك: " وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله: ﴿من بعـد﴾ إذ الـنظم مـع سـقوطه ملتـئم، والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاسـتدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم، ولم يكن في آية النحل ما يسـتدعيها، إذ لـم يـرد ما يقتضيها، فورد كل على ما يجب ويُناسب، ولا يُمكن العكـس. والأولـى في قوله: ﴿من البعث﴾لابتداء الغاية، وما بعدها للتبعيض إلا التـي فـي قوله: ﴿من بعد علم﴾ فإنها زائدة رعيا للفظ لا النافية، وإن كانت هنا مزيدة"([1]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تخـتلف آيـة سـورة العنكـبوت عـن بقية الآيات الآنفة الذكر في وجود حـرف(مـن) قبل لفظة (بعد)، ولولا وجود (من) لتطابقت مع الآيات الثلاث من سـورة البقرة، وسورة النحل، وسورة الجاثية، فلماذا حُذفت لفظة (من) من الآيات التسـع، أو الـثلاث التـي تشـابهت معها، وذكرت لفظة(من) فقط في آية سورة العنكبوت؟

الـذي يبدو لي –والله أعلم– أنّ وجود حرف(من) قبل لفظة (بعد) في كتاب الله عـز وجـل يفيد التحقيق والتأكيد كما قال بذلك الإسكافي من قبلُ. ومن التأكيد والتحقيق، حيث تأخذ كل آية ما يلزم معناها، فمثلا قوله تعالى: ﴿...وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين(٢٦)الذين ينقضون عهد الله **من بعد** ميثاقه ويقطعون ما أمَرَ اللهُ به أن يوصَـلَ ويُفسـدونَ في الأرضِ أولئكَ همُ الخاسِرونَ﴾البقرة:٢٦-٢٧، فقد أفادت (مـن) المـبالغة فـي ذم الفاسـقين، وركّزت على عنصر الوقت، فبيّنت أنّهم لا

([1]) الغرناطي، ملاك التأويل،ج٢،ص٧٤٩

يصـــبرون على عهد الله وميثاقه، بل ينقضونه عقب إبرامه، وفي ذلك تبيان لخبايا نفوســـهم وكشـــف لها، وتوجيه للمسلمين في كيفية التعامل معهم. ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسولِ **من بعدِ** ما أصابهمُ القرحُ للذين أحسنوا منهم واتّقَـوْا أجرٌ عظيمٌ﴾آل عمران:١٧٢. سنجد أنّ (من) في الآية أفادت غاية المدح، وذلـــك بتأكيدها على عنصر الوقت، فلو حذفناها من السياق، لذهب جزء كبير من المدح الذي ناله صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ؛ فالآية فيمن استجاب لله ورسوله وهو مثخن بالجراح، وربّما يكون محمولا على الأعناق، أو يتكئ على صـــاحبه، وذلـــك عقـــب مـــا لحق بالمسلمين يوم أحد، فقد مدحهم الله في سرعة اســـتجابتهم، وخـــروجهم إلى حمراء الأسد، على ما هم فيه من جراح. ولو حذفت (مـــن) لدلـــت علـــى استجابتهم فقط، فيصح أن يخرجوا لحمراء الأسد بعد يوم أو أسبوع أو سنة أو غير ذلك، ولكنّه –كما نلاحظ– يُفَوِّتُ المعنى المراد الذي تعضده الرواية التاريخية، وهو سرعة استجابتهم. وقِس على ذلك بقية الآيات في كتاب الله عز وجل، فحيثما وردت (من) قبل (بعد) تجد التأكيد والتحقيق.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبـــالعودة إلـــى الآيات التسع التي حُذِفَ منها حرف (من) نجد أنّها تتحدّث عـــن قـــدرة الله وآياته في الكون، وإظهار القدرة يُناسبه طول مدّة الإماتة، وليس قصـــرها، فـــالله قـــادر على إحياء الأرض ولو طال أمد خرابها، وموتها. ويُمكِنُ للقارئ تَصوّر ذلك، فلو فرضنا أنّ أرضا ما كانت تُزرَع، ثم تُركت سنين لم تُفلَح، ولم تُستَصلح، حتى كثر خرابها، بما حصل فيها من شدة، وكثرةِ حجارة، وأشواكٍ وغير ذلك من ألوان الخراب. وفي مقابل ذلك، كانت هناك أرض تزرع كل عام، فتركـــت ســـنة واحـــدة فقط، أو زُرعت فأحصد زرعها، فأراد أهلها استصلاحها لـــزراعة غـــير الأولـــى. فـــأيّ الأرضَيْنِ تحتاج إلى جهد وقدرة في الاستصلاح والإحـــياء أكـــبر؟ لا شـــكّ أنّ القدرة ماثلة في الأرض التي طال أمد خرابها، أما الأرض حديـــثة الـــزراعة فتحتاج إلى جهد وقدرة، ولكنّه جهد بسيط إذا ما قورن بالجهد الذي تحتاجه الأرض التي طال زمن موتها. فالله سبحانه وتعالى يُدَلّل على قدرته، ويضرب مثالا: آية إحياء الأرض بعد طول إماتتها.

أمّـا آيـة العنكـبوت فقـد وردت في سياق الحجاج والمُخاصمة، وسورة العنكبوت من بدايتها تؤكّد هذا الموضوع، فهي أمام فريقين، مؤمنٍ مُصدّقٍ و كافرٍ مُكَـذّبٍ، وقـد جُمعـت الآيـات في هذه السورة للدلالة على قدرة الله، وإخلاص العـبودية له، وعـدم الشرك به، إلى أن قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وتلك الأمثالُ نضـربُها للناسِ وما يعقِلُها إلا العالمونَ﴾العنكبوت:٤٣، ثمّ توجّه الحديث بعد ذلك إلـى المجتمع الإسلامي، وإلى الكشف عن موقف الجاحدين لآيات الله عز وجل. والجـاحد تلـزمه المُحـاورة والمُجادلة، وكما علّمنا الحق سبحانه وتعالى: ﴿ولا تُجـادلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هيَ أحسَنُ إلا الذين ظلموا منهم﴾العنكبوت:٤٦، ثمّ أخـذت الآيـات تُقَـدّمُ لنا أنموذجا في جدال الخصم، ومحاورته؛ فعرضت حجة الفريقين، بألوان مختلفة، وهي في كل ذلك تُقيمُ الحُجّة على الكافرين. ومن أسلوب المُحـاورة الذي عرضته السورة الكريمة، صيغة الاستعطاف واللطف المتمثلة في قولـه تعـالى: ﴿ولئـن سـألتهم﴾، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم مَن خلقَ السموات والأرضَ وسـخّرَ الشـمسَ والقمرَ ليقولنّ الله فأنى يُؤفكون﴾العنكبوت:٦١، وقال تعـالى: ﴿ولَئِـن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ **من بَعْدِ مَوْتِهَا** لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾العنكبوت:٦٣.

لقـد تـدرّج الحديـث من الآيات العامة إلى الخاصة، فبدأ بخلق السموات والأرض، وتسـخير الشمس والقمر، ثُمّ الحديث عن إنزال الماء، وما يتسبب عنه مـن إحياء الأرض من بعد موتها. وبما أنّ المقام يقتضي إقامة الحجة والبرهان، الموجبيـنِ للشكر والعرفان فقد ذُكِرت (من) لتدل بذلك على سرعة الإحياء، وأنّ هذا الفعل مُختَصّ به الله وليس غيره. ومثاله أن تَذكُر فضلا لك على آخر، فتقول: ألـم أُعـالجك مـن بعد مصيبة المرض الذي ألمّ بك، فأنت تُظهر له إحسانك، فلم تـتركه مـدة فـي مصيبته، ثمّ تقوم بعلاجه، وذلك غاية الإحسان. أمّا لو قلت له العبارة نفسها، ولكن استخدمت: (بعد مصيبة المرض) فهو إحسان، ولكنه لا يُمتَدح مثل الأول، فقد يكون بعد معاناته زمنا طويلا، وقرعه للأبواب، فأنت لم تُحدّد في الوقـت كثـيرا، بـل أطلقـت الأمر بعد المصيبة، ومن ثَمّ فالفرق واضح ما بين

التعبيرين. وعليه فالله سبحانه وتعالى يُريد أن يقيم الحجة على الجاحد حتى يتحول إلـــى شـــاكر، وهـــذا ينبغي أن تغمره بالإحسان، وحرف (من) هو الذي وجَّه هذه الدلالة على هذا النحو.

ويُفهمُ ممّا تقدّم أنّ آية سورة العنكبوت ركّزت على إظهار القدرة، وعلى معنى آخر، هو إقامة الحجة والبرهان. وبهذا يتّضح ما في الآية من إشكال، ويُتْرَكُ رأيُ من قال: إنّ وجود (من) وحذفها من الآية سيّان.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانيا: دعوى حذف (الواو) وذكرها، وما في ذلك من تشابه

ومـــن دقيق ما اشتبه نظمه، ودقّ أمره، وخفي وجه المغايرة فيه، حتى قيل إنـــه مـــن بـــاب الحـــذف والزيادة، قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يُذَبِّحون أبناءكُم** ﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿ **ويُذَبِّحونَ أبناءكُم**﴾. وتَمامُ ذلك أنَّ الحق تبارك وتعالى قال في سورة البقرة: ﴿ وإذْ نَجَّيناكُم مِن آل فِرْعونَ يَسومونَكُم سوءَ العـــذابِ **يُذَبِّحونَ أبناءكُم** ويَستَحيونَ نِساءكُمْ وفي ذلكُم بلاءٌ من رَبِّكُم عظيمٌ(٤٩) وإذْ فَرَقْـــنا بِكُمُ البحرَ فَأنْجَيناكُمْ وأغْرَقْنا آلَ فِرْعونَ وأَنْتُم تَنْظُرونَ(٥٠)﴾ البقرة: ٤٩-٥٠، وقـــال في سورة إبراهيم: ﴿ ولقَدْ أرْسَلنا موسى بِآياتنا أنْ أَخْرِجْ قومَكَ مِـــنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ الله إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ(٥)وإذْ قالَ موسى لِقَوْمِهِ اذْكُروا نِعْمَةَ الله عليكُم إذْ أنجاكُمْ من آلِ فِرْعونَ يَسومونَكُمْ ســـوءَ العَـــذابِ **وَيُذَبِّحـــونَ أبناءكُم** ويَستحيونَ نساءكُم وفي ذلكُم بلاءٌ من ربكُمْ عظـــيمٌ(٦)وإذْ تَأذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكرتُمْ لأَزيدنكُمْ ولئن كفرتُمْ إنَّ عذابي لَشَديدٌ(٧) ﴾ إبراهيم:٥-٧.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تنـــبه المفسرون وأصحاب كتب المتشابه اللفظي إلى هاتين الآيتين، ولكنّهم جمـــيعا اعـــتمدوا كلام الفراء في معاني القرآن، فمنهم بعد ذلك من شرح ومثّل، ومنهم مَن اكتفى بالإجمال دون التفصيل.

ومفـــاد كـــلام الفراء أنّ ذِكرَ الواو في آية سورة إبراهيم فيه دلالة على أنّ قولـــه تعـــالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ هو لونٌ من العذاب، وقوله تعالى: ﴿ وَيُذَبِّحـــونَ أبناءَكُم﴾ لون آخر من العذاب مختلف عن سابقه. وأمّا حذف الواو من آيـــة ســـورة البقرة فهو للدلالة على أنّ ﴿ يُذَبِّحونَ أبناءكُم﴾وما بعدها ما هو إلا تفسير لصفات العذاب. ثمّ قال الفرّاء مؤسِّساً ومُقَعِّدا: " وإذا كان الخَبَر من العذاب أو الـــثواب مجملا في كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو "([1]).

([1]) الفراء، معاني القرآن، ج٢،ص٦٨-٦٩.

إنَّ المُدَقِّــقَ في سياق آيتي البقرة وإبراهيم يرى ما بينهما من اختلاف؛ أمّا آيــة ســورة البقرة فهي حديث من الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل، ومن بعدهم للــناس عامّــة أنَّ الأمر كلّه بيد الله، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ واتّقوا يوماً لا تجــزي نفــسٌ عــن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ولا يُؤخَذُ منها عدلٌ ولا هم يُنصَرون﴾البقرة:٤٨، وما بعد هذه الآية يشهد بذلك، فقد افتتح الحق تبارك وتعالى كلّ دليل من الأدلّة التي ساقها للشهادة على قدرته بآية عظيمة من آياته التي أكرم بهــا موســى علــيه السلام ومن معه: وإذ نجّيناكم من آل فرعون، وإذ فَرَقنا بكُم الــبحرَ، وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة...إلخ. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يُذَكِّرُ بنــي إسرائيل بنِعَمِه التي أكرمهم بها، قال تعالى:﴿ يا بني إسرائيلَ اذكُروا نِعمَتِيَ التي أنعمتُ عليكُم وأنّي فضّلتُكُم على العالمين ﴾البقرة:٤٧.

ولــيس كذلك آية سورة إبراهيم؛ إذ الحديث فيها لموسى عليه السلام، فهو الــذي يُذَكِّــر قومــه بنعم الله عليهم، وفضلاً عن ذلك فإنّ فيها ذكرا للصبر على البلاء، والشكر على النعم. والمراد من ذلك كلّه: أنّ الحقّ -تبارك وتعالى- اختار أعظــم الــنعم فــي ســورة البقرة، فأوردها أدلة تشهد بعظم ما امتنّ به على بني إســرائيل، وقد استهلّ رأس كلّ آية بنعمة عظيمة، وكذلك الشرح كان؛ فلم يُرد الله أنْ يُعَــدِّدَ لبنــي إســرائيل كــلّ النعم صغيرها وكبيرها، فهذا لا يكون من المُنعِمِ العظيم، ولذلك اختار في شرح الدليل أعظم نِعمةٍ؛ وهي إنجاؤهم من الذبح، وعليه فقولــه تعــالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ذو دلالات مجملة واسعة، اختار منها الحق تبارك وتعالى ﴿ يُذَبِّحونَ أبناءكُم﴾ لأنّ الذبح أعظم ما في السوم. وذلك أنّ الله ســبحانه وتعــالى يُريد أن يُقيمَ الحُجّة على بني إسرائيل من بعد، وما اختيار عظيم النِّعَمِ إلا للدلالة على عظيم الذنب، ومن ثَمّ هولِ العذاب الذي يستحقّونه، أو الذي سينزِلُ بهم.

ذلك شأن آية البقرة، أمّا آية سورة إبراهيم فإنّها تقتضي التفصيل في تعداد الــنعم، فموســى علــيه السلام مأمورٌ من الله عز وجل بتذكير قومه بأيّام الله ﴿ وذكِّــرهم بأيّام الله﴾ والأمر من الله مطلَقٌ لم يُقيد، ولِيُنظرَ أيضا بعد ذلك في أمرِ

الصبر والشكر، إذ هو مقصدُ التذكير، وليس إقامة الحجة والبرهان كما هو الحال في آيات سورة البقرة. والدليل على أنّ المقصد في آية سورة إبراهيم هو الصبر والشكر عليه، قوله تعالى مقسما عقبَ ذلك: ﴿ وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عذابي لَشَدِيدٌ ﴾إبراهيم:٧، فشتان ما بين المقصدين، ولذلك كانت الواو. فقوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ في سورة إبراهيم لون كبير من العذاب، ﴿ وَيُذَبِّحونَ أَبناءَكُم﴾ لون كبير آخر. إذ الذبح في سورة البقرة جزء من جنس السوم، وفي سورة إبراهيم غير السوم، فقد ترك موسى عليه السلام سوم العذاب يُفَسَّر بغير الذبح، لِيُعلَم أنّ في السوم تكاليف من العذاب شاقة أخرى، تذهب النفس معها كلّ مذهب؛ وليؤخذ كلّ واحد من بني إسرائيل بما يستطيعه من الصبر. وقد أفرد الذبح وحده على أنه يستحق أن يكون لونا منفردا من العذاب غير السوم.

جميع الحقوق محفوظة

وذكر الشعراوي في تفسيره أنّ بعض المستشرقين وقف عند آيتي البقرة وإبراهيم مشكّكا في بلاغة القرآن الكريم، ورد عليه الشعراوي من كلام الأوائل، ثمّ ساق مثلا يوضّح ما نحن بصدد الحديث عنه فقال: " وأسوق هذا المثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه، فسبحانه منزّه عن التشبيه، وأقول: هب أنّ إنسانا غنياً له أخ رقيق الحال، وقد يُمدُّ الغنيُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة، وقد يعتني بأولاده، ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة. ويأتي ابن الفقير ليقول لابن الغني: لماذا لا تسألون عنّا ؟ فيقول ابن الغني: ألَم يأتِ أبي لك بهذا القلم وتلك البذلة، بالإضافة إلى الشقة التي تسكنون فيها ؟ ولكنّ العم الغني يكتفي بأن يقول: أنا أسأل عنكم، بدليل أنّي أحضرتُ لكم الشقة التي تسكنون فيها. إذن فالكبير حقّا هو الذي يذكر الأمور الكبيرة، أما الأقل فهو مَنْ يُعَدِّد الأشياء"([1]).

وخلاصة الفرق بين الآيتين أنّ عدم ذكر الواو في آية سورة البقرة يعود إلى أنّ ما في البقرة من كلام الله، وقوله تعالى: ﴿ يُذَبِّحونَ أَبناءَكُم﴾ تُحمل على

([1]) الشعراوي، تفسير الشعراوي،مج١٢،ص٧٤٤٤-٧٤٤٥، ويُنظر كلام المستشرقين من الصفحة نفسها.

الـــبدل والتفسير، أو على الاستئناف من قوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾. والـــذي في إبراهيم من كلام موسى عليه السلام، وهو مأمور بتذكيرهم بأيام الله، ولذلك فالحديث كان عن نعمتي السوم والذبح، وليس عن نعمة عامة ثمّ خُصِّصت. وعلـــيه فمـــدار الحديث إذن على كلام الفراء، وعلى جهة المصدر الذي وقع منه الخطاب، وما ترتّب عليه([1]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1]) انظـــر: الفـــراء، معاني القرآن، ج٢،ص٦٨-٦٩، والكرماني، البرهان، ص١٩-٢٠، و الإسكافي، درة التـــنزيل ،ص٩-١٠، والغرناطـــي، ملاك التأويل، ج١٩٧،١-٢٠٢و ابن جماعة، كشف المعاني، ص١٠١-١٠٢، و الأنصاري، فتح الرحمن،ص٢٤. ومن كتب التفسير انظر: الزمخشري، الكشاف،ج١،ص١٤٠-١٤١ و ج٢،ص٥١٩-٥٢٠، و الـــرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥٠٦ و مج٧، ص٦٦، و ابن عطية، المحرر الوجـــيز، ج٨،ص٢٠٤، وأبـــا حـــيان، البحر المحيط،ج١،ص٣١٣ و ج٦،ص٤١٠-٤١١، و البقاعي، نظم الدرر،ج١، ص٣٥٦ و ج١٠،ص٣٨٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١، ص٤٩٣ و ج١٣،ص١٩٢.

ثالثا: دعوى حذف (الفاء) وذكرها، وما في ذلك من تشابه

قـــال تعالى:﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾الأنعام:١٣٥

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**(٣٩)مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾الزمر:٣٩-٤٠

وقـــال فـــي سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾هود:٩٣

تشـــابه الـــنظم في آيتي الأنعام والزمر، وآية سورة هود عليه السلام؛ ففي الســـورتين دخلت الفاء على حرف التسويف، وتفردت آية سورة هود بتجردها من هذا الحرف، فما سر ذلك؟

مركز ايداع الرسائل الجامعية

إنَّ للفـــاء دقـــائق وأســـرارا لا يُمكِنُ الإحاطة بها في هذا المبحث، بلْهَ هذا المثال؛ فقد ذهب النحاة والمفسرون يستجلون أسرارها في العربية عامة، وفي لغة القـــرآن خاصـــة، فكان لها حضورها التام. وأمّا على مستوى المتشابه اللفظي فقد حظيت أيضا بدور رئيس لا يقل أهمية عن حضورها في التراث عامة. وسأحاول فـــي هـــذا المبحـــث الوقوف على سر ذكرها في آيتي الأنعام والزمر، وتجرد آية سورة هود منها.

تنبه كثير من المفسرين، وأصحاب كتب المتشابه اللفظي إلى هذا اللون من التشـــابه، إلّـــا أنّهـــم لم يخرجوا عمّا قاله الإسكافي والزمخشري، وإن كان لرأي الزمخشري الحضور الأوفى؛ للعناية التي حظي بها تفسيره.

وخلاصة رأي الإسكافي أنّ العمل سبب الجزاء، ومن ثمّ تعلّقت الفاء بقوله تعالى: ﴿اعملوا﴾ أو التقدير ﴿اعملوا﴾، ﴿فسوف تعلمون﴾، والأمر في آيتي الأنعام والزمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد والتهديد. وأمّا في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب عليه السلام، لمّا تجاهل قومه عليه فقالوا:﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾هود:٩١، فقال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾هود:٩٣، فجعل ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مكان الوصف لقوله: عامل([1]).

وأمّا الزمخشري فقال: " فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في ﴿ سوف تعلمون﴾ ؟ قلت: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنّهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هي عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه "([2]) .

وقد دار كثير من المفسرين وأصحاب كتب المتشابه اللفظي في فلك ما قاله الإسكافي والزمخشري، وحاولوا أن يقولوا شيئا، ولكنهم في حقيقة الأمر ظلّوا أسرى لكلام الزمخشري خاصة. ولكي نكون على بيّنة من الأمر في هذه المسألة، أشير إلى عموم ما قيل فيها.

فالكرماني في برهانه يرى أنّ سبب وجود الفاء في آيتي الأنعام والزمر هو تقدّم لفظة ﴿قل﴾، وفي هود حيث لا توجد هذه اللفظة صار الحديث استئنافا، وقيل إن آية هود صفة لعامل([3]).

([1]) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ص٩٦-٩٧.

([2]) الزمخشري، الكشاف،ج٢،ص٤٠٨.

([3]) انظر الكرماني، البرهان، ص٥٤-٥٥.

ويرى الغرناطي في ملاك التأويل أن آيتي الأنعام والزمر كانتا في كفار العرب وهذه الأمة، ولذلك قوي معنى الشرط، إضافة إلى افتتاحها بلفظة﴿قل﴾. وفي هود إخبار لنبينا عن الأمم السالفة وليس أمرا له([1]).

ولم يخرج ابن جماعة عمّا تقدم؛ فلفظة ﴿قل﴾ ناسبها التوكيد بفاء السببية، وآية هود من قول شعيب عليه السلام فلم يؤكّد([2]).

ولم يذكر الطبري والرازي والقرطبي وأبوحيان شيئا في (فاء)سورة الأنعام، وتنبه لها البقاعي مستفيدا من كلام الزمخشري، قال: " ولمّا كان وقوع المتوعد به سببا للعلم بالعاقبة، وكان السياق لعدم تذكرهم وغرورهم، وقلة فطنتهم حسن إثبات الفاء ...دون إسقاطها؛ لأن الاستئناف يتعطف للسؤال"([3]).

ولم يعرض كثير من المفسرين من مثل: الطبري والقرطبي وأبي حيان والبقاعي وغيرهم للفاء في آية الزمر لكونها تشبه آية الأنعام.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي آية هود لم يذكر الطبري والقرطبي شيئا في حذف الفاء أيضا، ونقل الرازي كلام الزمخشري، واستنادا إلى ما قيل في بلاغة الاستئناف، فقد رأى أنّ حذف الفاء في هود أكمل في باب الفظاعة والتهويل منه في آيتي الأنعام والزمر([4]).

وأورد أبو حيان في بحره كلام الزمخشري بنصه([5]). وقال البقاعي: " ولما كانت ملازمتهم لأعمالهم سببا لوقوع العذاب المتوعد به، ووقوعه سببا للعلم بمن يخزى لمن يعلم أيّ هذين الأمرين يُراد، ذكره بعد هذا التهديد، فحسن حذف

([1]) انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١،ص٤٧٦-٤٧٧.

([2]) انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص١٧٣.

([3]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج٧، ص٢٧٧-٢٧٨.

([4]) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٦، ص٣٩٢.

([5]) انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٦،ص٢٠٣.

الفاء من قوله: ﴿سوف تعلمون﴾ أي بوعد لا خلف فيه، وإن تأخر زمانه..."، ثمّ تمّم عبارته بكلام الزمخشري([1]).

وعند الشهاب الخفاجي أنّ حذف الفاء في سورة هود يعود إلى أنّ السؤال المُقدّر يدلُّ على ما دلّت عليه الفاء، مع الاختصار لفظا، وتكثير المعنى مع قلة اللفظ. وامتدح أسلوب الاستئناف، ثمّ قال: "وأمّا اختيار إحدى الطريقين ثمة، والأخرى هنا – وإن كان مثله لا يسأل عنه، لأنه دوريّ – فلأنّ أوّل الذكرين يقتضي التصريح، فيناسب في الثاني خلافه، وكونه أبلغ في التهويل للإشعار بأنه يسأل عنه ويعتنى به"([2]).

وبعد أن نقل الألوسي كلام الشهاب قال: " وكأنّ الداعي إلى الإتيان بالأبلغ هنا دون ما تقدّم أنّ القوم –قاتلهم الله– بالغوا في الإساءة به عليه السلام، وبلغوا الغاية في ذلك فناسب أن يبالغ لهم في التهديد، ويبلغ فيه الغاية، وإن كانوا في عدم الانتفاع كالأنعام"([3]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويفسر ابن عاشور هذا التشابه بناء على القول بالاستئناف، فيرى أنّ التعبير في سورة هود أبلغ في الدلالة على التقريع، ذلك أنّ في خطاب شعيب عليه السلام قوّة ليست في الخطاب المأمور به النبي صلى الله عليه وسلم في آيتي الأنعام والزمر. وكذلك التفاوت بين معمولي ﴿تعلمون﴾ فهو هنا غليظ شديد﴿مَنْ يأتيه عذابٌ يُخزيه ومَن هو كاذب﴾ وهو هنالك لين﴿مَن تكونُ له عاقبة الدار﴾ ([4]).

([1]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج٩، ص٣٦٥-٣٦٦.

([2]) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي،ج٥،ص٢٢٣.

([3]) الألوسي، روح المعاني،ج١٢،ص٤٤٦.

([4]) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٢،ص١٥٣-١٥٣.

وأورد محمد الأمين الخضري –من المحدثين– كلام بعض المفسرين، ثم قال معتمدا على كلام الجونفوري في "الفرائد" من أنّ الفاء تقع وسطا بين الاستئناف بإن، والاستئناف بغيرها؛ لأن في الفاء شائبة تأكيد قال: " وبمقتضى ذلك فإنّ الوصل بالفاء أقوى في مقام التهديد، لما فيه من شائبة التأكيد ...يعضد ذلك أنّ القول في هود منسوب إلى شعيب، والقول في الموضعين الآخرين أمر من الله تعالى لنبيه، والأمر من الله يكتسب من جلاله وكبريائه ما يجعل التهديد به أشد وأفظع، ثمّ إنّ ما في الفاء من معنى التعقيب–وهو المعنى الذي امتازت به عن شقيقتها ثم– وما يومئ إليه من قرب العذاب يتصعد بالتهديد ويتسامى به"([1]).

ونحن نعلم أنّ كل حرف في كتاب الله عز وجل له فائدة خاصة، وأنّ كلامه سبحانه وتعالى ذو نمط تعبيري لا حذف فيه ولا زيادة بالمعنى السلبي، وإنّما نظمه يجري حسب ما يقتضيه المقام، ونعلم أيضا أنّ الفاء تفيد الإسراع والمبادرة، ومن معانيها السببية، وممّا يجدر الإشارة إليه أنّ مقام آيتي الأنعام والزمر غير مقام آية سورة هود عليه السلام؛ فمن جهة الخطاب في سورة الأنعام أمْرٌ من الله عز وجل لنبيه محمد –صلى الله عليه وسلم– بأن يُعلن لقومه مُتَهَدّدا ومُتَوَعّدا، لأنّهم قد تمادَوْا في ظُلمهم ظانّين أنّهم بقُوّتهم سيقفون أمام وعد الله عز وجل، ولذلك جاء الأمر من الله لنبيه أن يُذكرهم على جهة التهديد والوعيد بأنّه قد قبل هذا التحدّي، فلْتعملوا ما أنتم عاملون، على ما أوتيتم من بطش وقوّة، وأمّا أنا فسأبقى أقوم بما أمرني الله به من تبليغ هذه الرسالة والصبر على أوامره، وما ألاقيه منكم، فمن أراد أن يتبعني فله ذلك، ومن أصرّ على التحدّي، وعدم التزحزح عنه، فإنّه لا شك مغلوب، ولن يطول أمد ظُلمه. ففي الفاء رائحة غضب، وتهديد بسرعة العقاب لكل من وقف أمام دعوة الحق، وظنّ أنه معجز بقدرته. فقَبْل هذه

([1]) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم(الفاء وثم)، مكتبة وهبة، القاهرة، ص١٢٠. وبالمناسبة فإن خير ما قيل في تفسير التعقيب والتراخي هو ما جاء عند الجونفوري في كتابه(الفرائد في شرح الفوائد)،ص٢٤، وهو الذي نقله الأمين الخضري في كتابه: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص٥١.

الآية﴿إنّ ما توعدونَ لآتٍ﴾الأنعام:١٣٤، وقبلها أيضا: ﴿إنْ يشأ يُذْهبكُم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾الأنعام:١٣٣. وفيها أيضا بشارة للمسلمين بسرعة القضاء على أعدائهم، وما يترتّب على ذلك من الاستخلاف، والتمكين. وقد تحقّق ذلك يوم الفرقان، وتحطّمت كلُّ ظنون المشركين في قليب بدر.

والحديث في آية الزمر قريب في موضوعه من آية الأنعام؛ قوم يكذبون على الله، ويظلمون حتى يخافهم الناس، ثمّ يُطمئن الله أولياءه بقوله تعالى: ﴿أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَه ويُخوّفونكَ بالذينَ من دونه﴾الزمر:٣٦، إلى أن يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أليس اللهُ بعَزيزٍ ذي انتقام﴾الزمر:٣٧. ثُمَّ ينفي الحق تبارك وتعالى أن يكون لهؤلاء قدرة ما على التحكم بالنفع والضرّ، وبعد كلّ التقارير، والأدلة﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**(٣٩)مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾الزمر:٣٩-٤٠. إنّ المقام يحتاج إلى طمأنة الدعاة بأنّهم هم المنصورون، وأنّ العاقبة لهم، وأنّ الظالمين لهم عذاب يُخزيهم، ولذلك جاء الأمر بأن يُعلنَ لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – على وجه من التهديد والوعيد أنّهم إن استمروا على ما هم فيه فسوف يعلمون. مع الإشارة إلى أنّ سوف للتسويف، وهي للمستقبل البعيد، ولكنّ اقتران الفاء دلّ على قوّة العذاب، وسرعة لحوقه بهم، على أنّ تأخّره لا ينفي وقوعه، وإنّما يؤكّد قوّته وسرعة أخْذه لهم. هذا فضلا عن أنّ فعل الأمر ذو قوّة صدامية في التلقّي، خاصّة إذا قطع الأمر سياقا إخباريا كالذي نحن بصدده.

ويأتي قوله تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾هود:٩٣ حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام، فقد أمرَ شعيبٌ قومه بأوامر كثيرة، ولكنّهم لم ينصاعوا له، وجادلوه مستهترين ومستهزئين، وهو في كل مرة يعظهم وينصحهم، إلى أن بدأت لهجة الحوار تأخذ منحى التهديد والوعيد، فقال تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾هود:٨٩، وينصحهم بالاستغفار

والتوبة، فيبادره القوم بالتصعيد في الرد﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾هود:٩١، فيرد على كلامهم، ثم يقودهم إلى النهاية﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾هود:٩٣، ثمّ يختم للظالمين منهم بالصيحة، ويُنجّي الله شعيبا والذين آمنوا معه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩٤)كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾هود:٩٤-٩٥.

ويبدو أنّ تهديد شعيب عليه السلام لقومه كان دون تهديد النبي محمد صلى الله عليه وسلم لقومه؛ فقد أوصدت الأبواب في مكة، ولم يعد فيها مجال لقبول الدعوة، وهم ابتداء لم يقبلوا المحاجة، فكابروا إلى أن قادهم كبرهم إلى أذى المسلمين، وعدم السماع منهم، ولذلك افتتحت الآية بفعل الأمر﴿قل﴾ وهو تدخّل خارجي من الله سبحانه وتعالى يفيد الحسم بين الفريقين اللذين لم يعد أحد منهما يسمع للآخر، وياء النداء بعد فعل الأمر تشير هي الأخرى إلى ما بين الفريقين من بُعد. ومن ثَمّ فقد جاءت الفاء تعضد هذا المعنى؛ بدلالتها على التأكيد، وسرعة المبادرة في القضاء على المشركين، والتمكين للمسلمين.

وجاء التهديد في آية هود على لسان شعيب عليه السلام، ولم تُفتتح الآية بفعل أمر كما هو الحال في آيتي الأنعام والزمر، واكتفى مطلعها بياء النداء، التي أشارت من البداية إلى بُعد واضح بين الفريقين، ولكنّها لم تتضمّن معنى الأذى والبطش بشعيب ومن آمن معه، كما فعلت قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه. فالعلاقة لم تنقطع تماما بين شعيب وقومه على ما بينهما من بُعد، إذ المقام أصلا مقام حوار ومُحاججة، ثُمّ إنّ شعيبا عليه السلام، لم يَتوعّدهم بسرعة العاقبة، بل الصبر والإمهال، قال تعالى في سورة الأعراف-والقرآن يُفسّرُ بعضه بعضا-حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي

أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ الأعراف:٨٧، من أجل ذلك لم يقتض المقام ذكر الفاء، ولو ذكرت لتعارضت مع الإمهال والصبر الذي كان. مع التنويه بأن عدم وجودها لا ينفي التهديد عن السياق، ولا يفيد أنّ شعيبا ذو رحمة بقومه تزيد على رحمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان الحبيب رحيما بقومه، ولكنّ المقام ليس مقام رحمة، وإن كانت الرحمة ترشح من ثنايا الآيات، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُعاجلهم بالعذاب إلا بعد أذاه وأذى المسلمين، ولم يحصل لشعيب عليه السلام ذلك، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾هود:٩١.

وفي سورة الزمر التي كثر فيها ذكر الأسباب ونتائجها، ذُكرت الفاء أيضا، فالقوم قوم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد وصلوا إلى أعلى درجات الكبر، حيث أقرّوا بأنّ الله هو خالق السموات والأرض، ومع ذلك لم يُفردوه بالعبودية، بل عبدوا من دونه الأصنام والأوثان؛ ولأجل ذلك وما تقدّم، كان لا بُد من السرعة في الفصل ما بين الفريقين، فكانت الفاء.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ومنه يُعلَم أنّ الإسكافي والزمخشري، ومن سار على دربهما أوجزوا، ولم يُقدّموا ما يجب في الكشف عن جمال الفاء في آيتي الأنعام والزمر، وحذفها في هود، هذا فضلا عن أنّ بعض تعبيراتهم غير مرضي عنها؛ فقول الزمخشري إنّ ذلك من باب التفنن في البلاغة، وقول الشهاب إنّ ذلك دوري لا يُسأل عنه، أو بأن الفاء وصل ظاهر، ونزعها وصل خفي، وما كان مثله ليس جوابا شافيا. كما أنّ قول الإسكافي من قبل بالتعلق أو بالوصف ليس فيه كشف عن جمال التعبير القرآني. وأمّا قول ابن عاشور بأن التعبير في سورة هود عليه السلام أبلغ منه في سورة الأنعام، فبعيد؛ فقد بانَ أنّ قوة الخطاب في سورة هود هي دون قوته في آيتي الأنعام والزمر، وليس العكس. واستشهاده بمعمولي ﴿تعلمون﴾ باطلا هو الآخر؛ ذلك أنّ آية الزمر يعقبها قوله تعالى:﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾الزمر: ٤٠. وبذلك يبطل التدليل على القوة واللين بما ذكر.

المبحث السادس: المتشابه اللفظي في استعمال أحرف مختلفة في أماكن متشابهة

أولا:(الفاء والواو)

هـــذا نمـــط مـــن التشـــابه، يصلح أن يُسمّى: إبدال حرف مكان حرف، أو استعمال حرفٍ مختلف في موطن متشابه.

ومن أمثلته: التشابه بين حرفي الواو والفاء في قوله تعالى: ﴿**اسكُنْ أَنْتَ وزوجُــكَ الجَنَّةَ وكُلا**﴾ البقرة: ٣٥. وقوله تعالى: ﴿**اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنَّةَ فَكُلا**﴾ الأعراف:١٩.وللوقــوف علــى سر هذا النمط من التشابه نستعرض سياق الآيتين، وما قيل فيهما.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

قـــال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكةِ اسْجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إلّا إبلـــيسَ أبـــى واســـتكبرَ وكانَ من الكافرينَ(٣٤)وقلْنا يا آدمُ **اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجَنَّةَ وكُلا** منها رَغَداً حيثُ شئتُما ولا تقربا هذهِ الشَّجرَةَ فتكونا منَ الظالمينَ(٣٥) فأزَلَّهُمـــا الشـــيطانُ عنها فأَخرَجَهُما ممّا كانا فيهِ وقُلنا اهبطوا بعضُكُمْ لبعضٍ عدُوٌّ ولكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ(٣٦)﴾ البقرة: ٣٤-٣٦

وقـــال سبحانه في سورة الأعراف:﴿ قالَ اخرُجْ منها مَذؤوماً مدحوراً لَمَنْ تَبعَكَ منهم لَأملَأَنَّ جهنَّمَ منكُم أجمعينَ(١٨)ويا آدمُ **اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنَّةَ فَكُلا** مـــن حيـــثُ شـــئتُما ولا تقربا هذهِ الشَّجرَةَ فتكونا من الظالمينَ(١٩)فوسوسَ لهُما الشـــيطانُ ليُبْدِيَ لَهُما ما وُوريَ عَنهُما من سوْآتِهما وقالَ ما نهاكُما ربُّكُما عن هذهِ الشَّجرَةِ إلّا أن تكونا مَلَكينِ أو تكونا من الخالدينَ (٢٠)﴾ الأعراف:١٨-٢٠

عـــرض أصحاب كتب المتشابه اللفظي، والمفسرون لهاتين الآيتين، وكانت

نظـــراتهم تصـــدر عن وعي دقيق لمراد الله عز وجل، فقد تنبهوا لعنصر السياق، وتوافقـــوا مع القاعدة النحوية، ودلالة الألفاظ. ولكنْ يؤخذ عليهم وقوفهم عند قول الإسكافي، وعدم تجاوزه، وإن حاول الغرناطي لذلك سبيلا.

وخلاصـــة قولهـــم في هذه المسألة، واستنادا لما قاله الإسكافي خاصّة، أنّ الإشـــكال واقـــع فـــي آية الأعراف، أمّا آية سورة البقرة فوجه تأويلها قريب؛ إذ القـــاعدة عـــندهم: " أنّ كـــل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكـــان الأول مـــع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو"(١).

ولتوضيح هذه القاعدة نتدبر قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا **ادخلوا** هذه القرية **فكلوا** منها حيث شئتم رغدا ﴾البقرة:٥٨، فعطف كلوا على ادخلوا بالفاء لما كان وجود الأكـــل منها متعلّقا بدخولها، فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلـــى الأكل، والأكل متعلق وجوده بوجوده. يُبيّن ذلك قوله تعالى في مثل هذه الآية مـــن ســـورة الأعراف ﴿وإذ قيل لهم **اسكنوا** هذه القرية **وكلوا** منها حيث شئتم﴾ الأعـــراف: ١٦١، فعطف كلوا على قوله اسكنوا بالواو دون الفاء، لأن اسكنوا من السكنى وهي المُقام مع طول اللبث والاستقرار، والأكل غير متعلق بالسكنى، فلما لـــم يتعلق الثاني(الأكل) بالأول(السكنى) تعلق الجزاء بالشرط، أو الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء. بخلاف آية سورة الأعراف التي كان العطف فيها بالفاء.

يعني لا إشكال في الآيات الثلاث:﴿**اسكُنْ** أنْتَ وزوجُكَ الجَنَّةَ **وكُلا** ﴾البقرة: ٣٥، ﴿وإذ قلـــنا **ادخلوا** هذه القرية **فكلوا** ﴾البقرة:٥٨، ﴿وإذ قيل لهم **اسكنوا** هذه القرية **وكلوا** ﴾الأعراف: ١٦١.

---

(١)الإسكافي، درة التنزيل، ص٧، و الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٤٥٣(والعبارة للإسكافي، ولكن الرازي نقلها وغيرها دون عزْو).

والإشـــكال حاصـــل فـــي قوله تعالى: ﴿**اسكُنْ** أنتَ وزوجُكَ الجنَّةَ **فكُلا**﴾ الأعراف:١٩.فهي غير متناغمة مع القاعدة الآنفة الذكر.

ولمّـــا كان ذلك كذلك، فقد وجب التأويل لآية سورة الأعراف، لكي تتناسب والقـــاعدة النحوية، فقالوا: إنّ اسكن في الآية بمعنى ادخل، والدليل على ذلك قوله عز وجل قبل هذه الآية: ﴿قالَ اخْرُجْ منها مَذْؤوماً مدحوراً لَمَنْ تَبِعَكَ منهم لَأَملَأَنَّ جهـــنَّمَ مـــنكُم أجمعينَ﴾ الأعراف:١٨، قال ذلك لإبليس، وكأنه قال لآدم: ﴿**اسكُنْ** أنتَ وزوجُـــكَ الجـــنَّةَ ﴾الأعـــراف:١٩ بمعنى ادخل؛ ليوافق الدخول الخروج، يعني من باب التضـــمين. كمـــا أنّ (اسكن) يُقال لمن دخل مكانا، فيراد منه الزم المكان الذي دخلته ولا تنـــتقل عنه، ويُقال أيضا لمن لم يدخل اسكن هذا المكان، يعني: ادخله واسكن فيه.

وبناء على ما تقدّم فالخطاب في سورة البقرة إنما ورد بعـــد أن كان آدم في الجـــنة فكـــان المراد منه اللبث والاستقرار، وقد تبين من خلال شرح القاعدة أن الأكـــل لا يـــتعلق بالسكنى فلا جرم أن ورد بلفظ الواو، وفي سورة الأعراف هذا الأمر إنما ورد **قبل** أن دخل الجنة فكان المراد منه دخول الجنة. وقد بينا أن الأكل يتعلق بالدخول فلا جرم أن ورد بلفظ الفاء([1]).

وعـــند الكرمانـــي أنّ (اســـكن) فـــي آية البقرة معناه: الإقامة. والذي في الأعـــراف مـــن (السكنى) التي معناها: اتخاذ الموضع مسكنا، واتخاذ المسكن لا يســـتدعي زمانـــا ممـــتدا، ولا يُمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيـــبه. ومـــن ثمّ لو كانت الفاء مكان الواو في آية البقرة لوجب تأخير الأكل إلى الفـــراغ مـــن الإقامة، لأن الفاء للتعقيب والترتيب، وهذا لا يصح، لأن الإقامة كما قلنا: تفيد اللبث والاستقرار زمنا طويلا([2]).

([1]) انظر الإسكافي، درة التنزيل،ص٧، و الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٤٥٣ و مج٥، ص٢١٧. وعند زكريا الأنصاري في "فتح الرحمن" أنّ (اسكن)التي في البقرة بمعنى الاستقرار، والتي في الأعراف بمعنى: ادخل.انظر الأنصاري، فتح الرحمن،ص٢٢.

([2]) انظر الزركشي، البرهان، ص١٨، و ابن جماعة، كشف المعاني، ص٩٨-٩٩. وأبا السعود، محمد بن

ويـــرى الغرناطي أنّ مقصود آية البقرة الإخبار والإعلام لرسول الله صلى الله علـــيه وسلم بما جرى في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه، ولم يقصد غير الـــتعريف بذلـــك، مـــن غير ترتيب زماني أو تحديد غاية، فناسبه الواو. أمّا آية الأعـــراف فليست موضع شرط وجزاء -كما قيل- فيلزمها الفاء، إنّما القصد منها تعداد نعم الله سبحانه وتعالى على آدم وذريته، وتعداد النعم يتطلّب تعقيبا وترتيبا، وهذا يناسبه العطف بالفاء دون الواو(١).

والبقاعـــي يرى أن سياق آية البقرة هو تعداد النعم كذلك، وسياق الأعراف أُريـــد منه مع التذكير بالنعم، التعريف بزيادة التمكين، وموعظة للمسلمين مفادها: أنّ كـــثرة النعم لا تمنع من الإخراج، تحذيرا للمتمكنين في الأرض المتوسعين في المعايش من عقاب الله سبحانه وتعالى(٢).

جميع الحقوق محفوظة

ويخـــرج البقاعي عن منهجه في الكشف عن أسرار التعبير القرآني عندما يقـــول في تتمة تأويل آية البقرة: "ثم المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى أو بعضه ولم يكن هناك مناقضـــة، فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة، ثم إن الله تعالى يعـــبر لنا في كل سورة تذكر القصة فيها، بما يناسب ذلك المقام من الألفاظ، عما يلـــيق مـــن المعانـــي، ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام "(٣) . وبمثل هذا قال ابن عاشـــور، ولكـــنْ بعد وقوفه مع آية الأعراف، وما فيها من منّة عاجلة تؤذن بتمام الإكـــرام، حيـــث آذن الله آدمَ بأن يتمتع بثمار الجنة، عقب أمره بسكناها. في مقام

محمد، (ت٩٨٢هـــ). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٢،ص٤٨٤ إلا أنه يرى أيضا أنّ الفاء في الأعراف لبيان المراد مما في سورة البقرة من قوله تعالى: (وكلا منها رغدا حيث شئتما)البقرة:٣٥، من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب.وانظر أيضا: رضا، محمد رشيد، (ت ١٣٥٤هـــ). تفسير المنار،ط٢، ١٢م، دار المعرفة، بيروت، مج٨،ص٣٤٦.

(١) انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١،ص١٨٧-١٨٨.

(٢) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١،ص٢٨٣-٢٨٤.

(٣) البقاعي، نظم الدرر،ج١، ص٢٨٤.

حُكـــي فيه الغضب على إبليس وطرده. ورأى أنّ العطف بالواو في البقرة أعم من العطف بالفاء في الأعراف([1]).

واللافـــت للانتـــباه أنّ البقاعـــي فـــي تفسيره لآية الأعراف يُخالف ما قاله الأوائل، فيرى أن العطف بالفاء يدل " على أنّ المأكول كان مع الإسكان، لم يتأخر عـــنه، ولا مـــنافاة بيـــنه وبين التعبير في البقرة؛ لأن مفهوم الفاء نوع داخل تحت مفهوم الواو، ولا منافاة بين النوع والجنس"([2]).

إنّ ســـياق آيـــة البقرة مختلف إلى حد ما عن سياق آية الأعراف؛ فالله عز وجـــل يخـــبر ملائكته بنية اتخاذ خليفة في الأرض، فيدور حوار بين الحق تبارك وتعـــالى وبين ملائكته بهذا الشأن. ويُفصل القول باتخاذ آدم عليه السلام خليفة في الأرض، ويُعلمّـــه اللهُ الأســـماءَ كلّها. ثمّ يأمر الملائكة أن تسجد له سجود تكريم، ويأبى إبليس، ويستكبر عن السجود، فيكون بذلك من الكافرين. ثمّ يتجاوزه السياق، ولا يُعطيه حيّزا من القول، ليأمر الله آدم عليه السلام بأن يسكن الجنة، هو وحواء علـــيهما الســـلام، ومـــن يسكن لا بد أن يحتاج إلى الطعام، فيبين له الحق تبارك وتعالى أنّ سكناه في الجنة، وأكله منها أيضا، حيث جمع له بين الاستقرار والأكل ليتنعم بذلك.

ويغفـــل آدم عليه السلام عن عداوة الشيطان له، وكبره وكفره الذي أظهره مـــن قـــبل، فيُطيعه ويأكل من الشجرة التي حذّره الله من الاقتراب منها، ويعصي بذلك آدم ربّه، فيخرج بفعله هذا وزوجه من الجنة، ويهبط إلى الأرض.

([1]) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٨،ص٥٤.

([2]) البقاعي، نظم الدرر،ج٧، ص٣٧١. وبالمناسبة لم يقل الزمخشري في هذه المسألة ما يستدعي ذكره، سوى تفسيره اللغوي لمعنى السكنى باللبث والاستقرار انظر الزمخشري، الكشاف،ج١،ص١٣١. وقال أبو حيان إن الفاء جاءت على أحد محاملها، ولم يشرح قوله، انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٥،ص٢٤. ولم يقل الألوسي فيهما ولا الشعراوي شيئا.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفـــي الأعـــراف يُمكّـــن الله للـــناس في الأرض، ويُيَسّر لهم سبل العيش ليشـــكروه، فقـــد مكّن لهم، وأمر الملائكة أن تسجد لأبيهم؛ آدم عليه السلام، ويأبى إبلـــيس أن يكـــون مع الساجدين، فيبدأ الحوار معه، لتقوم عليه الحجة، فيطلب من الحـــق تبارك وتعالى أن يُنظره إلى يوم يُبعثون، ليقوم بفعل أعلن عنه من البداية، وهـــو القعـــود لبنـــي آدم بكل صراط مستقيم، ومحاولة إغوائهم ما استطاع لذلك سبيلا، فيستجيب له الحق تبارك وتعالى هذا الطلب، ثمّ ينهره بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ قـــالَ اخْرُجْ منها مَذؤوماً مدحوراً لَمَنْ تَبِعَكَ منهم لأَمْلأَنَّ جهنّمَ منكم أجمعينَ﴾ الأعـــراف:١٨. ثـــمّ يعود الحق تبارك وتعالى لآدم عليه السلام فيأمره بأن يسكن الجـــنّة، ثمّ يغويهما الشيطان، فيهبطا إلى الأرض، ولكنّه سبحانه وتعالى ركّز على إغراء الشيطان لهما، وفصّل فيه أكثر من آية سورة البقرة؛ ليتناسب أيضا مع قوله تعـــالى: ﴿ثُـــمَّ لآتِيَـــنّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ الأعراف:١٧.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

واستنادا لما تقدّم يُمكن القول: إنّ الفاء في سورة الأعراف لها دلالة غير ما تقدّم ذكره عند أصحاب كتب المتشابه اللفظي، وعند المفسرين. فقد أفادت السرعة والمـــبادرة؛ ذلك أنّ قصة الشيطان، وما تبعها قد فصلت بين آدم عليه السلام وبين ســـكناه للجـــنة، وقد طال الحوار، فلمّا أمر العزيز الجبّار إبليس أن يخرج مذؤوما مدحـــورا التفـــت إلى آدم عليه السلام وقد طال تحنانه إلى الجنة فقال: ﴿ ويا آدَمُ اســـكُنْ **أنتَ وزوجُكَ الجنَّةَ فَكُلا** من حيثُ شئتُما ولا تقربا هذه الشّجَرةَ فتكونا مـــن الظالميـــنَ﴾ الأعراف:١٩. فهو تكريم له بعد هذا الانتظار، وبعد انتهاء قصة إبليس إلى إخراجه مذؤوما مدحورا. والفاء بدلالتها على السرعة والمبادرة تعضد هذا الإكرام، وعدم افتتاح الآية بلفظة(قلنا) كذلك اختصار للمساحة الزمانية، وطي للوقـــت، للوصول إلى سرعة الإكرام، وقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿ من حيثُ شئتُما﴾ قمة الإكرام، إذ هي أبلغ في الدلالة على الإكرام من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ حيثُ شئتُما﴾ .

أمّـا سـورة البقرة فلم يحصل فيها مثل هذا الفصل، ولم يُذكر إبليس عليه اللعـنة إلا بعد حوار كريم مع الملائكة، ومن ثمّ مع آدم عليه السلام، ولم يستغرق ذكره سوى جزء من الآية، ولذلك كان المجال رحبا للعناية بتكريم آدم عليه السلام وتشـريفه بالخطـاب الربّاني(وقلنا) بضمير الجمع، وما فيه من تكريم وتشريف، ومـن ثـمّ الـنداء مـن جهة الحق تبارك وتعالى، ولمّا لم يكن المقام بحاجة إلى السرعة، وطي الزمن جيء بالواو، التي تفيد مطلق الجمع. ولسنا بحاجة إلى تكلّف ما قالوه من أنّ (اسكن) بمعنى (ادخل) في سورة الأعراف. وقولهم من باب التفنن في البلاغة، ليس بشيء، ولا يستدعي الوقوف عنده في البحث عن أسرار التعبير القرآني.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانيا: (الفاء وثم)

قـــال محمـــد الأمين الخضري في مطلع حديثه عن (ثمّ): " ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى، أنها اختارت الفاء، وهي حرف واحـــد لمعنى المسارعة، و(ثمّ) وهي ثلاثة أحرف للمهلة؛ ليواكب قصر الزمن في الـــنطق بالفـــاء التوالـــي السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخي في وقوع الأحداث "(1).

قـــال تعـــالى فـــي سورة الكهف: ﴿ **<u>وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْـرَضَ عَـنهَا</u>** وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ الكهف:٥٧، فعَطَفَ أعرضَ علـــى ذُكِّرَ بالفاء. وقال في سورة السجدة: ﴿ **<u>وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُـــمَّ أَعْرَضَ عَنهَا</u>** إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ السجدة:٢٢، فعطف أعرض على ذُكِّــر بــــ(ثــمَّ). فما سرُّ هذا التلوين في العطف، أو ما هي دلالة كل حرف في موطنه، وهل يصلح أحد الحرفين مكان الآخر ؟

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

مـــن المُفـــيد أن نستأنس بكلام الأوائل، من أصحاب كتب المتشابه اللفظي، والمفســـرين، وذلك قبل أن نُدليَ برأيٍ في المسألة؛ لكي لا يتناقض ما نأتي به مع المعـــنى العام للآيات القرآنية، وحتى يُميِّز القارئ أيضا بين ما يفتح الله به علينا، وما قيل من قبل.

ينظر الإسكافي في سياق آيتي الكهف والسجدة، فيرى أنَّ آية الكهف خاصة في قوم يستدعون إلى الإيمان، ولم تُختم أعمالهم بالكفر، وقد يكونون كفارا ولكنّهم

---

(1) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص١٥٣. وهذا معنى كلام الجونفوري في كتابه(الفرائد في شرح الفوائد)،ص٢٤ حيث قال: " ثم إنه يستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثم "وقد ذكر الأمين الخضري هذا النص في كتابه: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص١٢.

ما زالوا على قيد الحياة، ومن ثمّ قد يُسلمون، فقبولهم للدين، وإقبالهم عليه مرجوان منهم، ولكنّهم في هذا المقام أعقبوا التذكير بآيات الله الإعراض، دون ريث أو تمهّل.

وأمّا سياق آية السجدة فهي في الكفار بعد موافاتهم القيامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١)وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾السجدة:١١-١٢. فقد ذكّروا مُدّة عمرهم بآيات الله، ثمّ ختم لهم بترك القبول، وبالإعراض، فقيل عند الانتقام منهم هذا القول، وعُبّر بأداة البعد لإقامة الحجة عليهم([1]). ويرى الزمخشري أنّ ثم للاستبعاد في هذا المقام إذ يقول: "إنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعدٌ"([2]).

محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعند الغرناطي أنّ آية الكهف في خطاب العرب خاصة، ولقد أُقيمت الحُجّة عليهم عقب سماعهم من الرسول وتدبرهم لما جاء به صلى الله عليه وسلم، فناسب ذلك الفاء المقتضية التعقيب على ما يجب. وأمّا آية السجدة فهي عامة في حق العرب وغيرهم ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾السجدة:١٨، ومن ثمّ فإن المقصود استبعاد التوقف عن الإيمان، والإعراض عند مَن رأى آيات الله على عمومها، فجاءت (ثُمّ) لتُبين عظم الذنب الذي يرتكبه هذا المُعرِض، وذلك لكثرة الآيات وتنويعها. وفي جواب ثانٍ للغرناطي يرى أنّ في آية الكهف إرسال

([1]) انظر الإسكافي، درة التنزيل، ص١٩٨، و الكرماني، البرهان، ص١٠٩، والأنصاري، فتح الرحمن،ص ١٨٦.

([2]) الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص٤٩٩ وانظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٨،ص٤٣٩ و البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤،ص٢٢٢ ،وأبا السعود، إرشاد العقل السليم،ج٥،ص٢٠٥، و الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي ،ج٧،ص٤٥٢ وقد بيّن المقصود بالاستبعاد ،ومن المحدثين: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص١٥٧-١٥٨. ولم يذكر الرازي شيئا، ونقل الألوسي كلام أبي السعود، وانظر أيضا ابن عاشور، التحرير والتنوير،٢١،ص٢٣٣.

الرسل عليهم السلام ﴿وما نُرسلُ المُرسلينَ إلّا مُبَشّرينَ ومُنذرين ويُجادلُ الذين كفروا بالباطلِ لِيُدْحِضوا به الحق﴾الكهف:٥٦، فالقوم أعرضوا عقِبَ دعاء الرسل إيّاهم. وفي السجدة لم يقَع ذكْرٌ لإرسال الرسل، ولا تكذيبٌ لهم، فعُطِفَ بـ (ثُمّ) لأنه لم تقع مباشرة الرسل بالتكذيب، فصار إعراضهم كأنّما وقع بذكر الجزاء([1]).

وقريب منه قول ابن جماعة، فقد رأى أنّ تقدّم قوله تعالى: ﴿ويُجادلُ الذين كفروا بالباطلِ﴾الكهف:٥٦ على آية ﴿ومن أظلم﴾، فيه دلالة على أنّ القوم أعرضوا إعراضا مباشرا عقب سماعهم الرسل. كما أنّ تقدّم قوله تعالى: ﴿وأمّا الذين فسقوا﴾السجدة:٢٠ يناسبه التعبير بـ(ثُمّ) لأنّ القوم استمرّوا على فسقهم([2]).

إنّ الله سبحانه وتعالى يُصرّف للناس الأمثال الدالّة على ربوبيّته، ثُمّ يزجُر من يتكبّرُ، فيُصِرُّ على الخصومة والجدال، ولا يعتبر بما حصل للقرون الخالية، فلا يؤمن حتى يرى العذاب.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إنّ هذا الصنف من الناس- كما يقول أبو السعود- هو "أظلم من كل ظالم"([3])، أو بتعبير الطبري والقرطبي: لا أحد أظلم من هؤلاء([4])، ولذلك وصفهم الحق تبارك وتعالى في استفهام تقريري يُوجبُ بما بعده الخزيَ والشنار([5]).

إنّ العطف بالفاء في آية الكهف، يتعانق في دلالته مع قصة أصحاب الكهف الواردة في السورة نفسها. وذلك في كشفها عمّا يتحمّله الداعية من أذى في سبيل مبدئه؛ ففيها إشارة إلى الصد المباشر، وإلى سرعة الإعراض، وعدم الرغبة في الاستماع ابتداء. كما أنّ فيها دلالة على تغييب الفكر وإمعان النظر، الذي يُعَدُّ

([1]) انظر الغرناطي، ملاك التأويل،ج٢،ص٧٨٣-٧٨٧.

([2]) انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٤٧.

([3]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤،ص١٩٩.

([4]) انظر الطبري، جامع البيان، ج١٥،ص٣٠٩-٣١٠ ، و القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١١،ص٧.

([5]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١٢، ص٩١-٩٢.

مُقدّمَــةً للاستهزاء واللامبالاة، وذلك كله أذى للداعية؛ إذ إن مقتضى الواقع السليم أنّ التذكــير ســبب الإقــبال، وليس سببا لمعاجلة الصد والإعراض. وجميع هذه الدلالات متناسق مع مقصد من أُمّهات مقاصد هذه السورة، وهو إرشاد الداعية إلى الصــبر علـــى دعوته، وعدم استعجاله لأمر الله، ولعلّ ما في السورة من قصص يعضُدُ هذا المقصد.

وفي العطف بـــ(ثُمّ) دلالات لا تقل عمّا في الفاء، بل تزيد عليها-كما يقول البقاعـــي-([1]) في إقامة الحجة على المجرمين، ففي السورة أدلة على ربوبية الحق تـــبارك وتعـــالى، وفيها بعد ذلك موازنة بين فريق المؤمنين وفريق الفاسقين؛ من حيث العمل والمصير، وذلك في مشهد من مشاهد يوم القيامة، حيث تتجلى البلاغة القرآنـــية في العطف بأداة ذات انبعاثات دلالية تشير إلى ما بين الفريقين من بعد، فالمؤمـــنون-وهذا دأبهم- ما إن ذُكّروا بآيات الله حتى خرُّوا سُجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون، ولذلك كان جزاؤهم جنّات المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون. وهذه السرعة في الاستجابة من قبل المؤمنين يقابلها تكبُّر وإعراض من المجرمين الفاسقين.

ولعـــلّ فـــي العطـــف بـــ(ثُمّ) تناسبٌ مع هذه المفارقة في الكشف عن حال المتلقـــي إثـــر سماعه لأوامر الله، أو إثر وقوفه أمامها، وتفكره فيها. وفيها أيضا إشـــارة مؤكّدة إلى استحقاق المجرمين للعذاب؛ نتيجة لإعراضهم عن آيات الله عز وجـــل، بعـــد تأمُّلهم لها، وإمعان النظر فيها، من لدن آدم عليه السلام إلى زمانهم. وهذا يعني أنّ عذاب مَن ذُكّر بآيات الله، فتفكّر بها، وتدبّر مقاصدها، ودلالاتها، ثُمّ أعـــرض عـــنها ولـــو بعد ألف عام-كما يقول البقاعي-فهو أظلم الظالمين([2]). إنّ عذابـــه لا شـــك أكبر من عذاب من أعرض عنها مباشرة، ولم يُبالِ بها، وإن كان كلا الفعلين عظيم.

([1]) انظر البقاعي، المصدر نفسه،ج١٥، ص٢٦٢.

([2]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١٥، ص٢٦٢.

وإذا خصصنا الحديث عن مقام الدنيا، ومشهد يوم القيامة -كما قال العلماء من قبل- يتبين لنا العدل الإلهي من خلال هذا التغاير في العطف؛ إذ الفاء فيها سرعة الإعراض عقبَ تلقيهم لخطاب الدعاة، ولا جرمَ فالمقام ليس لإقامة الحجة، ومن ثمّ العذاب. وفي (ثمّ) وقت كافٍ للنظر والاعتبار، وهذا يتناسب مع مشهد الحساب، فقد أمهلهم الحق تبارك وتعالى ليقيم عليهم بعد ذلك الحجة، فينتقم من المجرمين.

وفي الفاء أيضا -عوضا عمّا تقدّم- تناسب عجيب مع حال المخاطب من حيث الخصوص والعموم، فيبدو أنّ الحديث عن قوم بأعينهم، وليس عاما، إذ لو كان عامّا لاستخدمت معه أداة البعد(ثم) التي تُذَكِّر بجميع آيات الله عز وجل. على أنّ كثرة الآيات لا يتم التذكير بها إلا في مقام الحساب، أو في مقام الإنكار الشديد.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثا: (اللام وإلى)

تُعَــدُّ اللام المفردة من المباحث التي شغلت حيِّزا كبيرا من مُصنَّفات معاني الحـــروف، فمـــا استفتح باحث حديثه عنها، إلا وأشار إلى تشعُّب معانيها و كثرة أقســـامها، حـــتّى صنّف فيها الزجاجي كتابا سمّاه(كتاب اللامات)، وكذلك فعل ابن فارس([1]).

وفـــي كتب معاني الحروف أنّ اللام تأتي بمعنى إلى، وذلك من باب تعاقب الحـــروف كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمدُ لله الذي هدانا لهذا﴾الأعراف:٤٣، وقوـــله: ﴿ســـقناه لـــبلدٍ ميّت﴾الأعراف:٥٧، وقوله: ﴿كُلٌّ يجري لأجل مُسَمّى﴾ الـــرعد:٢، وفاطـــر:١٣، والزمر:٥، وقوله: ﴿بأنّ ربّك أوحى لها﴾ الزلزلة:٥، وقوله: ﴿ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه﴾الأنعام:٢٨ ، وغيره كثير([2]).

جميع الحقوق محفوظة

إنّ قـــبول مـــا جاء في كتب معاني الحروف، أو ردّه يحتاج إلى مصنّفات عديدة، كما أنّ التعليق على مبحث اللام وحده يستغرق وقتا لا يُسعفه المقام، ولذلك أرى التعليق السريع، أو الإشارة إلى توجيه بعض الأمثلة التي ذُكِرَت، مما يختص مـــنها بعلم المتشابه اللفظي في الحروف، ثمّ أفردُ الحديث بعد ذلك لواحدة من هذه الآيات، حسب المنهج المتبع في دراسة آيِ المتشابه اللفظي.

يـــتعدّى فعـــل الهدايـــة بنفســـه، أو باللام، أو بـــ(إلى) فيتداخل مع مبحث التناوب، ومع مبحث التضمين، ويصلح أن يكون أيضا في هذا المبحث، وهذا شأن كثير من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

([1]) انظر الزجّاجي، أبا القاسم عبد الرحمن،(ت٣٣٩هــ)، كتاب اللامات، ط٣، (تحقيق مازن المبارك)، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.ومجلة المجمع العلمي العربي، (اللامات) لأحمد ابن فارس(ت٣٩٥هــ)، (تحقيق شاكر الفحّام)، مج٤٨، ج٤، ١٩٧٣م، ص٧٧٠-٧٨٢.

وللتدليل على كثرة أحكامها انظر أيضا: المالقي، رصف المباني، ص٢٩٣-٣٢٩، و المرادي، الجنى الداني، ص٩٥-١٣٩، و ابن هشام، مغني اللبيب،ج١، ص٢٣٢-٢٦٤.

([2]) انظر المالقي، المصدر نفسه، ص٢٩٧-٢٩٨، و المرادي، المصدر نفسه، ص٩٩ ، و ابن هشام، المصدر نفسه،ج١، ص٢٣٧.

إنّ نظــرة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، كفيلة بإعطائنا صُوَرَ تعديــة فعــل الهدايــة فــي الذكر الحكيم. فمن المعدَّى بنفسه قوله تعالى: ﴿اهدنا **الصــراط المستقيم**﴾ الفاتحة:٦، وقوله: ﴿إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبينا ليَغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأخرَ ويُتِمَّ نعمتَهُ عليكَ **ويَهْدِيَكَ صراطاً** مستقيما﴾الفتح:١-٢.

ومــن المُعدَّى بــ(إلى) قوله تعالى: ﴿وكذلكَ أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا مــا كُنــتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناهُ نورا نهدي به من نشاءُ من عِــبادِنا وإنَّــك **لتهدي إلى** صراط مستقيم﴾الشورى:٥٢ وقوله: ﴿قل إنّني **هداني ربــي إلــى** صراط مستقيم دِيناً قِيَماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين﴾ الأنعام:١٦١.

ومــن المُعَــدّى باللام قوله: ﴿ونزَعنا ما في صُدورِهم من غِلٍّ تجري من تحتِهِمُ الأنهارُ وقالوا الحمدُ لله الذي **هدانا لهذا** وما كُنّا لنهتديَ لولا أن هدانا اللهُ لقد جــاءتْ رسُــلُ ربِّــنا بالحقِّ ونُودُوا أنْ تِلكُمُ الجنّةُ أورِثتُموها بِما كُنتم تعملونَ﴾ الأعراف:٤٣، وقوله تعالى: ﴿إنّ هذا القرآنَ **يهدي للتي** هي أقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنّ لهم أجراً كبيراً﴾الإسراء:٩

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وقــف ابــن القيم الجوزية وِقفة المتأمِّل لأسرار هذه التعدية، وقد أقرَّ بأنَّ الفــروق لهــذه المواضع تَدِقُّ جدا عن أفهام العلماء، إلّا أنَّ فقهاء العربية لا ينبغي لهــم أن يفرّوا عن معرفة الأسرار الكامنة وراء هذا التشابه البياني. وخلاصة ما توصّل إليه:

أولا: أنَّ فعــل الهدايــة مــتى عُدِّيَ بــ(إلى)تضمّن الإرشاد والإيصال إلى الغاية المطلوبة.

ثانيا: ومتى عُدِّيَ باللام تضمَّن التخصيص بالشيء المطلوب.

ثالــثا: وإذا تعــدَّى بنفسه تضمّن المعنى الجامع لذلك كلّه، وهو التعريف، والبيان، والإلهام.[1]

---

[1] انظر ابن قيِّم الجوزية، أبا عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هــ). بدائع الفوائد،ط١، (تحقيق معروف

ذكـــر ابـــن القيم هذه الدقائق من أسرار العربية- كما نعتها – ولكنَّ ابتعاده عـــن القول بالتناوب ألجأه إلى القول بالتضمين، وبهذا يُعلَم أن من العلماء مَن فرَّ مـــن التناوب إلى التضمين، وهم أغلب البصريين، أمّا الكوفيون، ومن قال برأيهم فعـــدّوا ذلك من التناوب. ونحن لا يعنينا في هذا المقام- كما سبق أن ذكرت – إلا البحث عن أسرار هذه التعبيرات، بغض النظر عن المُسَمّى(١).

وقـــد عـــدّ محمد عواد أنّ هذا المثال من أقرب الأمثلة التي يُحتَجُّ بها على تناوب حروف الجر، وهو من الأمثلة المنتخبة للدلالة على صحة وقوع اللام موقع إلى، ووقوع إلى موقع اللام، و محمد عواد يرد القول بالتناوب كما تقدّم(٢).

وعند فضل عباس: "فإذا أُسند هذا الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، رأيناه في أكـــثر الآيات يتعدى بنفسه، وقد يتعدى بحرف الجر على قلة، لأن الهادي-أيا كان معـــنى الهداية-هو الله سبحانه، وإذا جاء مسندا لغيره سبحانه فلا بد من أن يتعدى بحرف الجر"(٣).

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفـــي التعلـــيق على مثال آخر من أمثلة المتشابه اللفظي الوارد في حرفي الـــلام وإلـــى، نقف أمام الحقيقة التالية وهي: **أنّ ثلاثة مواضع في القرآن الكريم تعـــدّى فـــيها الفعـــل (يجـــري) بـــاللام، وموضع واحد فقط تعدّى فيه هذا الفعل بـــ(إلى)**. فما سر ذلك ؟ وهل هو من باب تعاقب الحروف وتعاورها ؟.

زريق وآخرين)، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠١م،ج١،ص٢٠-٢١.

(١) انظر ابن القيم، المصدر نفسه، ج١، ص٢٠-٢١.

(٢) محمد حسن عواد، تناوب حروف الجر، ص٤٥ و ص ٧٦ .

(٣) فضل عباس، سلامة الحرف، ص٦٢-٦٤، وانظر: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٢٢-٢٢٤. وذلك من باب الإشارة، وإلا فالتفصيل يطول.

يرى الإسكافي أنّ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يولِجُ الليلَ في النَّهارِ ويولِجُ النَّهارَ في الليلِ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ **كُلٌّ يَجري إلى أجلٍ مسمّى** وأنَّ اللهَ بما تعملونَ خبيرٌ﴾ لقمان: ٢٩، بمعنى يجري لبلوغ أجل، فهو لا يزال جاريا فيه، حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، ويعضد هذا المعنى أنّ الآيات التي قبل هذه الآية، والآيات التي بعدها تتحدث عن نهاية الخليقة، فالقيامة هي غاية الجريان؛ قال تعالى:﴿ ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلّا كَنفسٍ واحدةٍ إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾ لقمان:٢٨، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٣٣)إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾لقمان:٣٣-٣٤.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وأمّا المواضع الثلاثة من سورة الرعد، وفاطر، والزمر فهي إخبار عن ابتداء الخلق، وليس فيها حديث عن النهاية؛ ففي الرعد بداية الخلق، ورفع السموات بغير عمد، ثم الاستواء على العرش،وتسخير الشمس والقمر وغيرهما ليبلغَ كلٌّ غايته، قال تعالى:﴿ اللهُ الذي رفَعَ السماوات بغيرِ عَمَدٍ ترونَها ثُمَّ استوى على العرشِ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يَجْري لِأجلٍ مُسمّى يُدَبِّرُ الأمرَ يُفصّلُ الآياتِ لعلَّكُم بِلقاءِ ربِّكُم توقنونَ﴾ الرعد: ٢. وآيات فاطر ذكرٌ للنعم التي بدأ بها الحق تبارك وتعالى في البر والبحر، ومن ثمّ إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر لتجري كلّ هذه الخليقة للغاية التي حددها لها الحق تبارك وتعالى، وفي ذلك الحركة والحياة، وليس الموت والسكون، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢)يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾فاطر:١٢-١٣. وشبيه

ذلـك مـا في الزمر حيث إنها في ابتداء خلق السموات والأرض، وابتداء جري الكواكب، في طريق لبلوغ الغاية التي رسمها الله لها، فقال تعالى:﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْضَ بِـالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٥)خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِـنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْـدِ خَلْـقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ الزمر:٥-٦.

ومـن ثـمّ يتضح مما تقدّم أنّ اللام قد أعطت فعل الجري حركة مستمرة، نحـو الغاية المنشودة، في حين أفادت التعدية بـ(إلى) معنى السكون إلى النهاية، وهي في الآيات يوم الحساب(١).

جميع الحقوق محفوظة

أمّـا رأي الكرمانـي بأن التعدية باللام جاءت على الاستخدام الأكثر، وفي لقمـان وردت (إلى) لتتناسب مع ذكر(إلى) في قوله تعالى: ﴿ومن يُسلم وجهه إلى الله﴾لقمان:٢٢، فليس بجواب مقنع، وكذلك ما جاء به الغرناطي من أنّ آية لقمان للتنبيه والاعتبار، وهذا كلام طويل يناسبه ما يطول من الحروف فكانت(إلى)، وفي الآيـات الأخـر التـي ورد الجـر فـيها باللام كان ذلك متناسبا مع بنائها على الإيجاز(٢).

وهـو المعنى الذي قرره الزمخشري، وسار عليه أغلب من جاء بعده، قال الزمخشري في كشافه ردّا على من يقول في الآية بتعاقب الحروف، وفي توجيهه لـتأويلها قال: " فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى: أهو من تعاقـب الحرفيـن؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين، أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض،

---

(١) انظر الإسكافي، درة التنزيل، ص٢٥٧-٢٥٨ ، و ابن جماعة، كشف المعاني، ص٣٠٧ ، والأنصاري، فتح الرحمن،ص٢٤٢.

(٢) انظر الكرماني، البرهان، ص٩٠، والغرناطي، ملاك التأويل،ج٢،ص٩٤٣-٩٤٤.

لأن قولــك: يجري إلى أجل مسمى، معناه يبلغه وينتهي إليه. وقولك: يجري لأجل مســمى: تــريد يجــري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه"([1]).

ونقــف فــي هــذا المقام مع هذا المثال الذي قيل فيه أيضا إنّ اللام جاءت بمعــنى (إلــى)، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَهُوَ الذي يُرسِلُ الرّياحَ بُشْراً بيــنَ يَــدَيْ رحمَــته حتّى إذا أقلّتْ سحاباً ثِقالاً **سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ** فأنزَلنا بهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ من كُلِّ الثَّمَراتِ كذلكَ نُخْرِجُ الموتى لعَلّكُم تَذَكَّرونَ ﴾ الأعراف: ٥٧، وفــي فاطر قال تعالى: ﴿ واللهُ الذي أرسَلَ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً **فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ** فَأَحْيَيْنا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها كذلكَ النّشورُ ﴾ فاطر: ٩

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ذكــر المرادي أنّ اللام في آية الأعراف بمعنى إلى([2])، وكذلك الرازي في أحــد قوليه([3])، ومحمد عبده في تفسير المنار([4]). وقد رأى المالقي من قبلُ جواز استعمال اللام موضع (إلى) وذلك لما بينهما من تقارب لفظي، ومعنوي([5]).

([1]) الزمخشري، الكشاف،ج٣،ص٤٨٦-٤٨٧. ونقل أبو حيان كلام الزمخشري بنصه انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٨،ص٤٢٢، واختصره البيضاوي في تفسيره،ج٤،ص٢١٧، وقريب منه ما عند البقاعي في تفسيره،ج١٥،ص٢٠٠، وفي الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي،ج٧،ص٤٣٠-٤٣١ أنّ اللام لام تعليل أو عاقبة، وما سوى ذلك فهو بمعنى كلام الزمخشري ، ونقل الألوسي في تفسيره،ج٢١،ص١٣٩ كلام الشهاب، وزاد عليه رأي النيسابوري الذي يرى أنّ آية لقمان صُدِّرت بالتعجيب فناسبها التطويل، ولم يخرج ابن عاشور في التحرير والتنوير،ج٢١،ص١٨٥-١٨٦عمّا قيل، إلا قوله في الجزء الثاني والعشرين من تفسيره،ص٢٨١ إنّ المخالفة قد تكون من باب التفنن في النظم، وهذا كلام فيه نظر.

([2]) انظر المرادي، الجنى الداني، ص٩٩،

([3]) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٥، ص٢٩٠.

([4]) انظر محمد رشيد رضا، تفسير المنار،ج٨،ص٤٦٧.

([5]) انظر المالقي، رصف المباني،ص٢٩٧-٢٩٨.

ولـــم أجـــد لهاتين الآيتين تأويلا عند أصحاب كتب المتشابه اللفظي، سوى رأي للغرناطـــي، أساسه الوجازة والإسهاب، بمعنى: لمّا طال الفعل في آية فاطر بســـبب حـــرف التعقيب(الفاء) في قوله تعالى: ﴿ **فَتُثِـــيرُ** سَحاباً **فَسُقْنَاهُ** إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ ناســـبه التعدية بـــ(إلى) إسهاب مقابل إسهاب، وفي الأعراف إيجاز مقابل إيجاز([1]).

وما من شك في أنّ رأي الغرناطي هذا لا يحتاج إلى تعليق، فهو غير مقنع في التحليل البلاغي.

وعند الزمخشري أنّ اللام في الأعراف هي لام العلة([2])، بمعنى لأجل بلد. وقال أبو حيان: هي لام التبليغ([3]).

وقـــد كفانا المرادي التعليق على ما ذُكر من معانٍ للام، حيث ختم مبحث الـــلام بكـــلام نفيس، يُمكنُ أنْ نعُدّه أساسا في التوجيه البلاغي لآية الأعراف، وما شـــاكلها مـــن الآيات قال: " التحقيق أنّ معنى اللام، في الأصل، هو الاختصاص. وهو معنى لا يُفارقُها، وقد يصحبه معانٍ أُخر. وإذا تؤمّلت سائر المعاني المذكورة وُجـــدت راجعـــة إلـــى الاختصاص، وأنواع الاختصاص متعددة؛ ألا ترى أنّ من معانـــيها المشهورة التعليل، قال بعضهم: وهو راجع إلى معنى الاختصاص، لأنّك إذا قلـــت: جئـــتُك للإكـــرام، دلت اللام على أنّ مجيئك مختص بالإكرام، إذ كان الإكرام سببه، دون غيره "([4]).

([1]) انظر الغرناطي، ملاك التاويل،ج٧،ص٥٠٧-٥٠٨.

([2]) انظر الزمخشري، الكشاف،ج٢،ص١٠٧، وانظر أيضا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧،ص١٤٧، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ٣،ص١٧، و الرازي، التفسير الكبير، مج٥، ص٢٩٠، والبقاعي، نظم الدرر،ج٧ ،ص٤٢٢، وأبوالسعود، إرشاد العقل السليم، ج٢،ص٥٥ وفيه كلام البيضاوي، و الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي،ج٤،ص٢٩٦وفيه كلام الزمخشري وأبي حيان، والألوسي، روح المعاني،ج٨،ص٥٣٥ وفيه كلام أبي السعود، الذي مصدره كلام البيضاوي، وفيه كلام أبي حيان، وابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٨ ،ص١٨٣.

([3]) انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٥،ص٧٧.

([4]) المرادي، الجنى الداني، ص١٠٩.

ويـــرى الأمين الخضري أن سياق آية الأعراف يستدعي إرسال الله تعالى الـــرياح لســـقي قوم استجابة لدعائهم وصلاحهم، بينما آية فاطر وقعت في سياق ملتهـــب بالوعـــيد والـــتهديد لمـــنكري البعث، فجاءت إلى مشيرة إلى نهاية رحلة الـــرياح، ونهايـــة موت الأرض لتبدأ ببعثها حياة أخرى، كما يحدث للإنسان حين يُحيـــيه الله بعـــد طول رقاد، وليس هناك حرف يبرز هذا الغرض، ويستجيب لهذا الداعي غير حرف الانتهاء([1]).

إنَّ مـــا ذكـــره الخضري جيد، ولكنه يحتاج كغيره من الآراء إلى توضيح وتفصـــيل؛ فســـياق آيتـــي الأعراف وفاطر قريب إلى حدٍّ يصعب معه إيجاد فرق دلالـــي واضح بين الآيتين، ولكنَّ ذلك لا يعني تطابق المعنيين، الأمر الذي جعلني أوازن بيـــن الســـياقين كلمة كلمة، لعلّي أجترح معنى يُقنعُ القارئ في الكشف عن وجه بلاغي لمجيء اللام في الأعراف، و(إلى) في فاطر.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبعد المدارسة والموازنة، والنظر فيما تقدّم على هاتين الآيتين، وما تلاهما رأيـــتُ أنّ ســـياق آيـــة الأعـــراف أكثر خصوصية من سياق آية فاطر؛ فقبل آية الأعـــراف قوله تعالى: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٥٥)وَلاَ تُفْسِـــدُواْ فِـــي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾الأعراف:٥٥-٥٦.

وفـــي هاتيـــن الآيتين تظهر العناية الربانية، والرحمة المزجاة من الله عز وجـــل لهذا الفريق من المُخاطبين. وفي الآيتين أيضا توجيه وإرشاد، ولكنْ يحوطه الأُنـــس من كلّ الجهات، فلو أخذنا أيّة كلمة من كلمات الآيتين، لوجدنا فيها الرقة واللطـــف، وكأنّهـــا تهمس في أُذُن المخاطب همسا لا ينزعجُ منه، حتى تُختم الآية بقرب الرحمة من المحسنين. يلي ذلك مثل لكيفية إخراج الموتى من القبور، رجاء أنْ يـــتذكّر المحسنُ نهايته فيزداد إحسانا، وليَعرفَ الناس أنّ مردّ الأمور كلّها إلى

([1]) انظر: محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص٢٣٠-٢٣١.

الله، فـــلا تعجزه حياة ولا بعث. فهو وحده لا غيره الذي يُرسِل الرياح، ولمّا كان الســـياق سياق رحمة وتضرّع وخشية ناسبه ما يدعو لذلك ﴿بُشرا بين يَدَيْ رحمته ﴾ ثمّ كان سوق هذا السحاب الثقيل كلّه من أجل بلد بعينه، وقد أفادت اللام –والله أعلم– أنّ هذا السحاب خاص بهذا البلد، بمعنى لم ينزل على غيره من البلدان، ولم يَضِـــعْ مـــنه شـــيء في الطريق، إذ المقصود بلد ما دون غيره، وهذه خصوصية الأعراف في تناسبها مع خصوصية السياق آنف الذكر.

وأمّا آية سورة فاطر فقد سبقها عدم الاغترار بالحياة الدنيا، ووجوب اتخاذ الشـــيطان عدوّا، وإخبار من الله عز وجل بأنّ الذين كفروا لهم عذاب شديد، وأنّ الذيـــن آمـــنوا لهـــم مغفـــرة وأجر كبير، إلى أن ختم قبل هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾فاطر:٨ ، ثمّ تلا ذلك مثل أعمّ من مثل آية الأعراف؛ ففي الأعراف ﴿كذلك نُخرجُ الموتى ﴾، وفي فاطر﴿كذلك النشور﴾. كما أنّ الآيات التي سبقت آية الأعراف فيها من الأنـــس ما ترتاح له النفس، ولكنّ الآيات المُتقدّمة على آية فاطر فيها رائحة تهديد وعذاب.

ويخـــتلف الـــنظم في الآيتين، إذ إنّ بداية فاطر أكثر دلالة على التفخيم من دلالة مطلع الأعراف، ولا جرم فالتفخيم متناسق مع التهديد السابق للآية. وفي آية فاطـــر أيضا رهبة غير موجودة في آية الأعراف؛ حيث ذُكرت الفاء ثلاث مرّات طـــوت فـــيها الزمن طيّا غير آبهة بالتفصيل؛ فما بين إرسال الرياح إلى سوقها لا نجـــد إلا قولـــه تعـــالى: ﴿فتثـــير سحابا﴾. وتبدو الحركة أكثر وضوحا في آية الأعراف بدءا بالفعل المضارع﴿يُرسِلُ﴾ إلى إخراج كل الثمرات، وما توسّط ذلك فـــيه من الخصوصية ما يتناسب مع سياق الآية؛ ﴿يرسل الرياح﴾، ﴿بشرا﴾، ﴿ بيـــن يـــدي رحمـــته﴾، ﴿حتى إذا أقلت سحابا﴾، وفي فاطر﴿فسقناه﴾ ولكنّ في الأعـــراف﴿سقناه﴾ فهو سحاب مختص بتلك البلدة ولا يحتاج إلى فاصل ولو كان بالفاء. وفي فاطر﴿فأحيينا به الأرض﴾، وفي الأعراف أكثر خصوصية﴿فأخرجنا

به من كل الثمرات﴾.

وفـــي الأعـــراف كانت عناية السياق بالأنس والخصوصية، بينما في فاطر كان التركيز على الاعتبار بمجمل النهايات، وذلك واضح من خلال ما تقدّم؛ ولذلك قال فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿إلى بلد﴾ وكأنّ المعنى في فاطر أنّ هذا اللون من الســـحاب حُمّل ما شاء الله له أن يَحمل، بحثا عن أرض ميتة تناسبه، ويظهر من التعبير طول سفره، وهذه رحلة من السحاب فيها لأهل الأرض ممن يُشاهده مزيد مـــن الهـــول والاعتـــبار بقدرة الله عز وجل. ومن بديع صنع الله عز وجل، ومن حكمـــته كذلك ألا يُنزلّ هذا السحاب إلا في المكان الذي يحتاجه، فقد ظل يسير في الســـماء حـــتى انتهى إلى بلد ميت. وليس كذلك سحاب الأعراف، فقد كان متّجها مسرعا صوب بلدة خاصة مُعيّنة، وإن لم يكشف السياق عنها.

جميع الحقوق محفوظة

ولا شك بعد ذلك أنّ من جاءه السحاب خاصا لأجله أعظم شأوا ممن جاءه على غرة، ولم يكن يتوقعه، وعليه فإنّ في سياق آية الأعراف من التكريم والإنعام ما ليس في آية فاطر والله أعلم.

الفصل الثاني: المتشابه اللفظي في المفردات

المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية.

المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في التعريف والتنكير.

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في الإفراد والجمع.

المبحث الرابع: المتشابه اللفظي في كلمات قريبة المعنى.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في الإدغام وفكّه.

المبحث السادس: المتشابه اللفظي في المفردات المتماثلة.

المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية

لعلَّ من أهم مقاصد هذا المبحث وضع القارئ في السياق العام لعناصر المفردة القرآنية التي سيتم معالجتها ضمن هذا الفصل من الدراسة. وهذا يتطلب استحضار التاريخ النقدي العام الذي دار حول المفردة في التراث العربي، وما كتبه الباحثون في التراث الغربي أيضا. ولكنّ نظرا لتشعب خيوط هذا الموضوع، وكثرة من كتب فيه، فقد رأيت حصره في مجموعة من الأمثلة والإيضاحات، التي أرجو الله أن تكون وافية بالمقصود؛ من حيث التمهيد والتقديم.

إنّ تاريخ المفردة يُذكّرنا بكثير من الأحكام النقدية التي كان لها حضورها على صفحات كتب النقد الأدبي، والإعجاز القرآني. ففي الذاكرة بيت المسيّب ابن علس، وتعليق طرفة عليه، وما رُوي عن حسان بن ثابت، وما قيل له، وفي العصر العباسي بيت ابن هرمة وغير ذلك كثير. ولكنّها أحكام مُتفرّقةٌ لم تُجمع، إلى أن تلقفتها كتب النقد الأدبي، وكتب التفسير، وكتب البلاغة، وكتب الإعجاز القرآني.

فتجد أهل التفسير –على سبيل المثال– يُفرّقون بين كلمة (المُسَحَّرين) في قوله تعالى حكاية عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ **الْمُسَحَّرِينَ**(١٥٣)مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الشعراء:١٥٣–١٥٥، وكلمة(المُسَحَّرين) في قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ **الْمُسَحَّرِينَ**(١٨٥)وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾الشعراء:١٨٥–١٨٧.

فقد ذهب المفسرون إلى تأويل هذه المفردة بما يتناسب مع سياق الآيات، ومع آراء النحويين واللغويين كذلك. ولكنّ أصحاب كتب المتشابه اللفظي، ومن عُني بالجانب البلاغي من أهل التفسير ذهبوا إلى البحث عن دلالة حذف الواو من

قصـــة صالح، وذكرها في قصة شعيب عليهما السلام. ولمّا كان اهتمامنا في هذا المقـــام بمعنى هذه المفردة في القصتين، فقد تجنبت البحث عن سر ذكر الواو، أو عدم ذكرها، واكتفيت بما يُسعفُ في تحديد دلالة لفظة(المسحّرين).

لقـــد عـــرض أئمة التفسير لهذه المفردة، وذكروا الأوجه المحتملة لمعناها، حـــتّى أفهموا القارئ أنها من المشترك اللفظي، ولكنّهم لم يُصرّحوا بترجيح معنى على آخر؛ فعند الفرّاء أنّها بمعنى المخوّف، والمعلّل والمخدوع([1])، أمّا ابن جرير الطـــبري فقـــد نـــص علـــى الاخـــتلاف فـــي معناها، فقال بعضهم هي بمعنى: المسحورين، وقال آخرون: بمعنى المخلوقين، وقال أهل البصرة: كل من أكل من إنـــس أو دابّة فهو مُسَحّر، ومثله عند بعض نحاة الكوفة، ثم قال: " والصواب من القـــول في ذلك عندي: القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أن معناه: إنّما أنتَ من المخلوقيـــن الذيـــن يُعلّلـــون بالطّعام والشراب مثلنا، ولست ربّا ولا ملكا فنطيعك، ونعلم أنك صادق فيما تقول "([2]).

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وذكر الزمخشري في التعليق على الآية الواردة حكاية عن قوم صالح، أنه الـــذي سُحِرَ كثيرا حتى غلب على عقله، وقيل هو من السحر الرئة، وأنه بشر([3]). ولكـــنْ اعـــتمادا علـــى ذكـــر الواو وحذفها، فقد رأيتَ أنّه يُرَجّح في قصة صالح **البشـــرية**، وفـــي قصـــة شعيب يُرجّح **السحر والبشرية** معا، قال:" فإن قلت: هل اخـــتلف المعنى بإدخال الواو ههنا، وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قُصِد معنيان، كلاهما منافٍ للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحّرا، ولا يجوز أن يكون بشرا. وإذا تركت الواو فلم يُقصَد إلا معنى واحد، وهو كونه مسحّرا، ثم قرر بكونه بشرا مثلهم "([4]).

([1])انظر: الفراء، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٢. وانظر ابن منظور، المصدر نفسه، مادة(سحر).

([2])الطـــبري، المصدر نفسه، ج١٩، ص١١٩–١٢٠. هذا في حديثه عن قصة صالح، واكتفى به، فلم يعرض لقصة شعيب من هذا الجانب.

([3]) الزمخشري، المصدر نفسه، ج٣، ص٣١٨.

([4])الزمخشـــري، المصدر نفسه، ج٣، ص٣٢٢. وبنحوه قال: أبو حيان في البحر المحيط، ج٨، ص١٨٢و

وذكـــر البقاعـــي ما في المعنى من اختلاف، ثمّ رجّح في قصة صالح رأي ابن عباس، الذي اختاره الطبري من قبل، وذلك اعتمادا على قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَـــا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾الشعراء:١٥٤ " أي فما وجه خصوصيتك عنا بالرسالة، وهل يكون الرسول من البشر؟ "([1]).

وذكـــر الإســـكافي أربعة أقوال في معنى المُسَحَّرين، أولا: الذين لهم سحر ورويـــة، وثانـــيا: المعللـــون بالطعـــام والشـــراب، وثالثا: المسحورون، ورابعا: المخلوقون([2]).

والـــذي يـــبدو لـــي كما قال الزمخشري، أن الأولى في قوم صالح بمعنى البشـــرية، وفي قصة شعيب بمعنى السحر والبشرية وغير ذلك من الوجوه. وإنما ذهبـــت إلى ترجيح هذا الرأي على غيره، لأنّ قوله تعالى في قصة صالح:﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾الشعراء:١٥٤بدل من قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الشعراء:١٥٣، والبدل عين المبدل منه، أو على معنى التأكيد، حيث حُذفت الواو. وفـــي قصـــة شـــعيب ذكرت الواو فأفادت أن ما بعدها يختلف عمّا قبلها، فحملت (المسحّرين) دلالات متعددة أساسها المكر، والخديعة([3]).

وهنالك مُرَجِّحٌ آخر على أن دلالة(المسحّرين) في قصة شعيب أوسع منها فـــي قصـــة صـــالح، وهـــو الشدة والغلظة في حديث قوم شعيب له، وطلبهم لآية

ص١٨٧.

([1])البقاعـــي، المصدر نفسه، ج١٤، ص٧٧. وجمع البقاعي في قصة شعيب بين الرأيين، ولم يُرجّح أحدهما على الآخر.انظر البقاعي، المصدر نفسه، ص٨٩.

([2])الإسكافي، المصدر نفسه، ص٢٣٠-٢٣١.

([3])انظـــر فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها(علم المعاني)،ط٤، دار الفرقان، عمّان، ١٩٩٧م، ص١٢٨، و فضل عباس، الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، ع٤، ١٩٨٩م، ص٥٢٩. حيـــث رجّح في قصة صالح البشرية، وفي قصة شعيب البشرية والسحر معا، اعتمادا على الواو، وذكـــر مـــرجّحا تاريخيا آخر، وهو أن السحر لم يكن معروفا في القبائل العربية الأولى. ويبقى ذلك مُرجّحا خارجيا يحتاج إلى تَبَيُّن.

خاصـــة، ثـــم نعتُهم لنبيهم بالكذب، في خبر بعد خبر. وهذا غير موجود في قصة صالح([1]). فاقتضى ذلك أن تكون دلالة(المُستحَرين) في قصة شعيب أكثر إيغالا في الاتهام منها في قصة صالح.

ونقـــرأ فـــي كتب إعجاز القرآن، فلا نكاد نغادر مبحثا إلا وفيه من الأمثلة علـــى بلاغة المفردة القرآنية الشيء الكثير، حتى حار المرء في ذكر المثال خشية الـــتكرار، فالخطابـــي يُظهر لنا محاسن اختيار لفظة(فأكله) على افترسه، في قوله تعالى:﴿ فأكله الذئب﴾يوسف:١٧ وغيرها من المفردات([2]).

وبعيدا عن استقصاء الأمثلة التي ملأت كتب القدماء، ودراسات المحدثين، نجـــد أنفسنا أمام عدد من الأمثلة التي تلامس موضوع المتشابه، وتتنبه له، الأمر الذي يدعو لذكر بعضها، والتعليق على بعضها الآخر، وعلى جهود الباحثين الذين كتـــبوا في مثل هذه الموضوعات، ليقترب بذلك لموضوع الدراسة من نقد النقد، أو نقد بعض الدراسات التي تناولت المفردة القرآنية.

ففاضـــل الســـامرائي مـــثلا تخصص في مثل هذه المباحث، وصنّف فيها مجموعـــة مـــن الكتـــب مـــنها: (التعبـــير القرآنـــي) و(بلاغة الكلمة في التعبير القرآنـــي)و(لمســـات بيانية في نصوص من التنزيل). ولقد استطاع السامرائي أن يُخـــرِجَ للـــناس تُراثا طيّبا من المتشابه اللفظي، والنكات البيانية والنحوية، بعد أن كانـــت حبيسة الكتب القديمة. ولكنْ يُؤخذ عليه تقديم القاعدة النحوية –في كثير من الأحـــيان– علـــى السياق القرآني، ونقله آراء غيره من المفسرين، وأصحاب كتب المتشـــابه اللفظـــي، وعـــدم عزوها إلى مظانها في كثير من الأحيان، حتى يُخيَّل للباحـــث، فضلا عن عامة الناس أن ذلك من استنباطه، تماما كما كان الشعراوي

([1])انظـــر تأكـــيد ذلـــك من الإسكافي، المصدر نفسه، ص٢٣١، والكرماني، المصدر نفسه، ص١٣٣، وابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٨٩، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٢٢٣، والبقاعي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص٨٩.

([2])انظر الخطابي، المصدر نفسه، ص٤١ وما بعدها.

يفعـــل في تفسيره. غير أنّ في كتبه أمثلة تغني الباحثين ودراساتهم، وإن كانت في مجملها مبثوثة في كتب التفسير والمتشابه اللفظي.

ففي كتاب التعبير القرآني يُبيِّن لنا السامرائي أنّ العرب توقع الجمع تمييزا للقلـــة، وتوقـــع المفرد تمييزا للكثرة، فيقولون: ثلاثة رجال، فإذا زاد على العشرة وصـــار كـــثرة، جاؤوا بالمفرد، فيقولون: عشرون رجلا. وبهذا يحل إشكال تكرر الـــيوم(٣٦٥) مـــرة، وتكـــرر الأيام (٣٠) مرة([1]). ويتحدث عن البنية في التعبير القرآنـــي، معتمدا على دلالة الفعل، ودلالة الاسم، ثم استخدام الفعل بدون المصدر وغيره من الموضوعات.

ويذكر في الكتاب نفسه مجموعة من الأمثلة التي سأُعالج بعضها بعد قليل، وذلـــك مثل قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن تَمَسَّنَا النارُ إلّا أيّاماً مَعدودَةً ﴾ البقرة: ٨٠، وفـــي آل عمـــران: ﴿ ذلـــك بأنّهم قالوا لن تمسّنا النارُ إلّا أيّاماً **معدودات** ﴾ آل عمـــران: ٢٤([2]). ويقـــف أيضـــا مـــع قوله تعالى: ﴿ لقد أبلغتكُمْ **رسالةَ** ربّي﴾ الأعراف:٧٩، وقوله في آية أخرى: ﴿لقدْ أبلغتكُمْ **رسالاتِ** ربّي﴾الأعراف:٩٣(٣). ثـــمّ يفـــرق بيـــن قولـــه تعالى: ﴿ فأصبَحوا في **دارهم** جاثمينَ﴾الأعراف: ٧٨ و الأعراف٩١، وقوله تعالى: ﴿ فأصبحوا في **ديارِهم** جاثمينَ﴾ هود:٦٧ و هود٩٤ ([4]).

هـــذه الأمـــثلة، وغيرها من مثلها، سيجد القارئ بعد دراستها في المباحث القادمـــة أنّ الســـامرائي يُغْفِلُ أحيانا دلالاتها، ويكتفي بتبيان سبب مجيئها على هذا الـــنحو مـــن التعبير، فلا يزيد عمّا قاله السابقون إلّا قليلا، ومع ذلك فإنّ جهده في تقريب هذه المسائل إلى الناس طيِّب وواضح جدا.

([1])انظر فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ط٢، دار عمّار، عمّان، ٢٠٠٢م، ص١٢-١٣.

([2])فاضل السامرائي، المرجع نفسه، ص٤١-٤٢.

([3])فاضل السامرائي، المرجع نفسه، ص٤٥.

([4])فاضل السامرائي، المرجع نفسه، ص٤٧.

وتحـــدث فضل عباس عن الكلمة القرآنية، في جميع كتبه وبحوثه([1])، ولو أخذنا على سبيل المثال حديثه عنها في كتابه (إعجاز القرآن الكريم)([2])، نجده يُقدِّم للكلمة القرآنية بعبارات، لو أفردت كل واحدة منها بالتمثيل لصار المبحث مباحث، ثـــم يحدثـــنا عـــن قيمة الكلمة في العصور السابقة، إلى أن يقودنا إلى خصائص المفردة القرآنية، وما تعطيه من قيم ودلالات يصعب حصرها.

وفضـــل عـــباس يُـــنكِرُ الترادف في القرآن الكريم، ومن ثمَّ نجد له مبحثا بعـــنوان: دعـــوى الترادف في القرآن، يقف فيه على مجموعة من الأمثلة، ويُبيّن الفـــرق بيـــنها، وهـــو في ذلك لا يصدر عن هوى، إنما يستقري النص القرآني، ويعتمد السياق، ويُوظِّف ما لديه من أدوات نحوية وبيانية، حتى يطمئن إلى المعنى المُسْـــتَخْرَج. نجد ذلك في تفرقته بين قام، ووقف، وقعد في قوله تعالى: ﴿إذا أظلم علـــيهم قاموا﴾البقرة:٢٠، وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربِّهم﴾ و قوله تعـــالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾الصافات:٢٤، وقوله تعالى: ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾التوبة:٨٦ وقوله تعالى: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ الجن:٩ ، وقوله تعالى: ﴿والقواعد من النساء﴾النور٦٠ وغيره كثير.

ويجمع الآيات التي تتحدث عن الخوف، والآيات التي تتحدث عن الخشية، ويُفَرِّق بين المفردتين. وكذلك الحال مع (جاء و أتى) و (الفعل والعمل) و (القعود والجلـــوس) و (الإعطـــاء والإيـــتاء) و (السنة والعام) و (الشك والريب) و (اللوم والتثريب والتفنيد) وغيره.

ثـــم يســـير بـــنا بعد ذلك، إلى أن ينتهي إلى استعمال الألفاظ المختلفة في المواضـــع المتشابهة، وهذا من أقرب المباحث لموضوعنا، فيفرق فيه بين استخدام (الإلقاء) و (القذف) في سياق متشابه، وهو سياق الجهاد ومحاربة الأعداء. وكذلك

([1])إنّ مجمـــل مصنفات فضل عباس تتحدث عن المفردة القرآنية، ولكنه خصها وحدها في بحثين منفردين – واطلعت على بحث منهما، وهو: الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية.

([2])انظر فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص١٦٢-١٨٩.

الفرق بين(حادّ)و(شاق). وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب فرّق بين(الإغراء) و (الإلقـــاء)، وخـــتم فضل عباس بالفرق بين (الدثار) و(التزمل). وهي في مجملها أمـــثلة وثيقة الصلة بموضوعنا، وقد ذَكَرْتها من كتبه دون غيرها من الكتب، وإن كانـــت فـــي غـــيرها موجودة؛ نظرا لما فيها من معانٍ جديدة، لم يُسبق في كثير مـــنها([1])، وإلا فمـــا أكثر مَن درس الترادف، و المشترك اللفظي، والتضاد وغير ذلـــك مـــن لغة القرآن الكريم. وهذا لا يعني بالضرورة أن أحدا لم يأت بجديد في دراســـة المفردة القرآنية، وإنّما قصدتُ أن الإشارة إلى مباحث فضل عباس، تُغني عـــن الـــتكرار، وتصلح لأن تكون تمهيدا للحديث عن المتشابه اللفظي في المفردة القرآنية أكثر من غيرها.

ومـــع ذلك فإنّ الحديث عن الترادف لا يُمكن أن يُحسم في مثال أو مثالين، فهـــو يحـــتاج إلى دراسات مستقلة، وقد كانت، وعرض لآراء الفريقين: مَن يُنكر الـــترادف، ومَـــن يؤيده، و كان هدف الفريقين إثبات المزيّة، وليس الطعن في لغة القرآن. ومن ثمّ فإن ما يعنينا نحن في هذه الدراسة هو البحث عن سر التعبير بهذه الألفـــاظ، ســـواء أقـــيل هي من الترادف، أم نُفِيَ عنها ذلك، المهم ألاّ يكون القول بالترادف حائلا دون البحث عن سر التعبير بها ، أما أن ننعت الكلمات أو الأشياء

([1])ومـــن الدراســـات الجادة في هذا المضمار انظر: عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٣م. ولا يفوتني أيضا في هذا المقام أن أنبه إلى بعض دراسات المحدثين التي كان لها حضورها، وإن لم تُعنَ بالمتشابه اللفظي، مثل كتابات الرافعي، فقد تحدث عن الكلمة القرآنية، وضرب أمثلة تصلح أن تُعتمد في دراســـات عامة للمفردة القرآنية. انظر: الرافعي، تاريخ آداب العرب،ط٤، ٣م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م، ج٢، ص٢٣١. ودراســـات سيد قطب التي اهتمت بالكلمة من حيث جرسها، وتصويرها، وظلالها، وأولـــتها عـــناية كذلك من حيث الاتساق، وما بين بعض الكلمات من فروق خصوصا في المواضع التي يدق فيها الاختيار، ويخفى على الباحثين، مع ملاحظته-رحمه الله- لجمال الإيقاع، وجمال التنسيق، ودقة المعنى. انظـــر: ســـيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط٢، دار المعارف، القاهرة،١٩٥٦. وسيد قطب، في ظلال القـــرآن. وســـيد قطب، مشاهد القيامة،ط٢،دار المعارف، القاهرة،١٩٥٦. وصلاح الخالدي، نظرية التصوير الفنـــي عـــند سيد قطب، ط٢، دار المنارة، جدة،١٩٨٩. وكذلك ما كتبته عائشة عبد الرحمن، في تفرقتها بين بعـــض الكلمـــات التـــي قـــيل فيها بالترادف، وما عرضته من مسائل نافع بن الأزرق. انظر: بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن، ص٢١٠-٢٣٨، ص٢٨٩-٦٠٣.

دون البحث عن سبب الاستخدام فهذا غير مقبول في التحليل البياني([1]).

إن المفردة أصل الدقّة في التعبير القرآني، وذلك في اختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمـــات، فالمعـــرفة لها شأنها، والنكرة لا تقل عن ذلك، ومثله اختيار المفرد أو الجمع، وغيره من أنواع التصريفات، شرط أن يكون ذلك محكوما أو مُوَشَّحا بدقة المعـــنى، والوفـــاء بالقصد، إضافة إلى تحديد المدلول، حتى تُمسي المفردة كأنها خلقت لهذا الموضع دون غيره، فلا المكان يُريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغي عن منزلـــه حولا، كلمات قرآنية يراها كل واحد مقدَّرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته.

ولقـــد أوجـــف الـــبلغاء بركابهم، وجلبوا ما استطاعوا من خيلهم ورَجِلِهم، ولكـــنهم اعترفوا جميعا أنهم ما وقفوا على ساحل النص القرآني، ولم يغوصوا في لججـــه، وكتابُ الله كما قال ابن عطية في مقدمة تفسيره "لو نُزِعت منه لفظة، ثم أُديـــر لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"([2]). وقريب من هذا المعنى مـــا ذكـــره محمـــد عبد الله دراز: " ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصـــته كفّك من الكلمات عدّا، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجا عن الدفتيـــن، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك. ثم انظر: كم كلمةً تســـتطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة

---

(١) وعلى العموم يمكن أن يرجع القارئ إلى ما يلي: الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، (ت ٦٥١هـــ). الـــبرهان الكاشـــف عن إعجاز القرآن، ط١، (تحقيق خديجة الحديثي و أحمد مطلوب)، مطبعة العاني، بغداد،١٩٧٤م، ص٩٠ وما بعدها(الفصل التاسع من كتابه هذا وهو بعنوان: في بيان ألفاظ يتوهم أنها في معنى غيرها مع أنها متقاصرة عنها)، و فضل عباس، الكلمة القرآنية، ص٥٤٣-٥٥٧ فقد جمع في بحثه هـــذا كثـــيرا مـــن آراء العلماء القدماء والمحدثين، وناقش ذلك، وخلص إلى نفي الترادف من القرآن الكريم. وانظـــر أيضا: محمد نور الدين منجد، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١م. والأســـتاذ أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، ط١، دار المكتبي، دمشـــق، ١٩٩٤م. ومن الدراسات التي أثبتت الترادف في القرآن الكريم، وناقشت آراء المنكرين: كمال عبد الرحيم رشيد، الترادف في القرآن الكريم، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦(رسالة دكتوراه)، وثمة كتب أخرى.

(٢)ابن عطية، المحرر الوجيز،ج١، ص٦٠-٦١.

تســـتطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟"(١) ﴿كتاب أُحكمتْ آياتُهُ ثُمّ فُصّلت من لدُن حكيمٍ خبير﴾هود:٢.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ط١، دار المرابطين، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٤٢.

المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في التعريف والتنكير

يُعَـدُّ المتشابه اللفظي في التعريف والتنكير من المباحث الدقيقة التي تحتاج إلـى وقفات متأنّية؛ رجاء الكشف عن وجوه بلاغتها، وجمال أسرارها. فالتعريف فـي سياقه ذو بلاغة عالية، وكذلك التنكير في موطنه لا يقل شأوا عن نظيره، قال الزملكانـي: " قد يظن ظانٌّ أنّ المعرفة أجلى، فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أنّ الإبهام في مواطن خليق، وأنّ سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق، خصوصا في موارد الوعد والوعيد، والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد "([1]).

وقـد فصّل العلماء في التعريف القول تفصيلا، وتحدّثوا عن أقسامه، فقال الزملكانـي: " وأمّـا أقسـام المعرفة فخمسة، وأعرفها المضمر، ثم العلم، ثم اسم الإشـارة، والموصـول، ثـم المعرف بالألف واللام، ثم المضاف إلى واحد منها إضـافة معـنوية لا تحقيقـية. وكما تتفاوت المعارف في مراتب التعريف فكذلك النكرات في مراتب التنكير، وكلّما ازدادت النكرة عموما زادت إبهاما في الوضع "([2]). ثـمّ بيّـن الزملكاني حديثه وشرحه، ولكنّ هذا لا يعني بحال من الأحوال أن الزملكانـي وحـده الـذي عرض لهذا المبحث، فلعبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجـاز شرح مطوّل في حديثه عن التعريف والتنكير([3]). وللزمخشري من بعده نظـرات لا تقل في أهميتها عمّا في الدلائل، إلى غير ذلك من عناية الباحثين في هذا المجال([4]).

([1])الزملكاني، المصدر نفسه، ص١٣٦.

([2])الزملكاني، المصدر نفسه، ص١٣٣.

([3])انظر مثلا: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٧٧-٢٠١.

([4])انظر مثلا ما جمعه محمد أبو موسى في كتابه: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص٣٠٢-٣٢٣. ومـا ذكـره مشـهور مشـاهرة مـن مصادر ومراجع لمبحثي التعريف والتنكير، وذلك في كتابه: التناسب القرآني،ص٢٢٩.

ومـــن هـــذه الـــنظرات التمهـــيدية العامة، وانطلاقا من إيماننا بأن المفردة القرآنـــية في سياقها ذات مزايا خاصة لا تَفْتَرُّ عنها إلّا بعد جهدٍ صادق، واستقراء شـــامل لسياق الآيات التي وردت فيها، كان لا بد من تطبيق عملي يشهد لما أكّده العلماء من معانٍ جليلة، أُظهِرُ من خلاله ما للتعريف والتنكير في المتشابه اللفظي مـــن دلالات نحويـــة وبلاغية، في تأويلاتٍ وتوجيهاتٍ ذات سِماتٍ أشبه ما تكون باللطائف الأسلوبية، والنكات الذكية، التي تخفى أحيانا، وتدقّ أحياناً أخرى، لِتُسفِرَ بعد ذلك عن وجه دقيق من وجوه الإعجاز اللغوي أو النظمي للقرآن الكريم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الأول: (بغير الحق) و (بغير حق)

قـــال تعـــالى في سورة البقرة: ﴿ وإذْ قُلْتُم يا موسى لنْ نصْبِرَ على طعامٍ واحــدٍ فادعُ لنا ربَّكَ يُخرِجْ لنا ممَّا تُنبِتُ الأرضُ من بَقْلِها وقِثَّائِها وفومِها وعَدَسِها وبَصَـــلِها قـــالَ أتستَبْدِلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما ســـألتُم وضُـــرِبَتْ علـــيهِمُ الذِّلَّةُ والمسكَنَةُ وباؤوا بغضَبٍ منَ اللهِ ذلك بأنَّهم كانوا يكفُرونَ بآياتِ اللهِ **ويَقْتُلونَ النَّبيِّينَ بغيرِ الحقِّ** ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدون(٦١)﴾ الـــبقرة:٦١، فعـــرَّف (الحـــق) بالألف واللام في هذه السورة، وفي ثلاثة مواطـــن متشـــابهة مـــن سورة آل عمران، وموطن في سورة النساء وردت هذه الصيغة بالتنكير.

١- قال تعالى: ﴿ إنَّ الَّذينَ يكفُرُونَ بآياتِ اللَّه **ويقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغَيْرِ حَقٍّ** ويَقْـــتُلُونَ الَّذينَ يأمُرُونَ بالقِسْطِ منَ النَّاسِ فبَشِّرْهُم بعذابٍ أليمٍ﴾ آل عمران: ٢١.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

٢- وقـــال تعـــالى: ﴿ لـــنْ يَضُرُّوكم إلَّا أذى وإنْ يُقاتِلوكُم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنْصَـــرون(١١١)ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلَّةُ أينَ ما ثُقِفوا إلَّا بحبلٍ منَ اللهِ وحبلٍ منَ النَّاسِ وباؤوا بغضَبٍ من اللهِ وضُرِبَت عليهِمُ المسكَنَةُ ذلكَ بأنَّهم كانوا يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ **ويقـــتُلونَ الأنبـــياءَ بغـــيرِ حـــقٍّ** ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدون(١١٢)﴾ آل عمران:١١١-١١٢.

٣- وقـــال أيضـــا:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِـــيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ **وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١)ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(١٨٢)﴾ آل عمران:١٨١-١٨٢.

٤- وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّـهِ **وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء:١٥٥.

وللبحث عن سر التعريف والتنكير للفظة (الحق) في هذه الآيات المتشابهة أوردُ أولا ما قاله أصحاب كتب المتشابه اللفظي، والمفسرون، ومن ثمّ أُعقّبُ على آرائهم، وأحاولُ أن أمتحَ وجها من التأويل، فأرَجّحَه على غيره، وذلك بالاعتماد على استقراء الآيات، ودراسة السياقين العام والخاص، غير مُغفلٍ لما قاله العلماء الأجلاء في توجيهاتهم.

يكاد يُجمعُ أصحاب كتب المتشابه اللفظي، والمفسرون على أنّ سياق آية سورة البقرة، يختلف عن سياق الآيات الأربع الأخر. فالذي في سورة البقرة خبر عن قوم عُرفوا، وعرفت أفعالهم، ومضت أزمنتهم وأحوالهم، فلم يشهدوا دعوة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما أُخبرنا بكفر قسم كبير منهم، بعد تعريفهم بذكر آلاء الله ونعمه عليهم قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾الأعراف:١٦٢، فهي إذن في قدماء اليهود. والدليل على ذلك: الإخبار بالماضي في آخر الآية التي من سورة البقرة: ﴿ ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدون﴾ البقرة:٦١، وكذلك بدايتها التي هي إخبار عمّا حصل لهم زمن سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى:﴿ وإِذْ قُلْتُم يا موسى...﴾ البقرة:٦١، وما في الآية من مفردات أيضا تشهد بذلك.

والآيتان اللتان في آل عمران(١) خبر عن قوم عاصروا النبي صلى الله

(١) قصَرَ الإسكافي والغرناطي وابن جماعة موازنتهم بين آية البقرة، والآية الحادية والعشرين من سورة آل عمران والآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة آل عمران، ولم يعرضوا للآية الحادية والثمانين بعد المائة من السورة نفسها، ولا للآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورة النساء. أما الكرماني، وزكريا الانصاري فقد عرضا لآية البقرة، والآيات الثلاثة من سورة آل عمران، وآية سورة النساء، ولكنّ المشكلة أنهما لم يُوازنا بين سياق الآيات، ولم يعتمدا السياق اعتمادا مباشرا مثل سابقيهم.

عليه وسلم، وعاينوا الآيات، والبراهين، وعرَفوا أنّ ذلك هو الذي أخبر به موسى علـيه السلام، وعلى الرغم من كثرة الآيات وجلائها، إلّا انّهم أصرّوا على الكفر والعـناد، من بعد ما تبين لهم الحق، بدليل ما في آخر الآية الحادية والعشرين من سورة آل عمران:﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آل عمران:٢١، وقوله في مطلعها:﴿ إِنَّ الَّذِيـنَ يَكْفُـرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾آل عمران:٢١، وقوله في مطلع الآية الحادية عشـرة بعد المائة من السورة نفسها: ﴿ لنْ يَضُرُّوكُم إلّا أذى وإنْ يُقاتِلوكُم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرون﴾ آل عمران:١١١.

وبـناء علـى مـا تقـدم، فلفظة (الحق) في سورة البقرة تدل على جنس الحـق([1])، أو علـى الحق المعهود الذي أذِنَ الله أن تقتل به النفس: من قتل النفس المؤمـنة عمـدا، ومـن قـتل المرتد، وقتل المحصن، على الشروط والتفصيلات المعـروفة عند أهل الفقه والأصول. فقد كانوا يقتلون الأنبياء من غير أن يَقَعَ منهم مـا يوجب عليهم القتل في دينهم. ولكنّ هذا الفريق وإن وُصف بالكفر، والاعتداء، والمجاهـرة بالباطل وغيره، إلا أنهم كما يقول الغرناطي: ليسوا كحيي بن أخطب، وأشباهه من المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم.

والذي في سورة آل عمران إخبار عن قوم يعتقدون اعتقادا جازما بأنّ قَتْلَ الأنبـياء من أكبر الموبقات في معتقدهم ودينهم، ومع ذلك يقتلونهم بغير سبب ولا شبهة، وذلك أوغل في ذمهم، والتشنيع عليهم، والتوبيخ لهم على سوء حالهم؛ لأنّهم لا يمكـنهم في مرتكبهم تعلق بشيء البتة، ولا أدنى شبهة، فهم لم يكونوا مخطئين فـي الفهم، ولا متأولين للحكم، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم في كتبهم([2]).

([1]) انظر: الخفاجي، عناية القاضي، ج٢، ص٢٧٢، والألوسي، روح المعاني، ج١،ص٣٧٥-٣٧٦. فقد ذكر الخفاجـي أن الـتعريف فـي لفظة (الحق) إمّا للجنس، أي: بغير حقٍ أصلا، أو للعهد، أي: بغير الحق الذي عـندهم وفي معتقدهم. ورجّح الألوسي أن تكون اللام في (الحق) للجنس، إذ لام الجنس المبهم كالنكرة، فتفيد بذلك أنه لم يكن حقاً باعتقادهم أصلا.

([2])هـذا ملخـص ما جاء عند أصحاب كتب المتشابه اللفظي. انظر الإسكافي، المصدر نفسه، ص١٤-١٥،

وإنّ آيــة سورة البقرة حديث عن مسيرة قوم موسى عليه السلام، وما كان من أمرهم معه، إلى أنْ دعوا الله، رجاء أن يُخرج لهم مما تنبت الأرض: من بَقلها وقِــثّائها وفومهــا وعدَسِها وبصلِها. وقد استنكر نبي الله؛ موسى عليه السلام منهم هذا السؤال الخسيس، وما كان من اختلال أمرهم، وانقلاب أحوالهم، إيثارا للعاجلة علــى الآجلــة. إلــى أن نزلوا مصرا، فكانت عاقبة عصيانهم لله، وكفرهم بآياته، وتجرؤهم على أنبيائه، وتجاوزهم لحدوده أنْ غَضِبَ اللهُ عليهم.

ومــنه يُفهَــم: أنّ هــذه الآية إخبار عن مشهد من مشاهد قوم موسى عليه السلام مع نبيِّهم، تنبيها وتحذيرا للأمة المحمدية من اتباع سنن أهل الكتاب، وإيثار الدنيا على الآخرة.

وقــد جــاءت لفظة (الحق) معرفة بالألف واللام في سياق التعقيب على هذا المشــهد - ﴿ **وَيَقْــتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ البقرة: ٦١. والذي يبدو لي أنّ سياق هذه الآية ليس فيه إعلان حرب، وتبرؤ من أهل الكتاب، إنّما هو حديث عن طائفــة مخصوصة، اعتدت فلزمها غضب الله عز وجل. وقد استمرّت الآيات بعد ذلك تنبئ عن تتمة مسيرة القوم مع نبيهم عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى أنّ قبل هــذه الآيــة كــان موســى عليه السلام يستسقي لقومه، ويُحَذِّرُهم من الإفساد في الأرض.

والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٢١٤-٢١٧، وابن جماعة، كشف المعاني، ص١٠٥-١٠٦. والكرماني، المصدر نفسه، ص٢١، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٢٦.

ومــن المفسرين انظر: الزمخشري، المصدر نفسه، ج١، ١٤٨، و الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥٣٤-٥٣٥، و أبا حيان، البحر المحيط، ج١، ص٣٨٢، و البقاعي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٢١، وج٥، ص٣٠، و أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج١، ص١٤١، وج٢، ص١٩، والخفاجي، عناية القاضي، ج٢، ص٢٧٢، والألوســي، روح المعانــي، ج١،ص٣٧٥-٣٧٦، و محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣٣٣، و ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤، ص٧٥.

وخلاصة القول أنّ الله عز وجل يُوبِّخ هذه الطائفة من بني إسرائيل، ويُشَنِّعُ عليهم قلبهم للأمور، وعدم طاعتهم لأنبيائهم، فموسى عليه السلام يُحَذِّرهم من الإفساد قبل وقوعه، ولكنّهم بدلا من تجنُّبه يختارونه على غيره. وأنبياؤهم عموما ينصحونهم، ويدعونهم إلى ما فيه نفعُهم، فيقتلونهم.

وفي التوبيخ لهم، وبيان سبب غضب الله عليهم يكشف لنا الله سبحانه وتعالى أنّ النفس المؤمنة لا يجوز قتلها إلا إذا وقع منها ما يوجب قتلها، على النحو الذي بيّنه الحق سبحانه وتعالى في كتابه وسنّة نبيّه، وهؤلاء النبيون لم يقع منهم ما يوجب القتل المعهود، ولا جنس القتل أصلا، وهم فضلا عن ذلك أنبياء معصومون من الخطأ.

ومثاله–ولله المثل الأعلى– أن جهةً ما سنّت قوانين ملزمة للعمل، وأوجبت على من يُخالفها عقابا حسب درجة مخالفته، فكان من قوانينها: أنّ تقصير الموظَّف في ما يوكل إليه من عمل يوجبُ الإنذار أولا، فإن تكرر منه ذلك خُصِمَ جزءٌ من راتبه، وفي الثالثة يُسَرَّحُ من عمله. ففوجئ أحد العاملين صباح يوم بتسريحه من العمل، دون أن يقع منه ما يوجب ذلك. فلمّا وصلت القضية إلى المحكمة حكَمَ له القاضي، وقال لصاحب العمل مُوَبِّخا: لقد حكمت عليك بما يلي؛ لكثرة مخالفاتك مع العمال وعدم احترامهم، ولأنّك لم تفصل هذا العامل بالحق. فكان حريّاً بك عند تقصيره في عمله أن تُنذِرَهُ أوّلا، وفي الثانية تخصم من راتبة، وفي الثالثة تفصله، فأنت مدينٌ بأمرين: الأول: أنّك فصلته بغير ذنب يوجب عقابا، والأمر الآخر أنّك لم تتبع القوانين المنصوص عليها في تسريح العمال. فقول القاضي لصاحب العمل: كان حريّاً بك أن تتبع القوانين المنصوص عليها في تسريح العمّال لا يعني أنّ هذا العامل المُشتَكِي قد فعلَ فعلا يوجبُ ذلك، وإنّما الكلام من باب التوبيخ والتشنيع، فالعامل لم يفعل فعلا يوجب الإنذار، أو الخصم من الراتب فضلا عن التسريح.

ويخـــتلف السياق في آيات سورة آل عمران؛ فالله سبحانه وتعالى يُقرِّر أنّ الديــن الحق الذي يجب اتباعه هو الدين الإسلامي﴿إنّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ﴾آل عمران:١٩، ثُمّ يُبَيِّن لنا: أنّ مَن بُشِّرَ بعذابٍ أليم فقد حَبِطَ عمله في الدنيا والآخرة، وما له من نصير. وبما أنّه سبحانه وتعالى أخبر عن عظم الجزاء﴿فبشِّرهم بعذاب أليم﴾ كان لا بدّ من تعظيم الذنب الموجب لذلك، فنكّر الحق ﴿ **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَـيْرِ حَقٍّ**﴾ آل عمران:٢١ في دلالة على أنّ فعل القتلِ الصادر منهم في حقّ النبييـــن إنّما هو قتلٌ مع اعتقاد جازم ببطلانه، فليس فيه أدنى شُبهةٍ من القتل الحق المعهـــود، وذلـــك أبلغ في الذم والتشديد، خصوصا أنّ السياق سياق وعيدٍ وتهديد، ومقامُ تنصيصٍ على قانونٍ ربّاني.

وأمّـــا آية سورة آل عمران﴿ **ويقتُلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ**﴾آل عمران: ١١٢ فهـــي إعلام من الله عز وجل إلى المؤمنين؛ توطئة لهم وتمهيدا قبل الحديث عـــن آيـــات غزوة أحد. ففي الآية تذكير للمؤمنين بحقيقة اليهود والنصارى، حيث ضـــرب الله علـــيهم الذلة أينما ثُقفوا، وكذلك الغضب، والمسكنة. ولمّا كان السياق حديـــثا عن حقيقة هؤلاء القوم – وليس عن صنف أو طائفة في عصر النبي صلى الله علـــيه وسلم، كما قال بعض أصحاب كتب المتشابه اللفظي والمفسرون – فقد نكّـــر لفظة (الحق) مبالغة في ذمّهم، وإيذانا بانّ ما ضربه الله عليهم إنّما هو جزاء أفعـــالٍ باطلة توجب تمامَ الذم، وليس فيها شبهة ولا تأويل. وفي هذا التنكير أيضا: طمأنـــة للمؤمنيـــن، وبشـــرى؛ فمـــن كانـــت هذه أفعاله، وضرب الله عليه الذلة، والغضب، والمسكنة لا بُدّ سيندرج اسمه تحت ظلال هذه البشرى: ﴿ لنْ يَضرُّوكُم إلّا أذى وإنْ يُقاتلوكُم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرون ﴾آل عمران:١١١.

ولمّـــا كانت مِلّةُ الكفر واحدة، وكان من يرتضي فعلا، ويتّخذه سنّة ومنهاجا كأنّمـــا هـــو مشارك فيه، فقد أخبرت الآياتُ عن فريق من اليهود كانوا على عهد النبـــي محمد – صلى الله عليه وسلم – يقولون على الله غير الحق، وكانوا مُقلّدين

راضين بفعل أسلافهم(١). ولذلك جاءت لفظة(الحق)نكرة، في دلالة أيضا على أنّ تقليد الفاعل، والرضى بمثل القيام به في الذنب سواء. وأيضا لمّا تقدّم ذلك ذنب عظيم، وهو قولهم: ﴿إنّ الله فقير ونحن أغنياء﴾ اقتضى العطف فعلا عظيما مثل عظم قولهم على الله، فقال تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾آل عمران:١٨١.

وفي الآية الخامسة والخمسون بعد المائة من سورة النساء ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ﴾ النساء: ١٥٥ تعداد للأسباب التي أوجبت غضب الله على بني إسرائيل، ومنها: قتلهم الأنبياء بغير حق، فالتنكير للتعميم الموجب للغضب.

إنّ المُتَتَبّع لما ذكرته آنفا لا يخفى عليه أنّ سياق آيات آل عمران، وآية النساء كان أكثر شدة في التوبيخ والتشنيع على بني إسرائيل من سياق آية البقرة، وقد جاءت لفظة (الحق) متناغمة مع ذلك؛ فعُرّفت بالألف واللام في مقام التحذير من كفران نعم الله عز وجل، وعدم الصبر على أوامره، وفي سياق التخصيص والتعقيب على طائفة كان هذا حالها، وليس وصفا عامّا لبني إسرائيل، وكأنّه كان عندهم شيء من الحق لم يذهب بعد(٢). وجُرّدت هذه اللفظة من الألف واللام في سياق التعميم والتعريض الشاملين، وفي مقام التقرير، والكشف عن خبايا النفوس وحقيقتها، مع تجانس تام مع العقاب الذي أخبر الله عنه في كلّ آية وردت فيها هذه اللفظة. إضافة إلى الإشارة بأنّه لم يبق عندهم أي جنس للحق، فقد بدّلوا وحرّفوا كل ما لديهم.

---

(١)انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج٤، ص٢٤٢. وقال أبو السعود: "وإسناد الفعل إليهم مع أنه من فعل أسلافهم لرضاهم به، كما أن التحريف من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم "أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢، ص١٩.

(٢)فقد تحدث عن التعريف والتنكير، فكان من جملة المعاني التي قالها: أمّا التعريف فهو ضد التنكير، وهو الإفراد، وهو التخصيص بعد التعميم، وإن شئت فهو تحديد الشيء بين المتكلم والسامع، حتى يدور الكلام حوله، هذا يتحدث عنه، وذاك يفكر فيه، وهو نفسه يفرض نفسه على المتكلم والمخاطب. انظر: منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص٥٤

وفي تنكير لفظة(الحق) كذلك إبهامٌ ذو دلالة على تفخيم جُرمِهم؛ فهم يقتلون الأنبـــياء بغـــير وجـــه حق، أو نوع من أنواعه، وفي ذلك تصوير لنفوسهم حين الشروع بالقتل. ومن ثمّ فالتنكير أبلغ في الذم والتشنيع من التعريف، وهذا عين ما أوردته عن الزملكاني في مطلع المبحث.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الثاني:(بلدا)و(البلد)

ومـــن الآيـــات التـــي شاع ذكرها في التعريف والتنكير، وعُدَّت من باب المتشـــابه اللفظي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا **بَلَداً** آمناً﴾ البقرة: ١٢٦، وفي سورة إبراهيم: ﴿ وإذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّ اجْعلْ هذا **البلدَ** آمِناً ﴾ إبراهيم: ٣٥.

فمـــا هي عِلَّةُ ورود التنكير في سورة البقرة، والتعريف في سورة إبراهيم، علمـــاً بأنّ آية سورة إبراهيم مُتَقَدِّمة في النزول على آية سورة البقرة، وإن كانت سورة البقرة متقدمة حسب ترتيب المصحف.

إنّ حلَّ هذا الإشكال، أو جواب هذا السؤال يحتاج إلى عرض آراء العلماء عرضا سائغا، أجمع فيه النظير إلى النظير مما قاله أصحاب كتب المتشابه اللفظي والمفســـرون الذين كان لهم وقفة عند هاتين الآيتين، ومن ثمَّ التعليق والترجيح، أو مُحاولة استنباط وجه وجيه يُغني عن التوجيه، فأرجحه على غيره.

رجعت إلى كتب المتشابه اللفظي، وكتب التفسير، ولكنّي لم أجد جوابا لحل هـــذا الإشـــكال، بل وجدت أجوبة متعددة؛ أحيانا تتشابه، وأحيانا تختلف. ولم يكن ضـــمّ الشبيه إلى الشبيه سهلا، ولا التوجيهات دائما واضحة، فجهدت في المقاربة والتوضـــيح، حـــتى خلصت إلى جملة من الأقوال، بعضها قريب مقبول، وبعضها الآخر بعيد، ولكنّه محتمل.

أولا: إن سُـــكْنَى هاجر وإسماعيل-عليهما السلام-كانت في واد قفر، بلقع، خـــالٍ، غـــير ذي زرع، واد يفـــتقر إلى مقوّمات العيش، قال تعالى: ﴿ رَبَّنا إنّي أسْـــكَنْتُ مـــنْ ذُرِّيَّتي بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المُحَرَّمِ ﴾ إبراهيم: ٣٧. فكأنّ ســـيدنا إبراهيم عليه السلام دعا ربَّه أن يجعل هذا الوادي الخَرِب من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون. فاستجاب الله جزءا من دعائه؛ وجعل له الوادي بلدا،

وتأخر الأمن إلى وقته المقدّر لحكمة ربّانية، يبدو أن منها الامتنان الموجب للشكر، حيث إنّ البلدية نعمة جسيمة كما الأمن، مما اقتضى الفصل بين الاستجابتين. ثمّ دعا مرّة أخرى أن يجعل الله هذا المكان الذي صيَّرَهُ بلدا، ذا أمن على من أوى إليه. وعليه فقد سأل في دعائه الأول: البلدية والأمن معها، وذلك قبل استقرار الوادي بلدا، حيث وضع ابنه مع أمّه وهي خالية عن ساكن، فاستجاب الله له بأن جعله بلدا يسكن الناس فيه، فَمُصِّرت مكّة، وصارت مدينة. إلا أن السكن يحتاج إلى الأمن، وزوال الخوف، فدعا الله في الآية الثانية أن يجعله آمناً، بحيث تسكن النفس إليه، خاليا من كل ضرر، وذلك لتحقق البلدية في الدعاء الأول([1]).

ومثال ذلك كما جاء عند الشهاب الخفاجي-ولله المثل الأعلى- " أنك إذا قلت: اجعل هذا خاتما حسنا، فقد أشرتَ إلى المادة طالبا أن يُسبَكَ منها خاتم حسن. وإذا قلت: اجعل هذا الخاتم حسنا فقد قصدت الحسن دون الخاتمية، وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني، لأنه بمنزلة الخبر "([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانيا: أن تكون الدعوتان سواء، وذلك بعد ما صار المكان بلدا، ومن ثمَّ فإنّ دعاءه في الآيتين هو طلب الأمن فقط. وتوجيه ذلك: أن آية التنكير؛ آية البقرة يحتمل أن يكون قبلها معرفة محذوفة أي: اجعل هذا البلد بلدا آمنا، فهو لم يطلب أن يكون البلد بلدا، فذلك ليس إليه، إنّما طلب أن يجعله بهذه الصفة، ومثاله قولنا:

([1])**انظر من أصحاب كتب المتشابه اللفظي:** الإسكافي، المصدر نفسه، ص٢٣، و الكرماني، المصدر نفسه، ص٢٤٣، و الغرناطي، ج١، ص٢٣٥ إلا أنه ضعّف هذا الرأي فقال: " وهو عندي بعيد، إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي، وهو بعد ممكن والله أعلم" ، و ابن جماعة، كشف المعاني، ص١١١، و زكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٣١.

ومن المفسرين انظر: الزمخشري، ج٢، ص٥٣٦، و الرازي، التفسير الكبير، مج٧، ص١٠٠، و أبا حيان، البحر المحيط، ج١، ص٦١٢ و ج٦، ص٤٤٤، و البقاعي، المصدر نفسه،ج٢، ص١٥٥ و ج١٠، ص٤٢٤، وأبا السعود، ج٣، ص٤٩١-٤٩٢. والشهاب الخفاجي، عناية القاضي، ج٥، ص٤٧٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٩١-٦٩٢ و ج١٣،ص٢٣٨، و الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٣٩٣.

([2])الشهاب الخفاجي، عناية القاضي، ج٥، ص٤٧٣.

كـــن رجـــلا سَخِيّاً، فليس من المعقول أن نأمره أن يكون رجلا، إنّما نريد الصفة، ومـــثاله عـــند الإسكافي كأن تقول: " كان اليومُ يوماً حاراً، فتجعل يوما خبر كان، وحـــاراً صـــفة له. ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوما؛ لأنه يصير خبرا غـــير مفـــيد، وإنّما القصد أن تخبر عن اليوم بالحر، فكان الأصل أن تقول: كان اليوم حارّاً، وأعدت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والموصوف، فكأنّك قلت: كان هذا الـــيوم مـــن الأيام الحارّة "([1]). فالقصد إلى الصفة دون الموصوف، ويكون الحق تبارك وتعالى قد أخبر عن هذه الدعوة في موضعين.

والـــذي يبدو لي: أنّ الله تبارك وتعالى يقصد الصفة والموصوف معا، فمن المحـــال أن تُذكـــر اللفظـــة في كتاب الله لمجرد التوطئة والتمهيد. فإنّ لذكر البلد بالتنكـــير دوراً -سيتّضـــح لاحقـــا-لا يقـــلّ عن وظيفة الصفة التي رأى أصحاب التوجيه السابق أنّها المرادة في الآية الكريمة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

وهـــنالك وجه آخر ذكره أبو حيان، وهو مؤسّس على الفكرة نفسها؛ أي أنّ الدعوتيـــن ســـواء، ولكنّ، على ألّا يكون في آية سورة البقرة شيء محذوف، وألّا يكـــون إذ ذاك بلـــدا أصلا، فدعا الله أن يجعل هذا المكان -يعني الوادي غير ذي الـــزرع- بلدا. وفي آية سورة إبراهيم تكون المعرفة في قوله(هذا البلد) باعتبار ما سيؤول إليه([2]).

ثالثا: أورد الإسكافي رأيا ثالثا بلفظ (فأما قول من يقول)، ومفاد هذا الرأي: أنّ (بلدا) في سورة البقرة جاءت نكرة على الأصل، فلمّا أُعيدت في سورة إبراهيم أُعـــيدت بلفـــظ المعرفة، كما في قولنا: رأيت رجلا، فأكرمت الرجل. ولم يرتضِ

([1])الإســـكافي، المصدر نفسه، ص٢٣(وهو رأي ثانٍ للإسكافي سوى الرأي الأول، ويبدو أن الإسكافي يُرَجّح الرأي الأول فقد أجاب فيه مباشرة، ولكن في الثاني كان متردّدا، وقد استخدم ألفاظا ليس فيها حسم). وانظر: الكرمانـــي، المصدر نفسه، ص٢٤ ، وأبا حيان، البحر المحيط، ج١،ص٦١٢، وقد ورد عن الكرماني وأبي حيان بصيغة التضعيف(قيل) وهو رأي آخر لهما سوى ما تقدم.

([2])انظر: أبا حيان، البحر المحيط، ج١، ص٦١٢.

الإســكافي هــذا الــرأي وقال: ليس المثال المذكور كالذي نحن بصدده، ولا هذا المكان مكانه([١]).

رابعا: تفرّد الغرناطي برأي لم يذكره أحد ممن جاء بعده، ولا ذُكر من قبل، وهــو رأي فــيه تكلُّف وبُعْدٌ، هذا فضلا عن أنّ القول بالإيجاز أو غيره من هذه الأقــاويل دون الكشــف عن سر التعبير القرآني، لا يُعَدُّ من التحليل البلاغي في شــيء، وسأحاول شرح ما ذكَر، وتوضيحه، فإنّ تعبيراته في هذا المقام فيها لبس، ولذلك لم يفهم مُحقّق الكتاب عبارة الغرناطي.

قال الغرناطي: " فتعريف البيت تعريف للبلد، فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلــى التابع المبين جنسه كالجاري في أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدّمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب بلدا مفعولا ثانيا وآمنا نعتا له، واسم الإشارة مفعولا أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه"([٢]).

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعلّــق محقق الكتاب؛ سعيد الفلاح مرتين على قول الغرناطي(التابع المبين جنسه) في الحاشية السادسة: وهو خطأ لا يستقيم به المعنى، وفي الحاشية السابعة قال: وهو خطأ مخل بالمعنى المراد([٣]). وليس الأمر كما ذكر، والذي يبدو لي أنه فهــم مــن قول الغرناطي(التابع المبين جنسه) غير ما أراد الغرناطي، فحسب أن الغرناطي يريد أن يستغني عن الصفة(آمنا) في الآية الكريمة، بحيث لا تكون نعتا للــبلد. والحق أن الغرناطي لم يقل ذلك أبدا، وإنّما قصد بعبارته عطف البيان على ما وضحت في الشرح.

([١])انظــر الإسكافي، المصدر نفسه، ص٢٤. والكرماني، المصدر نفسه، ص٢٤(وقد أشار إليه إشارة بصيغة قيل).وبالجملة: فإنّ ما جاء عند الكرماني إنّما هو اختصار لما أورد الإسكافي، وتصرُّف في عباراته.

(٢) الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٢٣٤ .

(٣) انظر حاشية محقق ملاك التأويل، ج١، ص٢٣٤ .

وخلاصة رأي الغرناطي في هذه المسألة يقوم على الإيجاز. وتفصيل ذلك: أن الحق تبارك وتعالى عرَّف البلد في سورة البقرة، قبل الآية التي نحن بصدد الحديث عنها مرتين بطريق اللزوم([1]) فقال: ﴿ وإذْ جَعَلْنا **البيتَ** مَثابَةً للنّاسِ وأمْناً ﴾ البقرة: ١٢٥، وقال أيضا: ﴿ وعَهِدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرا **بيتِيَ** للطائفينَ والعاكِفينَ والرُّكَّعِ السجودِ﴾ البقرة: ١٢٥، فتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد، ومن ثمَّ لو عرَّف الحق تبارك وتعالى لفظ بلد بالألف واللام في سورة البقرة، لأصبح ذلك من التكرار الذي لا طائل تحته لما تقدّم. ومنه يُفهَم أن اسم الإشارة(هذا) في آية سورة البقرة غير مفتقر إلى التابع المُبَيِّن جنسه، بمعنى لا يحتاج إلى عطف البيان على قول سيبويه، أو النعت على قول أبي العباس المبرِّد، يعني لا يلزم أن يذكر الحق تبارك وتعالى لفظ(بلد) بالألف واللام بعد اسم الإشارة؛ لأن ما تقدَّم من تعريف البيت اللازم منه تعريف البلد يُغني عن إعادتها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي آية سورة إبراهيم لم يتقدّم اسم الإشارة ما يُعرِّف البلد، كالذي كان في سورة البقرة، فلم يقم شيء مقام التابع؛ أعني (البلد)، فكان لا بد من أن يكون البلد مُعَرَّفا بالألف واللام، على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد، وفي الغالب عطف بيان على قول سيبويه، أو نعت على قول أبي العباس المُبَرِّد، أو بدل على الشائع في هذه المسألة([2]).

([1])المقصود بطريق اللزوم: أن تعريف البيت تعريف للبلد بالضرورة.

([2])انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥. وذكر الغرناطي أنّ ما بعد اسم الإشارة، إن كان مُعَرَّفا بأل، فهو عطف بيان على رأي الخليل، ونعت على الظاهر من كلام سيبويه. والصحيح أنه نعت على قول أبي العباس المبرّد، وعطف بيان على قول سيبويه. قال المبرّد في (باب المعرفة والنكرة): " وما كان من المبهمة(هذا، ذاك، تلك، أولئك، هؤلاء)فبابه أن يُنعتَ بالأسماء التي فيها الألف واللام، ثم بالنعوت التي فيها الألف واللام إذا جعلتها كالأسماء "المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت٢٨٥هـ). المقتضب، ط٢، ٣م، (تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٩م، ج٤، ص٢٨٢، وقال في (باب ما كان من الأسماء نعتا للمبهمة): " وذلك ما كان من الأسماء فيه الألف واللام تقول: هذا الرجل مقبل من خمسة أوجه، فأربعة مثل الذي ذكرت في زيد ونحوه، والوجه الخامس أن تجعل الاسم نعتا للمبهم، فتقول: هذا الرجل زيدٌ، تجعل الرجل نعتا، فيكون بمنزلة: هذا زيد، كما تقول: زيد الطويل قائم "المبرد، المصدر نفسه، ج٤، ص٣٢٢. وبهذا يكون المبرد قد خالف سيبويه في هذه المسألة.انظر:سيبويه، الكتاب، ج٢، ص٨.

وصحيح أنّ الغرناطي تفرّد بهذا، ولكنّي لمست معنى كلامه في الرأي الأخير من آراء أبي السعود، في توجيهه لهاتين الآيتين؛ فهو يرى احتمال أن يكون السؤال في الآيتين واحدا؛ البلدية والأمن معا، وقد كان ذلك في سورة البقرة، أمّا في سورة إبراهيم، فقد اقتصر على حكاية سؤال الأمن، لا لمجرد أن نعمة الأمن أدخل في استيجاب الشكر - فذكره الشكر على الأمن، أنسب بمقام تقريع الكفرة من إغفاله - بل لأن سؤال البلدية قد حُكي في سورة إبراهيم بقوله تعالى: ﴿ فاجْعَلْ أفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوي إليهم وارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَراتِ لعلَّهُم يَشْكُرونَ﴾ إبراهيم: ٣٧، فقد سأل الله عز وجل أن يهويَ الناس إليهم للسكن معهم، لا للحج فقط، وهذا هو عين سؤال البلدية، ولكنّه حُكِيَ بعبارة أُخرى، وكان ذلك أول ما قدم إبراهيم عليه السلام مكة. وإنّما فصل ما بينهما؛ أعني بين سؤال الأمن والبلدية في سورة إبراهيم تثنية للامتنان، وإيذانا بأنّ كلّاً منهما- البلدية والأمن- نعمة جليلة تستحق أعلا درجات الشكر(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

خامسا: وقف أبو السعود مع هاتين الآيتين وقفة مطوّلة، وأورد جملة من الأجوبة، تقابلت في مجملها مع ما تقدّم، فضمّنتها من قبل وأخواتها، ولكنّه انفرد بآراء حقّها أن تكون مستقلة، قائمة بذاتها؛ ليعلمَ أنّ في تفسيره بلاغة تحليلية عالية، ما زالت تنتظر مَن يفهمها، ومن ثمّ يجمعها خدمة للعلم وأهله، وليميز الباحثون كلام الآخرين من كلامه.

يرى أبو السعود احتمال أن يكون المسؤول في آية سورة البقرة هو مجرد الأمن المُصَحِّحُ للسكن كما في سائر البلاد، وقد أُجيبَ إليه، فصار المكان مُهَيَّأ، ومناسبا للبناء والسكن. وفي آية سورة إبراهيم طلب شيئا آخر، وهو الأمن المعهود، أي الأمن الذي به تستمر الحياة، وتطمئن النفوس. فقد فهم أبو السعود من التعريف والتنكير، أنّ الأمن الذي في آية البقرة، ليس عينه الذي في آية سورة إبراهيم.

وانظر أيضا: الإسكافي، درة التنزيل، ص٢٣.

(١)انظر أبا لسعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص٤٩١-٤٩٢.

ويُحتمل أيضا عنده: أن يكون الأمن بكل معناه مسؤولا في الآيتين، وقد أُجيب إليه، ولكنّ الدعاء في آية سورة إبراهيم كان من أجل الاستدامة لهذه النعمة العظيمة، وهي نعمة الأمن، وما أدراك ما نعمة الأمن. وهي عند أبي السعود المقصود الرئيسي في الآيتين، أو لأنّ المعتاد عند الناس استمرار البلدية بعد التحقق من تكوينها، بخلاف الأمن، فهو عُرضة للزوال في كل حين؛ ولذلك كان الدعاء في سورة إبراهيم لاستمراره وديمومته([1]).

سادسا: ويبقى النص القرآني رحب المدى، سخيّ المورد، كلّما جاءه المخلصون مَتَحوا منه ما يفتح الله عليهم. فهذا الألوسي يقف وقفة متأنّية مع الآيتين من سورة البقرة، وسورة إبراهيم، ويعرض آراء السابقين، ويضيف إلى جهودهم احتمالات أخرى يرى أنّها ممكنة. فقد يكون سيدنا إبراهيم عليه السلام قد سأل في أحد الموضعين الأمن في الدنيا، والآخر أمن الآخرة. وهو عندي توجيه بعيد، فليس له ما يعضُده، تماما مثل رأيه الآخر الذي قال فيه: باحتمال صدور الدعاء الثاني، قبل استجابة الدعاء الأول. أو أن الدعاء الثاني كان لإزالة خوف عرض كما يعتري البلاد الآمنة أحيانا، وهذا الاحتمال الأخير، قريب مما قاله السابقون([2]).

إنّ كلّ ما تقدّم من آراء، إن لم تكن وجيهة، فهي محتملة، ولذلك لا يملك الباحث معها أكثر من التعليق، وإبداء الرأي، إن كان هناك ما يستدعي التعقيب. فلقد دعا إبراهيم عليه السلام ربّه في سورة البقرة، أن يجعل له هذا المكان المشار إليه بلدا مثل جملة البلاد الآمنة، لكي يتحقّق له السكن وأهله فيها، ومن ثمّ يكون المكان قد تهيأ للعبادة.

([1])انظر أبا لسعود، إرشاد العقل السليم، ج٣ ، ص٤٩١-٤٩٢. وقد شرحت آراءه، وحاولت أن يكون ذلك بعبارة سلسة، و قريبة من القارئ .

([2])انظر الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٣٩٣.

وفـــي ســـورة إبراهيم عليه السلام يأتي الدعاء في سياق الإلزامات الكثيرة التـــي تـــنعى علـــى أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وتسير الآيات مُتَوَجِّهة إلى شكر الله عز وجل على هذه النعم([1]).

وأمّـــا دخـــول الألف واللام على كلمة(البلد) فقد أكسبها معاني لم تكن حين كـــان التنكـــير؛ ففي التعريف دلالة على عظيم النعمة المتحققة، فلم يجعله الله بلدا كأيّ بلد، بل كان البلد التام المستوفي لجميع عناصر البلدية والسكنى، وهو المتميّز بتعريفه على كلّ البلاد([2])، حيث لم ترد هذه الصيغة في كتاب الله عز وجل إلّا في معرض المدح والتعظيم، قال تعالى:﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ الأعـــراف:٥٨، وقال في سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(١)وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْـــبَلَدِ(٢))الـــبلد:١-٢، وفي سورة التين: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١)وَطُورِ سِينِينَ(٢)وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(٣)لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾ التين:١-٤.

إنّ تعريف البلد أفاد بأنّ إبراهيم -عليه السلام- كان يتطلّع من وراء دعائه الأول إلى تأسيس مكان صالح للسكنى، ومن ثمّ عبادة الله وحده لا شريك له، لكي يجتنـــب الـــناس عـــبادة الأصنام التي كان له معها شأن معروف. والذي أراه أنّ الدعـــوة ليســـت واحـــدة، فهو في سورة البقرة دعا لمقصدٍ أن يكون المكان الذي اخـــتاره آمـــنا بحيـــث يصلح للسكنى. ولمّا تحقّق له ذلك دعا الله أن يجعل له هذا المكـــان الذي مُصِّر آمنا للعبادة، لأنّه صار بلدا فخما مستوفيا كل الشروط، يتطلّع الـــناس إليه طمعا وحسدا، فدعا الله أن يحرسه بنعمة الأمن. فأمن العبادة غير أمن الإنشاء والتأسيس، وعليه فالأمن في الموطنين مختلف اختلاف السؤال والبلد .

وعـــندي احـــتمال آخر قريب مما تقدّم من آراء العلماء السابقين الأجلّاء، ولكنّه مبني على إخبار من الله عن قصة إبراهيم عليه السلام، ففي سورة البقرة لم

([1])انظر الحديث عن سياق الآيات من: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص٣٠٤.

([2])وفـــي دلالة التعريف بالألف واللام على الكمال والتمام، يقول الزملكاني: " قد تحذف الصفة ويكون ثبوت مقصودها أتمّ كما في قولك: أنت الرجل، أي: الكامل في الرجولية ".الزملكاني، المصدر نفسه، ص١٤٥.

يكـــن بلـــدا، وكان الدعاء، وفي سورة إبراهيم: اذكر يا محمد أنت وقومك إذ دعا إبراهيم ربّه أن يجعل هذا البلد آمنا، وعرّف لأن الدعوة قد تحقّقت، والمكان أصبح معرفة عامّة بحيث لا يجهله أحد، هذا فضلا عن تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لـــه، هو وقومه، وكذلك نزولهم فيه، فهو إخبار عن أمر أصبح معيّنا، إضافة إلى أنّ المقام مقام شكر على نعم الله عز وجل، فكان لا بد من ذكر تمامها. وقد عرّف الله ســـبحانه وتعـــالى مكـــة المكـــرمّة لمـــا سيكون لها من دور في تكوين الأمة الإسلامية.

وبقـــي أمـــر أخير وهو سبب النزول، فآية سورة البقرة مدنية متأخرة في نـــزولها عن آية سورة إبراهيم المكية، ولا تعارض؛ لأن ترتيب المصحف توقيفي معتـــبر، وقد ذكرت في معرض حديثي آنفا أن الله عز وجل يخبر نبيه وقومه في ســـورة إبراهـــيم بما كان من استجابة دعاء أبيهم على النحو الذي تقدّم، وقد كان الإخـــبار في السورة المدنية بالتنكير إيماء إلى أنّ إعماركم أيها المسلمون للمدينة المنورة التي قدمتم إليها يحتاج إلى مثل دعاء أبيكم إبراهيم، عليه وعلى رسولنا أتم الصلاة والتسليم. وهو إرشاد كذلك للأمة أن تتخذ من هذه السنّة سبيلا للتمكين في الأرض، وخلافـــة الله فيها على الوجه الذي أرشد وأمر، خصوصا وأنّ آية سورة الـــبقرة جـــاءت في سياق هذا المقصد، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـــاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾البقرة:١٢٤.

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في الإفراد والجمع

وفي المتشابه اللفظي أسرار نحوية وبلاغية، لم يصل الباحثون فيها بعدُ إلى قـول فصـل، ومـن ذلك تلك اللطائف البديعة، والنكات الذكية في مبحث الإفراد والجمع، لطائف و دقائق لا تزال بكرا، لم يكشف العلماء النقاب عن محاسنها، ولم يقفـوا على ما فيها من أسرار ربّانيّة، وقد أعيتهم، فاحتموا بأقوال وتوجيهات، هي فـي مجملهـا بعيدة عن أسس التحليل البلاغي في التعرف إلى الأسرار القرآنية، وذلك كقولهم: إن ذلك من استخدام الأصل والفرع معا، أو إنّ إحدى الآيات جاءت على الأصل، والأخرى على الفرع، أو إنّ ذلك من قَبيلِ الإيجاز أحيانا، و من قبيل الإطالـة أحـيانا أخـرى، أو كقولهم: إنّ ذلك من باب التفنن في التعبير البلاغي وغـيره. وهكذا إلى أنْ بقيَت تلك المفردات في تشابهها عَصيَّة تنتظر مَن يكشف حُجُبَها، ويقف على جمال أسرارها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ومـن هـذه الألفـاظ: معـدودة ومعدودات، ودارهم وديارهم(١)، ورسالة ورسالات وغيرها من المفردات(٢).

---

(١)ملاحظة: سيأتي الحديث عن سر التعبير بـ (دارهم وديارهم)ضمن الفصل الثالث من هذه الرسالة، حيث سيتم دراسة الآيات التي وردت فيها هاتين اللفظتين.

(٢)وللوقـوف علـى جملة أخرى من المفردات، وتوجيهها، ولكنْ من غير المتشابه اللفظي انظر : محمد أبا موسـى، الـبلاغة القرآنـية،ص٢٦٠-٢٧٩، و مشهور مشاهرة، التناسب القرآني، ص٢٣٧-٢٤٣. وكتب فاضل السامرائي، خاصة: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط٢، دار عمّار، عمان، ٢٠٠١م.

المطلب الأول: (معدودة و معدودات)

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ فَوَيلٌ للذينَ يَكتُبونَ الكتابَ بأيْديهم ثُمَّ يَقولونَ هذا منْ عندِ الله لِيَشْتَرُوا به ثَمَناً قليلاً فويلٌ لَهُمْ ممّا كَتَبَتْ أيْديهِمْ وَوَيْلٌ لَهُم ممّا يَكْسِبونَ(٧٩)**وقالوا لنْ تَمَسَّنا النّارُ إلّا أيّاماً مَعدودَةً** قُل أتخذتم عندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أم تقولونَ على الله ما لا تعلمون﴾ البقرة: ٧٩-٨٠.

وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أوتوا نصيباً منَ الكتابِ يُدْعونَ إلى كتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بينَهُم ثُمَّ يتولّى فريقٌ منهم وهم مُعرِضونَ(٢٣)ذلكَ بأنّهم **قالوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلّا أيّاماً معدودات** وغرَّهُم في دينِهِم ما كانوا يَفْتَرون﴾ آل عمران: ٢٣-٢٤.

جميع الحقوق محفوظة

استعان أصحاب كتب المتشابه اللفظي، وكذلك المفسرون بآراء النحاة في أحكام الإفراد والجمع، وفي دلالة جمع القلة وجمع الكثرة. ولتوضيح ما قاله العلماء في هاتين المفردتين اعتمادا على أقوال النحاة وتقريراتهم أورد ملخّصا لما قالوه، على هيئة قواعد ونقاط:

القاعدة الأولى: يرى الإسكافي ومن سار على نهجه أنّ الجمع بالألف والتاء **أصله للمؤنث المختوم بالتاء المربوطة** نحو: مسلمة مسلمات، وصفحة صفحات، ومكسورة مكسورات([١]).

القاعدة الثانية: **يندر** أو يقل جمع المفرد المذكر بالألف والتاء، ومن هذا النادر القليل: حمام: حمامات، وجمل سِبَطْر :جمالات سِبَطْرات([٢]).

([١])انظر الإسكافي، المصدر نفسه، ص١٧-١٨، والكرماني، المصدر نفسه، ص٢٢ ، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٤-٢٢٧ ، و زكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٢٨. ومن المفسرين انظر: الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥٦٦-٥٦٧.

(٢) والمعنى أنّها سريعة في سيرها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة(سبطر).

القـــاعدة الثالثة: إذا كان واحد جمع التكسير مختوما بهاء التأنيث مثل: جرة وجـــرار، رقـــبة ورقاب، فإنّ **الأصل في صفة** هذا اللون من الجمع أن تكون مخـــتومة بـــالألف والتاء، فنقول: جِرار مكسورات، ورقاب مقطوعات. وقيل: جرار مكسورة ورقاب مقطوعة على الفرع؛ لأنه نعت لمؤنث مجازي.

القـــاعدة الـــرابعة: إذا كان واحد جمع التكسير مذكرا مثل: كوز و كيزان، وثـــوب وثياب، وسرير وسُرُر، وكوب وأكواب **فإنّ الأصل في صفة هذه الجموع أن تكـــون مختومة بهاء التأنيث**، فنقول: كيزان مكسورة، وثياب مقطوعة، وسرر مـــرفوعةٌ، وأكـــواب موضوعةٌ، وذنوب مغفورة، وأعمال محسوبةٌ. وقيل: كيزان مكســـورات علـــى الفـــرع، حملا على الجمع الذي يساويه في التأنيث الذي ليس بحقيقي، كما في القاعدة السابقة: جرار مكسورات.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقـــد فصّل **الغرناطي** فرأى أن صفة كل مؤنث جارية عليه في حكمه من التأنيث، إلا أربعة أضرب وهي:

أولا: فعلى أفعل.

ثانيا: فعلى فعلان.

ثالثا: ما يشترك فيه المذكر والمؤنث من الصفات، كمعطار ومذكار.

رابعا: ما ينفرد به المؤنث، كحائض وطامث.

فهذه الضروب الأربعة لا يجمع شيء منها بالألف والتاء، وسائر ما يجري على المؤنث من الصفات لا يمتنع من ذلك([1]). وهو وإن لم يكثر إلا أنه فصيح ، كما قال الغرناطي([2]).

وحسب القاعدة الرابعة فإنّ (أيّام) جمع تكسير، ومفرده (يوم)، وهو مذكر، والقـــاعدة تقـــول: إنّ **الأصـــل** في صفة جمع التكسير الذي واحدة مذكر أن تكون

---

(١) انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٢٢٥.

([2]) انظر الغرناطي، المصدر نفسه، ص٢٢٦.

مختومة بالتاء. وعلى هذا الأصل جاءت آية سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ **وقالوا لنْ تَمَسَّنا النّارُ إلّا أيّاماً معدودةً** ﴾البقرة: ٨٠، وفي سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ **مَعْدُودَةٍ** وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾يوسف:٢٠. وبناء على ذلك، فإنّ الوصف بـ(معدودة) لا إشكال فيه، فهو على الأصل، وما جاء على الأصل لا يسأل عنه، وإنّما يسأل عن خلاف الأصل.

واستنادا إلى القاعدة الثانية التي تقول: **بندرة أو قلة جمع المفرد المذكر** بالألف والتاء جاءت آية سورة آل عمران التي نحن بصدد الكشف عن وجه تشابهها، وهي قوله تعالى: ﴿ ذلكَ بِأنّهم **قالوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلّا أيّاماً معدوداتٍ** ﴾ آل عمران: ٢٤.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وجاء على هذه القاعدة أيضا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾البقرة:١٨٣-١٨٤، وقوله تعالى :﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي **أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**﴾البقرة:٢٠٣، وقوله تعالى:﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**﴾البقرة:١٩٧ ، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي **<u>أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ</u>** عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ الحج:٢٧-٢٨

ولقد جمعتُ توجيهات العلماء لآية آل عمران، وما شاكلها كذلك من آيات سورة البقرة والحج، وهذا توضيح وتلخيص لتوجيهاتهم، محاولا التبسيط والتسهيل قدر المستطاع:

أولا: إنّ آية آل عمران وما شاكلها من آيات سورة البقرة، وسورة الحج إنّما جاءت فيها (معدودات) على سبيل المجاز، وتقدير الكلام عندهم: ساعات أيام

معـــدودات([1])، فحُذفت الساعات وأُقيمَ المضاف إليه(أيام) مقامها. أي: كأنّهم جعلوا الوصف جارٍ على الساعات وليس على الأيام.

ثانـــيا: قد تكون آية آل عمران وأخواتها على المجاز أيضا، ولكن التأويل يختلف، بمعـــنى: احـــتمال أن تكـــون لفظـــة (أيام) أُلحقت بما في واحده علامة التأنيث، لاستوائهما في الجمع، ودخولهما في الفرعية التي يكتسبان لها لفظ المؤنث، وذلك حسب ما جاء على الفرع في القاعدة الثالثة والرابعة.

يعنـــي: كما أجازوا (جرار مكسورة)، مع أن الأصل مكسورات، و(كيزان مكســـورات) مـــع أن الأصـــل مكســـورة، فكذلـــك جاءت (أيام معدودات، وأيام معلومات).

جميع الحقوق محفوظة

وإن كان ذلك كذلك، فإن معدودة هي الأصل، وقد جاءت مستمرة في بابها، وأمّا الجمع بالألف والتاء في (معدودات) و(معلومات) فهو ضرب من التشبيه بما أصـــله الألف والتاء، يعني مثل:(جرار مكسورات)، وقد استعمل الأصل والجائز في آية آل عمران وأخواتها.

رابعـــا: إنّ المعنى عند الإسكافي في قوله تعالى: ﴿معدودة﴾ و ﴿معدودات﴾ سواء، من حيث دلالته على القلة([2]). وفي لسان العرب: " كل عدد قل أو كثر فهو (معدود)، ولكن (معدودات) أدلّ على القلّة، لأنّ كل قليل يُجمَع بالألف والتاء نحو: دُرَيْهِماتٍ، وحَمَّاماتٍ، وقد يجوز أن تقع الألف والتاء للتكثير "([3]).

([1])وفيما يتعلق بـــ: أيام معلومات، " فإن الأيام المعلومة في الأصل تسعة، فكل ثلاثة أيام منها معلومة، فتجمع هـــذه الـــثلاثات على الأيام المعلومات؛ لأن الواحد أيام معلومة، والمعلومة تجمع على المعلومات "الإسكافي، المصدر نفسه، ص١٨.

([2]) انظر الإسكافي، المصدر نفسه، ص١٨.

([3])ابن منظور، المصدر نفسه، مادة (عدد).

والغرناطـــي، وإن فصل القول في الجموع والصفات، إلا أنّ خلاصة رأيه تعـــود إلى أن ما في سورة البقرة جاء على الأصل﴿معدودة﴾، وهو بهذه الصيغة من الإفراد متناسب مع إيجاز الحديث الذي وقع في سورة البقرة. وفي آل عمران جـــاء التعبـــير بالجمع ﴿معدودات﴾ على الفرع، وهو فصيح أيضا، ومتناسب مع الإطالـــة التي وردت فيها، من حيث البسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم([1]). ويقصـــد الغرناطـــي بالإطالة والإيجاز أنّ آية البقرة خلت من قوله تعالى: ﴿ذلك بـــأنّهم﴾. والصـــحيح أنّ هذا التوجيه لا يستقيم مع ما في سورة البقرة من تفصيل كما سيتّضح لاحقا.

ويـــرى ابن جماعة أنّ ﴿معدودة﴾ جمع كثرة، و ﴿معدودات﴾ جمع قلة، ومـــن ثمّ فإنّ قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذّب بالنار سبعة أيـــام، وهـــي عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنما نعذّب أربعين يوما، وهي أيام عـــبادتهم العجـــل. وبناء على ذلك يحتمل أنّ آية البقرة ﴿معدودة﴾ قصدت الفرقة الثانـــية، وآية آل عمران ﴿معدودات﴾ قصدت الفرقة الأولى([2]). وهذا فيه نظر؛ لأن الروايات ذكرت العددين في آية سورة البقرة وفي آية سورة آل عمران، وفي ذكر عدد الأيام خلاف طويل([3]).

ونظر البقاعي في سياق الآيتين، فكان له لمسات طيبة، حيث وظّف الجانب الصرفي في خدمة المعنى الدلالي، ولم يكتف بعبارة الأصل والفرع، وما شاكلها، فقـــال فـــي توجيه آية سورة البقرة: " ولما كان مرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها، وكـــان جمع القلة﴿ **أيّاما** ﴾ وإن كان يدل على ذلك، لكنه ربما استعير للكثرة فدل علـــى مـــا لا آخـــر له، أو ما يعسر عده زادوا المعنى تأكيدا وتصريحا بقولهم ﴿ معدودة﴾ أي منقضية، لأن كل معدود منقض "([4]).

([1])انظر الغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٦-٢٢٧.

([2])ابن جماعة، كشف المعاني، ص١٠٨.

([3])انظـــر الطـــبري، المصـــدر نفســـه، ج١، ص٤٣٨- ٤٤٢ و ج٣، ص٢٥٧، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج٢،ص٩-١٠.

([4])البقاعي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٩٤.

وأمّـا سياق آية سورة آل عمران فإنّ فيه تطاولا في زمن غيّ هذا الفريق مـن الكافريـن، حتى ركنوا واطمأنّوا إلى أفعالهم. والمقام نفسه يشير إلى تناهي اجـترائهم علـى عظائم الأمور؛ لاستهانتهم بالعذاب؛ لاستقصارهم لمدته. وفضلا عـن ذلك، فقد كان منهم التصريح بقتل الآمرين بالقسط عامة، وبحبوط الأعمال. ولمّـا كان ذلك كذلك، وكان جمع القلة قد يُستَعارُ للكثرة أكدت إرادتهم حقيقة القلة ﴿ أيّاما ﴾ بجمـع آخر للقلة﴿معدودات﴾، فقيل على ما هو الأولى من وصف جمع القلة لما لا يعقل بجمع جبرا له([1]).

واعـتمد فاضـل السـامرائي آراء بعـض أصحاب كتب المتشابه اللفظي السـابقة، فـرأى أنّ الأيّـام المعـدودة أكثر من الأيام المعدودات، وأنّ المقامين مختلفان، فالجرم الذي في سورة البقرة أكبر من الجرم الذي في سورة آل عمران، ولذلـك يُناسـبُ سورة البقرة جمع الكثرة(معدودة)، ويُناسبُ آية سورة آل عمران جمع القلة(معدودات)([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وليس سهلا أن يجزم الباحث بقولٍ فصل في هاتين المفردتين وما شاكلهما، ولكنّي سأحاول دراسة سياق الآيتين، والنظر فيما يشبههما، لعلّنا نصل إلى جواب قريب يحلّ هذا التشابه اللفظي، أو رأيٍ آخر نضيفه إلى ما تقدّم.

فقـد وردت لفظـة (معدودة) ثلاث مرات في كتاب الله عز وجل، مرة في سورة البقرة، وهي الآية التي سنحاول الكشف عن وجه إشكالها، وثانية: في سورة هود، وثالثة في سورة يوسف. وكذلك لفظة(معدودات) وردت ثلاث مرات: اثنتين في سورة البقرة، والثالثة في سورة آل عمران، وهي الآية التي وقع فيها الإشكال مع آية سورة البقرة.

([1])انظر البقاعي، المصدر نفسه، ج٤، ص٣٠٥.

([2])فاضل السامرائي، المرجع نفسه،ص٤١-٤٢.

ولكنْ، قبل البدء في الدراسة والتأويل يتبين لنا من هذا التساوي في التكرار أنّ العبرة ليست بالأصل والفرع، وإنّما بوجود دلالات تستدعي أن تكون هذه الصيغة بهذا الشكل. فـ(معدودة) في سورة هود عليه السلام تدل على أنّ تأخير العذاب إنّما هو لمدّة محدودة، ولكنْ قد تكون هذه المدّة المحدودة انقضاء أمّة، ومجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون العذاب(١). فهي على ما فيها من تحديد غيرُ معيّنة التعيين الرقمي الذي هو في (معدودات) كما سنلاحظ بعد قليل، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ هود:٨ .

وقريب منه ما في سورة يوسف عليه السلام، فهي دراهم قليلة، ولكنّها غير معدودة؛ لأنّ المقام غير معنيٌّ بتحديد الثمن، إنّما المقصد هو تبيان زهدهم في هذا الغلام، وعدم معرفتهم لشأنه، حتى شَرَوه بثمن بخس. ولو أراد الحق تبارك وتعالى العدد لذكره، أو لجاء بـ(معدودات) وليس بـ(معدودة)، قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾يوسف:٢٠.

وقد اختلف العلماء في مقصود الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾البقرة:١٨٣-١٨٤ ، فقال بعضهم: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل غير ذلك، وقال ابن جرير الطبري بعد عرضه لهذه الآراء: " وأولى ذلك بالصواب عندي قول من قال: عنى الله جل ثناؤه بقوله: ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ البقرة:١٨٤ أيام شهر رمضان، وذلك أنه لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوما فرض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان، ثم نسخ بصوم شهر رمضان، وبأن الله قد بيّن في سياق الآية أن الصيام الذي أوجبه جل ثناؤه علينا هو صيام شهر رمضان دون غيره من الأوقات..."(٢). وعليه فالراجح أنّ المقصود بذلك هو

---

(١)انظر الطبري، المصدر نفسه، ج١٠، ١٢-١٢، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٨-٩.

(٢)الطبري، المصدر نفسه، جج٢، ١٥٨. وانظر القرطي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢،ص١٨٥.

أيام شهر رمضان، واليوم محدّد، وكذلك الشهر ولا خلاف في عددهما، فهو تحديد عددي أو رقمي.

وقال تعالى:﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي **أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ البقرة:٢٠٣ وهي بلا خلاف أيام التشريق الثلاثة بمنى، أي أيام رمي الجمار(١). وهي أيّام محدّدة مبيّنة برقم، ولا خلاف فيها، ولا في عددها كذلك.

وإذا نظرنا أيضا إلى كلمة (معلومات) في كتاب الله تعالى، نجدها قد ذُكرت مرّتين: مرّة في سورة البقرة، والأخرى في سورة الحج، وهي تشبه لفظة (معدودات) في هيئتها، ومن ثمّ يُمكنُ أن تُساعد في التعرف إلى حلّ إشكال (معدودة و معدودات).

جميع الحقوق محفوظة

فقد اختلف العلماء في قوله تعالى:﴿ الْحَجُّ **أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾البقرة: ١٩٧، فقال بعضهم هي: شوال، وذو القعدة، وعشرة من ذي الحجة. وقال آخرون هي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كلّه. ورجّح ابن جرير الطبري أن يكون المقصود: الحج شهران، وعشرة من الثالث، وقد ذكر مُرَجّحات هذا الرأي(٢). وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أنّها محدّدة بزمن عددي أو رقمي.

واختلفوا كذلك في الأيام المعلومات المقصودة في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي **أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ** عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾الحج:٢٧-٢٨، فقال بعض أهل التأويل: هي أيام التشريق، وفي قول بعضهم: أيام العشر، وفي قول بعضهم: يوم النحر وأيام

---

(١)انظر الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٤-٣٦٨.وانظر القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،ج٣، ص٣-٥.
(٢)انظر الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ٣٠٩- ٣١٤.

التشريق، وعند آخرين هي: أيام النحر([1]).

ومِمّا تقدّم يتبيّن لنا أنّ صيغة (معدودات و معلومات) جاءت في سياق يفيد تحديد العدد، وحصره في زمن رقمي. وجاءت (معدودة) تفيد القلة، ولكنّها لا تُحَدِّدها ولا تُعيِّنها، وقد تصل إلى أعداد كبيرة في العدّ الإلهي، ولكنّها تبقى قليلة موازنةً بالغلام الذي شروه مثلا. وهي قليلة أيضا في الزمن الربّاني، وإن طال أمد انتظارها، وكلّ ما هو آت قريب.

وبناء على ذلك أستطيع أن أقول: يؤتى بصيغة (معدودات ومعلومات) في القرآن الكريم عندما يُقصد الحصر الرقمي والتعيين، وبصيغة (معدودة) للدلالة على التقليل، ولكنّه غير محدود برقم يُزيلُ غموضه.

جميع الحقوق محفوظة

وهذا يعني أنّ ﴿معدودات﴾ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُونَ(٢٣)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ **قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ** وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ آل عمران: ٢٣-٢٤ تدلّ على أيّام محصورة، ومحدّدة مقيّدة بأرقام في أذهانهم، وأنّهم لن يتجاوزوها.

وهذا متناسق مع سياق الآيات، فسياق آية آل عمران أخفّ حدّة وقوّة على المعرضين من سياق آية سورة البقرة. فهم جماعة أوتوا نصيبا من الكتاب ليحكموا على أساسه، ثم تولى فريق منهم غرورا، وظنّا منهم أنّ ما لديهم من أمور يفترون بها على الله هي أحق بالاتباع والاحتكام. وحصرُ أيام التعذيب بعدد محدد في زمنه الرقمي يتناسب مع هذا الظن والغرور، خصوصا أنّهم يعتقدون أنّ مثل هذا الصنيع من أفعالهم لا يُعَذِّبُ اللهُ عليه كثيرا، وأنّهم أصلا لا يخلدون في النار، فهم مخدوعون مغرورون بقولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾المائدة: ١٨. ومن الأدلّة

([1])انظر الطبري، المصدر نفسه، ج١٧، ١٧٣-١٧٤، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٣- ٤، ورجح القرطبي أن تكون أيام النحر.

على ذلك أنّهم أكّدوا هذا الإعراض ﴿ذلكَ بِأنّهم قالوا﴾ آل عمران:٢٤؛ ظنّاً منهم أنّ التولّي وعدم الاحتكام يسيران، بحيث لا تتجاوز عقوبتهما رقماً ما في نفوسهم، وكأنّ لسان حالهم يقول: هي أيام قليلة، وإن شئنا حدّدناها برقم. وقول الحق تبارك وتعالى عقب ذلك: ﴿ وغرّهُم في دينِهم ما كانوا يَفْتَرون﴾ آل عمران:٢٤ متناغم مع القلة المقصودة من(معدودات).

وأمّا ما في سورة البقرة فهو مُختلفٌ عن ذلك؛ فإنّ فيها كشفا لخبايا نفوسهم، وفضحا لمؤامراتهم، وتعرية لمكائدهم، التي تقوم على التكبّر والاعتداء، والتحريف لكلام الله، والاستهزاء به، والصدّ عن سبيله ، وكل ذلك عن علمٍ، وقصد، وإصرار، وليس عن جهل، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾ البقرة:٧٥-٧٦.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن الواضح أيضا أن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾البقرة:٧٩ أكثر شدّة وحدّة من قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ يُدْعونَ إلى كتابِ اللهِ ليَحْكُمَ بينَهُم ثُمَّ يتولّى فريقٌ منهم وهم مُعرِضون﴾ آل عمران:٢٣.

واعتمادا على الاستقراء السابق فهي أيّام غير محدّدة برقم، فقد تطول إلى زمن غير معلوم آخره، ولكنّها في النهاية منقضية لا تفيد الخلود. فكأنّهم يَظُنّون أنّ تحريف كلام الله والمتاجرة به أكبر من عدم الاحتكام إليه، والتولّي عنه دون تحريفه. ومن ثمّ جاءت معدودة التي فيها دلالة على طول زمن العذاب – وإن كان محدودا – متناسقة مع عظم ذنبهم.

المطلب الثاني:(رسالة و رسالات)

ومــن المتشابه اللفظي في المفردات قوله تعالى في سورة الأعراف، حكاية عــن سيدنا صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ **رِسَالَةَ** رَبِّي وَنَصَــحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾الأعراف:٧٩، وقوله تعالى حكاية عن ســيدنا شــعيب عليه السلام:﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ **رِسَالاتِ** رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ الأعراف:٩٣.

لقــد أفــردت (الرســالة) في قصة صالح، وجُمعت في قصة شعيب لفائدة مخصصــة، وهي كثرة التبليغات في قصة شعيب عليه السلام؛ فقد أمرهم شعيب بعــد توحــيد الله عــز وجل وعدم الشرك به: أن يَفوا الكيل، وألّا يبخسوا الناس حقوقهــم، وألّا يُفسِدوا في الأرض، وألّا يُغوِوا الناس، وألّا يُخوّفوهم، وألّا يَصدّوهم عن الحق إلخ، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّــنْ إِلَــــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْــيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلاَ تَقْعُــدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(٨٦)وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيــنَ(٨٧)﴾الأعــراف:٨٥-٨٧، فهــذه الآيات فيها: أمر، ونهي، وتحذير، وإرشاد، وفيها إطناب، وتبليغات متعددة يُناسبُها الجمع.

وأمّــا قصة صالح عليه السلام، فلم يقع فيها – بعد أمرهم بالعبادة – غير تعــريفهم بأمــر الناقة، وتحذيرهم من التعرض لها، إضافة إلى تذكيرهم بقوم هود عليه السلام، وذلك على نحو من الإيجاز، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَــذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُــمْ آيَــةً فَذَرُوهَــا تَــأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣)وَاذْكُــرُواْ إِذْ جَعَلَكُــمْ خُلَفَــاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا

قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٧٤)﴾الأعـــراف:٧٣-٧٤. وعلـــى العموم فإنّ تركيز الآيات كان على الناقة، فجاءت (رسالة) بصيغة الإفراد متناسقة مع غرض الآيات، ونظمها.

هذا خلاصة ما قاله أصحاب كتب المتشابه اللفظي في هذه المسألة([1]).غير أنّ الإســكافي تنــبّه لأمر آخر مُحتَمل، سوى ما تقدّم، وهو أنّ سيدّنا شعيبا عليه السلام - في ما رُوِيَ - بُعِثَ إلى أُمّتين، أصحاب الأيكة، ومدين. وعلى قول: إنّ أصـــحاب الأيكـــة غير مدين، تكون صيغة الجمع (رسالات) متناسبة مع اختلاف قومه، وتخصيص كل منهم برسالة من الله([2]).

ويُمكنُ أن أضيف إلى ما قالوا: أنّ (رسالات) وردت سبع مرات في كتاب الله عــز وجــل، خمســا مــنها بصيغة(رسالات)، وواحـــدة مضافة إلى ياء العظمة(رسالاتي)، وواحدة مضافة إلى الهاء(رسالاته).

مركز ايداع الرسائل الجامعية

أولا: قـــال تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ **رِسَالاَتِ** رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٢)﴾ الأعراف:٦١-٦٢.

إنّ الجمـــع هنا متناسب مع طول المدة التي قضاها سيدنا نوح عليه السلام فـــي قومـــه، فلا شك أنّه أمرهم، ونهاهم، وحذرهم، وأنذرهم، حتى اعتبر كلّ فعل

([1]) انظـــر الإســـكافي، المصدر نفسه، ص١١٦، والكرماني، المصدر نفسه، ص٦٢، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١،ص٥٣٦-٥٣٤، وابن جماعة، كشف المعاني، ص١٨٤، وفي نص ابن جماعة خطأ أو سهو، حيث ذكر أنّ قصة هود عليه السلام أيضا فيها (رسالة ربّي)، والذي في قصة هود (رسالات)الأعراف:٦٨، وليس (رسالة) كما ذكر. وانظر أيضا: الأنصاري، المصدر نفسه، ص١١١-١١٢. ولم يعرض لهذه المسألة أغلب المفســـرين، وأشـــار البقاعـــي إليها بإيجاز، انظر البقاعي، ج٧،ص٤٥١ و ج٨،ص٨. وانظر أيضا: فاضل الســـامرائي، المـــرجع نفســـه، ص٤٥-٤٧ حيث أعاد ما ذكره أصحاب كتب المتشابه اللفظي بعينه، وإن لم ينسبه.

([2])انظر الإسكافي، المصدر نفسه،ص١١٦.

من هذه الأفعال رسالة، فإذا ضُمّت إلى بعضها فهي رسالات.

وكذلك فإنّ لفظ(الضلالة) ينسحب على مُسَمَّيات شتى، تقوم في مجملها مقام الإطـــناب فـــي التعبير والإسهاب، الأمر الذي يُناسبه الجمع. والغرناطي ممّن نبه على هذا الملحظ([1]).

ثانيا: قال تعالى حكاية عن سيدنا هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٧)أُبَلِّغُكُمْ **رِسَالَاتِ** رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) ﴾الأعراف:٦٧-٦٨.

والســـفاهة هي الطيش، وقلة الحلْم، وحال من اتّصف بها كحال من اتصف بالضـــلالة، ولذلك ناسب الجمع([2]). وفي الجمع أيضا إقامة للحجة على الملأ الذين اتّهمـــوه بالســـفاهة، فقد كان سيدنا هود عليه السلام رحيما، لطيفا، متّصفا بالحلم والـــرزانة وحسن السمت مع قومه، يقولون له: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾الأعراف: ٦٦، فـــيرد بلطـــف وهـــدوء قائلا: ﴿ياقوم ليس بي سفاهة﴾الأعراف:٦٧، وهذا اللطف والهدوء يناسبه التفصيل المُكْتَنَز في لفظة(رسالات).

ثالثا: قال تعالى حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام:﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ(٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَـــدْ أَبْلَغْـــتُكُمْ **رِسَالَاتِ** رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ الأعراف:٩٢-٩٣.

و يـــبدو الأمر في قصة شعيب عليه السلام أكثر وضوحا، حيث أخذ معهم الحِـــوار وقتا، ناسبه أثناء ذلك أن يعرض عليهم ما أمره الله به. وقد كان محتاجا لهـــذا الجمـــع(رســـالات) ليردّ به على كل سؤال يُوَجّه إليه، في إقامة الحجة على قومه، وقد أشرت إلى ذلك من قبل.

([1])انظر الغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٥٣٩-٥٤٣.

([2])انظر الأصفهاني، المفردات، مادة(سفه)ص٤١٤، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٥٤١.

رابعـــا: قـــال تعـــالى في مدح طائفة من المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ **رِسَالَاتِ** اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾الأحزاب:٣٩.

وفـــي ســـورة الأحزاب وضوح تامّ كذلك؛ فالمقام مقام مدح، وهذا يُناسبه الجمـــع، فهذا الفريق من المؤمنين غير مُقصّرٍ في واجباته، يُبَلِّغُ كلّ أوامر الله عز وجـــل؛ صـــغيرها وكبـــيرها. وفضلا عن ذلك، فإنّ في هذه اللفظة معنى المشقة المُتـــناغم مـــع التبليغ والخشية. وتَحملُ هذه الصيغة كذلك على المستوى الصوتي دلالات الصبر وطول التحمل.

خامسا: قال تعالى في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا **رِسَالَاتِ** رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾الجن:٢٨

جميع الحقوق محفوظة

وجـــاءت هـــذه اللفظة في سورة الجن؛ تسلية للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنّها تقول: إنّ ما تقوم به يارسول الله، وما تتعرض له من أذى ليس بدعا من الأمر، فإنّ إخوتك ممن تقدّم من الأنبياء قاموا بهذا الأمر.

ولمّـــا كـــان الإخـــبار عن مجموع من تقدّم فقد ناسبه الجمع، كما أنّ معنى المواســـاة فـــي التفصـــيل أكـــثر منه في الإجمال. وفيها معنى آخر محتمل، وهو الـــتجانس؛ بمعـــنى أنّ قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أمره الله به حدث كبير وعظيم، وهو أساس لمستقبل أمّة ليست كباقي الأمم، وهذا يناسبه (رسالات) ولـــيس رسالة، ولمّا كان ذلك كذلك من حيث ضرورة مجيء هذه اللفظة على هذه النحو ناسبها المواساة والاعتبار بجمع يُشاكلها ويُماثلُها فكانت(رسالات).

وفي قصة موسى عليه السلام، ولكنّها مضافة إلى ياء العظمة، قال تعالى: ﴿قَـــالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ **بِرِسَالَاتِي** وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾الأعراف:١٤٤.

إنّ قصـــة موسى عليه السلام من أطول القصص في كتاب الله عز وجل، وإنّ فـــيها مـــن الأوامـــر والنواهي وغير ذلك الشيء الكثير، ولذلك كان لابد من الجمـــع. وكذلك فإنّ فيها أشياء كثيرة تدعو إلى التميز في الاصطفاء، وخصوصا أنه عليه السلام كليم الله. وفي الإضافة دلالة على أنّ كل ما قام به موسى إنّما هو مـــن عند الله عز وجل، وفي هذا تشريف متناسق مع الاصطفاء، إضافة إلى إقامة الحجة على بني إسرائيل.

وفي حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أيضا:﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّـــهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا(٢٢)إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَ**رِسَالَاتِهِ** وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾الجن:٢٢-٢٣.

وقـــد تقـــدّم من قبل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، كان يُبلّغ كلّ ما أمـــره الله به، ويؤدّي رسالاته، والجمع في ذلك واضح، ومتناسب مع عظم السيرة النبوية، ومع التأسيس لمستقبل أمة قادمة. والإضافة إلى الهاء متناسبة هي الأخرى مع هذا الحصر الذي جاء به الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لا يملك من أمره إلا التوفيق من الله، وفي ذلك الأمان والنجاة.

وأمّـــا لفظة (رسالة) فقد جاءت ثلاث مرّات في كتاب الله عز وجل؛ مرتين فـــي ســـورة المائدة والأنعام(رسالته) مضافة إلى الهاء، ومرة في سورة الأعراف حكايـــة عن سيدنا صالح عليه السلام، بلفظة(رسالة) وهي الآية التي تناظرت مع آية الأعراف حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ **رِسَالَتَهُ** وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾المائدة:٦٧

إنّ مقـــام هذه الآية يقتضي الإفراد، وذلك أنّها جاءت في معرض الإشارة إلـــى أنّ كلّ أمر في هذه الرسالة إنّما هو في حكم الشيء الواحد، فليس بعض ما

فيها بأولى من بعض، فإن تُرِكَ حرفٌ واحد منها فقد انتفى الإبلاغ. وفي الآية أمر آخر، وهو التقرير والحسم، في موطن لا يحتاج إلى الحوار: بلِّغ، فإن لم تفعل فما بلّغت.

ودلالـــة الإضافة ظاهرة، فكلُّ أمر تُبَلِّغه إنّما هو من عند الله عز وجل، فلا ينبغـــي اختيار أمر وترك آخر، وبما أنّ ذلك إلى الله فهو وحده الذي يعصمك من الناس.

وقـــال تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّـــهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ **رِسَالَتَهُ** سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾الأنعام:١٢٤

جميع الحقوق محفوظة

إنّ مقـــام هذه الآية يتطلّب الإجمال وليس التفصيل، فالله أعلم بمن هم أهلٌ لرسالته، فليس الوليد بن المغيرة، ولا أبو جهل أهلٌ لها، وإن كانا ذا مال وسيادة. وقـــد توسّطت لفظة(رسالته) بين دعوى وعذاب، في سياق موجز ردّا على أكابر المجرميـــن. والإيجـــاز متناسق أيضا مع سفاهة أقوالهم التي لا تحتاج إلى حوار وتفصـــيل. وفـــي ما ذُكِر تقرير وحسم، أعقبه وعيد وتهديد، وانتهاء لأي كلام في هذا الخصوص.

وقال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ **رِسَالَةَ** رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾الأعراف:٧٩.

ذكـــرت مـــن قبل: أنّ إفراد الرسالة متناسب مع معجزة سيدنا صالح عليه الســـلام، فمن البداية قال لهم: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـــذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّـــهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾الأعراف:٧٣، فقد غطّى حدث عقـــر الـــناقة على أيِّ أمر آخر، مما جعله المحور الرئيس. ثمّ إنّ غياب عنصر

الحـــوار، القائم على عرض كل فريق حجته قاد إلى الإفراد، في تناغم مع درجة الحســـم فـــي القـــرارات؛ وكـــأنّ هؤلاء القوم في تكبرهم، وغرورهم بأنفسهم لا يحـــتملون المحاورة، فمبنى الأمر عندهم على القوة، وهم أصلا غير مُقرّين لسيدنا صالح بالرسالة ابتداء فضلا عن اتباعه أو محاورته ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾الأعراف: ٧٥، ولذلـــك كـــان الإجمـــال فـــي الإفـــراد أنســـب. ولـــو قـــال عقب التولّي عـــنهم(رســـالات)بـــدلا من (رسالة) لكان المقتضى أنّه فصّل لهم، وحاوروه، ثمّ صدّوا، ولكنّهم لم يعرفوا ذلك، فخاطبهم بما هم أهل له.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الرابع: المتشابه اللفظي في كلمات قريبة المعنى

لقد صنَّف العلماء في مفردات القرآن، وفي غريب ألفاظه، فلا تكاد تجد كلمةً في كتاب الله عز وجل دون بحث أو تأويل. ولكنّ كتاب الله لا يَخلَق، ولا تنقضي عجائبه، فلا تزال كثير من المفردات القرآنية تنتظر من يسبر غورها فيستخرج درر دلالاتها في السياقات المتشابهة، ذلك أنّ مثل هذه المفردات إذا اعترضت الباحثين خُيِّل إليهم أنّ معانيها واحدة. وحسبوا أنّ كتب التفسير والمعاجم تُسعف في التعرف إلى أسرارها، فيقولون: هذه الكلمة مرادفة لتلك، أو إنّ هذا من باب التفنن في الفصاحة والإعجاز، أو لعلّه يكون من اختلاف اللغات.

وفي هذه الدراسة، سواء أكنا مع من ينفي الترادف من كتاب الله عز وجل أم مع من يثبته، فلا بُدّ لنا من معرفة خصوصية السياق القرآني(١)، بحيث نصل في نهاية المطاف إلى أسرار التعبير القرآني في اختيار مفردة على أخرى مع تشابه المقامين.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، لماذا قال الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة:﴿ وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نتَّبِعُ ما **ألفينا** عليهِ آباءَنا﴾ البقرة: ١٧٠، بينما قال في سورة لقمان: ﴿وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالوا بلْ نتَّبِعُ ما **وجَدْنا** عليهِ آباءَنا ﴾ لقمان:٢١. ولماذا قال في سورتي طه والقصص:﴿ فلمَّا **أتاها** نُودِيَ ﴾ طه:١١، والقصص:٣٠، وعبّر بالمجيء في

---

(١)ملاحظة: لقد سبقت الإشارة إلى موضوع الترادف في كتاب الله عز وجل، وهو من الموضوعات الخلافية التي شغلت مجامع اللغة العربية وكثيرا من الدارسين. وقد عرض الباحثون لهذه القضية، وذكروا آراء الفريقين؛ ممن أثبت الترادف أو قال بنفيه. وعلى العموم فهي دراسات كثيرة، لا تحتاج إلى كبير عناء في الوصول إليها. ولقد ذكرت بعضا من هذه الدراسات لمن أراد أن يتتبع ما قيل في هذه القضية، فضلا عن أن يُمسك منها بطرف.

سورة النمل فقال: ﴿ فلمّا **جاءَها** نُوديَ ﴾ النمل:٨، وغير ذلك من الكلمات. فهل نكتفـــي بـــالقول: إنّ (ألفى) في سورة البقرة بمعنى (وجد) التي في سورة لقمان، وكذلك (أتى) بمعنى (جاء) ؟ أم يوجد مغزى وراء التعبير بذلك ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا المبحث.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الأول: (ألفينا)و(وجدنا)

قـال تعـالى: ﴿ يـا أيُّها النّاسُ كُلوا مِمّا في الأرضِ حلالاً طَيّباً ولا تَتَّبعوا خُطُواتِ الشيطانِ إنَّهُ لكم عدوٌّ مبينٌ(١٦٨)إنّما يأمُرُكُم بالسوءِ والفحشاءِ وأنْ تَقولوا على الله ما لا تعلمونَ(١٦٩)وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نتَّبِعُ ما **ألفينا** علـيهِ آباءَنا أولَوْ كانَ آباؤُهُم لا يَعقلونَ شيئاً ولا يهتدونَ(١٧٠) ﴾ البقرة: ١٦٨-١٧٠، وقال في سورة لقمان:﴿ ألَمْ تَرَوْا أنَّ اللهَ سخَّرَ لكم ما في السماواتِ وما في الأرضِ وأسْبَغَ عليكُم نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنَةً ومِنَ النّاسِ من يُجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولا هُـدًى ولا كِـتابٍ مُنـيرٍ(٢٠)وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أنْزَلَ اللهُ قالوا بلْ نتَّبِعُ ما **وجَدْنا** عليهِ آباءَنا أوَلَوْ كانَ الشيطانُ يدعوهُم إلى عذابِ السَّعيرِ(٢١) ﴾ لقمان:٢٠-٢١.

جميع الحقوق محفوظة

ذكر أصحاب كتب المتشابه اللفظي في التفرقة بين المفردتين أنّ (ألفينا) أكثر خصوصية من (وجدنا) التي هي من المشترك اللفظي. وتفصيل ذلك أنّهم يقولون:

أولا: وجدت الشيء، فلا يحتاج إلى مفعولٍ ثانٍ، إذا وجدته من عدم.

ثانيا: ولوجدان الضالة يقولون: وجدت الضالة.

ثالـثا: ويقولـون: وجدت زيدا عاقلا، فيكون الوجود متعلّقا بالخبر الذي هو المفعول الثاني، ولا بد له في هذا الوجه منه، ولا يكتفى بالمفعول الأول(زيدا).

وفـي المقـابل، لا يقولـون: ألفيتُ درهما بمعنى: وجدت درهما، ولا ألفيتُ الضالة بمعنى: وجدتها. وإنّما يقولون: ألفيت زيدا عاقلا، وألفيته على الهدى وعلى الضـلالة. فتـتعدّى لفظة(ألفى) إلى مفعولين، وتتعدى لفظة(وجد) مرة إلى مفعول واحد، ومرة إلى مفعولين([1]).

([1])انظـر الإسـكافي، المصدر نفسه، ص٣٠-٣١، والكرماني، المصدر نفسه، ص٢٦، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٣٦.

إنّ محاولة الإسكافي، والكرماني، وزكريا الأنصاري الكشف عن سر التعبير بهاتين المفردتين تبدو ناقصة، فلم يُبيّنوا لنا سبب اختصاص سورة البقرة بـ(ألفينا)، وسورة لقمان بـ(وجدنا). ولست مع جواب ابن جماعة الذي يقول فيه: " أما (ألفينا) و(وجدنا) فهما واحد، واختلاف لفظهما للتفنن في الفصاحة والإعجاز"([1]).

ولقد خالف الغرناطي، فرأى أنّ (ألفى) بمعنى (وجد) التي في قولهم: وجدت الضالة، أي عثرت عليها، فتتعدى بهذا إلى واحد. ولا يقال: (ألفى) بمعنى (وجد) التي بمعنى علم متعدّيا إلى اثنين. إلّا أنّ هذا الخلاف لم يمنعه من الإقرار بأنّ (وجد) لفظ مشترك، بمعنى العلم، وبمعنى العثور على الشيء والذي هو الوجدان. ولكنّه لم يقف عند هذا الجواب مثل من تقدّم من أصحاب كتب المتشابه اللفظي، بل أخذ يبحث في سياق الآيات لعلّه يجد جوابا لاختصاص كل سورة بالمفردة التي وردت فيها. وقد توصّل إلى أنّ خطوات الشيطان في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها النّاسُ كُلوا ممّا في الأرضِ حلالاً طيّبا ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنّهُ لكم عدوٌّ مبينٌ﴾ البقرة: ١٦٨ وكذلك أمره في سورة البقرة: ﴿ إنّما يأمُرُكُم بالسوءِ والفحشاءِ وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمونَ﴾ البقرة:١٦٩ إنّما هي أهواء مضلة، وذلك كلُّه في طرفِ نقيضٍ للعلم، فهؤلاء لا علم عندهم، ولا توهّم علم، وإنّما يُزيّن لهم الشيطان، ويأمرهم، ويدعوهم إلى أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، وهذا يناسبه(ألفى) التي بمعنى (الوجدان) دون العلم، فهم قد وجدوا آباءهم على هذا، فيقلّدونهم.

أمّا آية سورة لقمان فقد تقدّمها ذكر العلم، وإن كان منفياً، قال تعالى:﴿ ومِنَ النّاسِ من يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ﴾ لقمان:٢٠، ففي الآية توهم علم، فلا يُجادِلُ إلا متعلّق بشبهة، وهم بهذا يحسبون أنّهم على شيء. وهذا يُناسبه ذِكْرُ (وجدنا) التي بمعنى العلم، وليس العثور على الشيء.

([1])ابن جماعة، كشف المعاني، ص١١٤-١١٥.

وعـــند الغرناطي جواب آخر، مبناه على اللفظ، وليس المعنى، حيث يرى أنّ (ألفـــى) أكثر حروفا من (وجد)، وبذلك تتناسب كلّ مفردة مع السورة التي وردت فيها من حيث الطول، والقصر([1]).

ولـــم يُفَـــرِّق المفسِّـــرون بيـــن المفردتين؛ فـــ(ألفى) عندهم في سورة البقرة بمعـــنى(وجـــد) التي في سورة لقمان([2])، إلّا أنّ أبا حيان ذكر أنّ (ألفى) في سورة الـــبقرة ليســـت متعدّية إلى اثنين، لأنّها بمعنى(وجد) التي بمعنى أصاب، ولكنّه لم يكشف النقاب عن سر التعبير بهما([3]).

وفـــي مســـائل ابن الأزرق تشير عائشة عبد الرحمن إلى أنّ تفسير (ألفينا) بـــ(وجدنا)قريب، ويؤنس إليه، مستشهدة بما جاء عند الراغب في (المفردات)([4])، وبمـــا جـــاء عـــند أبي عبيدة في (مجاز القرآن)([5]). ولكنّ الباحثة أشارت إلى أنّ القـــرآن لم يستعمل (ألفى) إلا ثلاث مرات، بصيغة الفعل الماضي، على حين كثر اســـتعماله للفعـــل (وجد) بصيغ متعددة، ثمّ قالت" ولا بد أن يكون لهذه الفروق الاستعمالية بين وجد وألفى، في البيان القرآني وفي اللغة ملحظ من فرق الدلالة لم أهتدِ إليه، أو لعلّهما من اختلاف اللغات، وإن لم أجد فيه نصّا، والله أعلم"([6]).

([1])هذا عرض تفصيلي لرأي الغرناطي، انظر: الغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٦-٢٤٧.

([2])انظـــر: الزمخشـــري، المصدر نفسه، ج١،ص٢١١، والرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص١٨٨، والبقاعي، المصدر نفسه،ج٢،ص٣٣٠، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج١، ص٢٣٠، والخفاجي، عناية القاضي، ج٢ ،ص٤٤٣، والألوسي، ج٢، ص٥٩٨.

([3]) انظر أبا حيان، البحر المحيط، ج٢، ص١٠٣.

([4])انظر الأصفهاني، أبا القاسم الحسين بن محمد، (ت٤٢٥هـــ). مفردات ألفاظ القرآن، ط١، (تحقيق صفوان عدنـــان داوودي)، دار القلم، دمشق،١٩٩٢م، مادة (لفي) ص٧٤٤. وانظر أيضا: سميح عاطف الزين، معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠٠١م، ص٨٠٧.

([5])التيمـــي، أبو عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢١٠هـــ). مجاز القرآن، ط١، ٢م، (تعليق محمد فؤاد سزكين)، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٤م، ج١،ص٦٣.

([6])عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص٣٨٦-٣٨٧.

لقد وردت (ألفى) ثلاث مرات في كتاب الله عز وجل؛ فهي في سورة البقرة:(أَلْفَيْنَا) وفي سورة يوسف:(أَلْفَيَا) وفي سورة الصافات:(أَلْفَوْا)، وهي بهذا التكرار العددي قليلة جدا إذا ما قورنت بورود (وجد) ومشتقاتها في كتاب الله عز وجل([1]).

تتحدث الآيات في سورة البقرة عن فريق من رَعاع الناس؛ الذين يتّخذون من دون الله أندادا، فيُحبُّونهم كحبّ الله. وهؤلاء من الجهلة الرعاع الذين يُغرَّر بهم، فيُخدعون، ولا يعلمون ذلك إلا حين مجيء العذاب، وتبرؤ الذين اتُّبِعوا منهم. ومن الأدلة على وصفهم بما ذكرت، وما فيهم من خواص البهائم، من حيث انعدام العقل والفهم، وما يترتب عليه من استجابة:

أولا: تلك الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية لهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ(١٦٦)وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾البقرة:١٦٧-١٦٨

ثانيا:عدم تمييزهم بين المعقول وغير المعقول، وهذا واضح من الوصف، ومن قوله تعالى: ﴿ أَولَوْ كانَ آباؤُهُم لا يَعقِلونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾البقرة:١٧٠.

ثالثا: المثال الذي ضربه الحق سبحانه وتعالى عقب هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾البقرة:١٧١. وقال البقاعي في حقهم: " فمثلهم حينئذ كمن تبع أعمى في طريق وعر خفي، في فلوات شاسعة، كثيرة الخطر "([2]).

([1])انظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط١،دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م، مادة(وجد). ويمكن النظر في معاني و(وجد) ومشتقاتها من: الأصفهاني، المفردات، مادة(وجد)ص٨٥٤، و الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (ت٨١٧هـ). بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٦ م، (تحقيق محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي)، المكتبة العلمية، بيروت،ج٥، ص١٦٢-١٦٤.

([2])البقاعي، المصدر نفسه،ج٢، ص٣٣١.

هــذا الصنف اقتضى أن يوجّه الحق تبارك وتعالى على إثره إرشادا عاما للــناس جمــيعا، بأن يسلكوا سبل الحلال في معيشتهم، لكي لا يكون طلب الرزق ســببا فــي خديعتهم. ويُحذّرهم من اتباع خطوات الشيطان، وقد تبين لهم أنه عدو مبين، فلا يأمرهم إلا بالسوء والفحشاء، ولا يُرشدهم إلا إلى التقوّل على الله.

وهــؤلاء الرّعاع لكثرة ما يُغرّر بهم، ولعظم جهلهم، ولسهولة انقيادهم وراء خطــوات الشــيطان إذا نُصِحوا بأن يَتّبِعوا الحقّ؛ رجاء انتشالهم من مستنقع الذل والمهانــة أبوْا ذلك، وعلّلوا سبب إبائهم بوجود ما يُمكن أن يكون بديلا، وهو ملّة الآباء والأجداد، وذلك على الرغم من ضلال آبائهم، وما يسيرون عليه.

وأمّــا الــذي فــي سورة لقمان فهو حديث عن طائفة تتصف بالعناد والكبر واتــباع الهوى؛ فهم يُجادلون في الله بغير واحدة من هذه المسوّغات الثلاثة: بغير علــم، ولا هــدى، ولا كتاب منير. فهؤلاء لا لهوا أعظم من جدالهم، ولا كبر مثل كبرهم، ولا ضلال مثل ضلالهم.

ايداع الرسائل الجامعية

ولا بــد من ملاحظة أنّ الحق تبارك وتعالى لم ينف عنهم صفة العقلانية كما في سورة البقرة، بل أثبت لهم ذلك؛ تجلية لكبرهم وعنادهم، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَــخَّرَ لكــم مــا في السمواتِ وما في الأرضِ وأَسْبَغَ عليكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِــنَةً ﴾ لقمــان:٢٠. فالتصدير بــ﴿ألم تَرَوْا﴾ يقتضي تعقّلا، أو شبهة تعقّل، واختتام الآية على نحو غير الذي في سورة البقرة يؤيد ذلك، قال تعالى في سورة لقمان:﴿أَوَلَوْ كانَ الشيطانُ يدعوهُم إلى عذابِ السَّعيرِ﴾ لقمان:٢١، بينما في سورة البقرة:﴿ أَولَوْا كانَ آباؤُهُم لا يَعقِلونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾البقرة:١٧٠.

وخلاصــة القــول: إنّ الفــريق المُخاطَب في سورة البقرة يتصف بالجهل، والــتغرير، ومــا ذكرتُ من صفات البهائم، تلك المستوحاة من المثل التالي للآية الكــريمة وغيره، وهذا كلّه يُناسبه(ألفى) التي هي بمعنى العثور على الشيء، الذي هــو الوجــدان(من وجدي الشيء)، وليس العلم. وفيها معنى آخر يُفهَم من السياق

أيضـــا، وهـــو ثقتهم واتّكالهم على غيرهم من الرؤساء والزعماء والآباء أكثر من اعتمادهم على أنفسهم، فهم مُنقادون لا رأي لهم.

وأمّـــا الخطـــاب الذي في سورة لقمان، فهو لفريق من الناس يُكابر ويُعاند، وذلـــك على الرغم من إمكانية استخدامهم لعقلهم لو أرادوا ذلك، وهذا يُناسبه(وجد) التـــي هي بمعنى العلم، وليس العثور على الشيء. وفي وجد أيضا دلالة متأصّلة، وإصـــرار مؤكّدٌ بأنّهم باقون مُقلّدون لآبائهم، تكبُّرا وعنادا، وهذا يتناسب مع سياق الآيات.

ومـــنه يُفهَـــمُ أنّ (ألفـــى) فـــي كتاب الله عز وجل يؤتى بها في سياق المكر والخديعـــة، ومحاولة الإيقاع بالآخرين، وعدم استخدام العقل على الوجه الذي خُلق مـــن أجله، وقد تبيّن لنا ذلك في سورة البقرة، وذلك واضح في قصة يوسف؛ فقد همّـــت امـــرأة العزيـــز بالإيقاع والمكر بسيدنا يوسف عليه السلام، قال تعالى:﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّـــي أَحْسَـــنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣)وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُـــرْهَانَ رَبِّـــهِ كَذَٰلِـــكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَ**أَلْفَيَا** سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾يوسف:٢٣-٢٥.

وفـــي ســـورة الصافات يكشف لنا سياق الآيات عن قصة المؤمن الذي تذكّر قريـــنا له كـــاد يوقـــع به ويُرديه؛ مكرا وخديعة وتغريرا، ثُمّ كان عذاب المقلّدين المخدوعين، وهذا تعزيز لمفهوم المكر والخديعة الآنف الذكر، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(٥٠)قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ(٥٢)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣)قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(٥٥)قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾الصافات:٥٠-٥٧، وقال تعالى في

سـبب عذاب أصحاب الجحيم:﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ(٦٩)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠)﴾الصافات:٦٩-٧٠.

وتأتـي(وجدنا) في سياق الكبر والعناد، والإصرار والتحدّي، وعدم امتثال الحق. وذلك إذا جاءت على لسان الكافرين، ردّا على جواب الدعاة.

قـال تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَـالُواْ حَسْبُنَا مَا **وَجَدْنَا** عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾المائدة:١٠٤

وقال تعالى:﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ **وَجَدْنَا** عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَـا قُـلْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف:٢٨

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقال تعالى:﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّـنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِيـنَ(١٠١)وَمَـا **وَجَدْنَا** لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢) ﴾الأعراف:١٠٢

وقـال تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ(٧٥)فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ(٧٦)قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِـحُ السَّاحِرُونَ(٧٧)قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا **وَجَدْنَا** عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨)﴾يونس:٧٥-٧٨.

وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ(٥١)إِذْ قَـالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢)قَالُوا **وَجَدْنَا** آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ(٥٣)﴾الأنبياء:٥٣

وقـــال تعـــالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْـبُدُونَ(٧٠)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢)أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣)قَالُوا بَلْ **وَجَدْنَا** آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤)﴾الشعراء:٧٤

وقـــال تعالى:﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا **وَجَدْنَا** آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا **وَجَدْنَا** آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ(٢٣)﴾ الزخرف:٢٢-٢٣.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الثاني:(أتاها)و(جاءها)

ومـــن الكلمات الأخرى المتشابهة تشابها لفظيا، قوله تعالى في سورتي طه والقصص، حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾طه:١١،والقصص: ٣٠، بينما في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾النمل:٨.

توقّـــع أصحاب كتب المتشابه اللفظي أسئلة عن الاختلاف في ورود قصة موســـى عليه السلام في سُوَرِ القرآن الكريم، فقصته عليه السلام في سورتي طه، والقصـــص مُفَصَّـــلة، ولكـــنّها في سورة النملِ مجملة. وقد أجابوا عن بعض هذه الاخـــتلافات بأجوبة منها المقبول، وكثير منها غير مقبول في التحليل البلاغي([1]). والملاحـــظ أنّهـــم لـــم يُعَمّقوا البحث في التفرقة بين لفظتي:(أتاها)و(جاءها)، فهذا الكرمانـــي يـــرى أنّ (أتى)و(جاء) بمعنى واحد، لكنّ كثرة دوران الإتيان في سورة طه نحو: ﴿فأتياه﴾٤٧، ﴿فلنأتينك﴾٥٨، ﴿ثُمَّ أتى﴾٦٠، ﴿ثُمَّ ائتوا﴾٦٤، ﴿حيث أتى﴾٦٩...إلخ، وكان لفظ(جاء) في سورة النمل أكثر، نحو: ﴿فَلَمَّا جاءَتهُم﴾١٣، ﴿وجِئْـــتُكَ﴾٢٢، ﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيمانَ﴾٣٦، فناسب كلّ ما يُوافقه. ثُمَّ قال: وأُلحقت سورة القصص بسورة طه لقرب ما بينهما([2]).

والحقـــيقة المـــتفق علـــيها فـــي التحلـــيل البلاغي، أنّ الاقتصار على هذه التوجـــيهات ومـــثلها لا يحـــتاج إلـــى تعليق؛ لأنّها ليست أجوبة قائمة على تحليل إحصـــائي لـــتردد الدلالـــة السائدة والمعزولة، أو الإحالة الأُحاديّة والمتكرّرة تبعا لدواعٍ سياقية، بحيث تكشف عن سر اختيار القرآن الكريم للفظة على غيرها.

([1])انظر الإسكافي، المصدر نفسه، ص٢٠٣-٢٠٦، والكرماني، المصدر نفسه، ص١١٤-١١٧، والغرناطي، المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠٥-٨٢٣، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص١٩٣-١٩٧.

([2])انظـــر الكرماني، المصدر نفسه، ص١١٤-١١٥، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص١٩٣ وأضاف الأنصاري إلى ما تقدّم: أنّ ذلك من التوسعة في التعبير، بمعنى التعبير بألفاظ مختلفة والمعنى واحد. ولم يُجب الباقون عن هذه المسألة جوابا يُذكر. ولم أر -حسب اطلاعي-عند المفسرين فرقا بين المفردتين.

ولم تُسعفني معاجم اللغة العربية، وكتب التفسير في التفرقة بين المفردتين، إلا أنّ الأصـــفهاني فـــي (المفردات) قال كلاما طيّبا، اعتُمِدَ عند كثير من العلماء والباحثين الذين جاؤوا بعده، قال: " الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار علـــى وجهه: أتِيّ، وأتاويّ. وبه شُبِّه الغريب، فقيل: أتاويّ. والإتيان يُقال للمجيء بالذات،وبالأمر،وبالتدبـــير. ويُقـــال في الخير وفي الشر، وفي الأعيان والأعراض "(١).

وقال في (جاء): " والمجيءُ كالإتيان، لكنّ المجيء أعم؛ لأن الإتيان مجيء بســـهولة، والإتيان قد يُقالُ باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول. ويُقالُ: جاء فـــي الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانا أو عملا أو زمانا "(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وتلقّـــف الأستاذان: فضل عباس، وفاضل السامرائي هذه الكلمات، وأحسنا توظـــيفها فـــي الكشـــف عـــن سرّ التعبير بهاتين المفردتين على الرغم من تشابه السياقين.

فقـــد رأى فضـــل عباس أنّ كلمة(جاء) في القرآن الكريم غالبا ما تُسنَدُ إلى الجواهـــر والأعـــيان، بينما تُسنَد الكلمة الثانية(أتى) إلى المعاني والأزمان. ومن الأمـــثلة على فعل المجيء قوله تعالى:﴿ **وجاؤوا** على قميصه بدم كذب﴾يوسف: ١٨ ،وقولـــه تعـــالى:﴿ ولِمَن **جاء** به حِملُ بعير﴾يوسف:٧٢، أي:بصواع الملك. ومن الأمثلة على فعل الإتيان قوله تعالى: ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه﴾النحل:١، وقوله تعالى: ﴿أتاها أمرُنا ليلاً أو نهارا﴾يونس:٢٤(٣).

---

(١)الأصفهاني، المفردات، مادة (أتي)ص٦٠، وانظر الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، ج٢، ص٤٣-٤٦.
(٢)الأصفهاني، المصدر نفسه، مادة(جاء)ص٢١٢، وانظر الفيروزأبادي، المصدر نفسه، ج٢،ص٤١١-٤١٣.
(٣)انظر هذه الأمثلة وغيرها من فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص١٧٣.

بينما رأى فاضل السامرائي: أنّ القرآن الكريم يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له(أتى). ولقد حشد السامرائي لرأيه هذا أمثلة كثيرة من القرآن الكريم؛ من متشابهه وغير متشابهه، ورأى أنها جميعها بلا استثناء تُخرَّج على ما ذكر([1]). ثُمّ قال: " ولعلّ من أسباب ذلك أنّ الفعل(جاء) أثقل من (أتى) في اللفظ، بدليل أنه لم يرد في القرآن فعل مضارع لـ(جاء) ولا أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، ولم يرد إلا الماضي وحده بخلاف (أتى) الذي وردت كل تصريفاته، فقد ورد منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول. فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الموقف في (جاء)، وخِفَّةِ اللفظ وخفة الموقف في (أتى) والله أعلم "([2]).

والذي أراه أنّ هناك فروقاً دقيقاً آخر، إضافة إلى ما ذكره الأستاذان الفاضلان، وما تقدم عند العلماء الأوائل، وهو أنّ قوله تعالى في سورتي طه والقصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ طه:١١،والقصص:٣٠ سبقه حديث عن إبصارِ سيدنا موسى عليه السلام للنار، أو أُنسه بها، فكان على إثره أن طلب من أهله الإقامة في مكانهم؛ رجاء أن يأتيهم بِشُعْلَةٍ منها، أو أن يجد عند هذه النار من يهديه إلى الطريقِ بعد أنْ حاد عنها، قال تعالى:﴿وهل أتاكَ حديثُ موسى(٩)إذْ رأى ناراً فقالَ لأهلِه امكُثوا إنّي آنستُ ناراً لعلّي آتيكُم منها بِقَبَسٍ أو أجِدُ على النَّارِ هُدى (١٠) **فَلَمَّا أَتَاهَا** نُودِيَ يا موسى(١١) إنّي أنا ربُّكَ فاخلَعْ نعليكَ إنَّكَ بالوادِ المُقدَّسِ طُـوى(١٢)﴾طه: ٩-١١، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢٩) **فَلَمَّا أَتَاهَا** نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠)﴾ القصص:٢٩-٣٠.

([1])انظر فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل،ط٢، دار عمار، ٢٠٠١م، ص٩٦-١٠٥.

(٢) فاضل السامرائي، المرجع نفسه، ص١٠٤.

والـــذي في سورة النمل لا يختلف كثيرا عن ذلك؛ فقد أبصر سيدنا موسى علـــيه الصـــلاة والسلام نارا من بُعد، إلّا أنّه لم يُذكرْ فعل الترجّي(لعلّي) كما في الآيتيـــن مـــن سورة طه والقصص، ثُمّ تشابه النظم، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهلِـــهِ إِنِّي آنَستُ ناراً سآتِيكُم منها بِخَبَرٍ أو آتِيكُم بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُم تصطَلُونَ(٧)**فلمّا جاءَها** نُـــوديَ أنْ بورِكَ مَنْ في النّارِ ومَن حولَها وسبحان اللهِ ربِّ العالمينَ (٨)﴾ النمل:٧-٨.

وقـــد تبين لي بعد التدقيق في سياق الآيات، أنّ قوله تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمّا جاءَها﴾النمل:٨ فيه عناية خاصة، بلفت النظر إلى فعل المجيء نفسه، وما كـــان فيه من صعوبات. وكأنّ المد الذي في لفظة جاءها - إن نحن قرأناها على الوجه الذي ينبغي حسب أحكام التجويد - يحمل في طيّاته صورة الحاجة، والبعد، والمشـــقة، التي كانت عليها حال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. ويعضد هذا التوجيه دلالة السين في قوله تعالى في سورة النمل، حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ سآتِيكُم ﴾ النمل:٧، فهو ذو دلالة على سرعة سيدنا موسى وعجلته في الوصـــول إلـــى الـــنار. هذا فضلا عن خُلُوّ الآية من فعل الترجّي. وهذه العجلة والســـرعة يُناســـبها التركيز على فعل المجيء، وما حمل في أصواته من دلالات المشقة ومعاناة الوصول. وربّما يكون هذا التأويل في جانب من جوانبه تفسيرا لما ذكره فاضل السامرائي: من أنّ القرآن يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى)([1]).

ولكـــنّ فاضـــل الســـامرائي فسّر المشقة والسهولة على غير الوجه الذي ذكـــرت، فقـــال: " ذلـــك أنّ ما قطعه موسى على نفسه في النمل أصعب مما في القصـــص، فقد قطع في النمل على نفسه أن يأتيهم بخبرٍ أو شهاب قبس، في حين تـــرجّى ذلك في القصص. والقطع أشق وأصعب من الترجّي...ثمّ إنّ المهمة التي ستوكل إليه في النمل، أصعب وأشق مما في القصص، فإنه طُلِبَ إليه في النمل أنْ

([1])انظر فاضل السامرائي، لمسات بيانية،ص٩٧ و ص١٠٤-١١٠.

يُـبَلِّغَ فرعون وقومه رسالةَ ربِّه، في حين طُلِبَ إليه في القصص أن يُبَلِّغَ فرعون وملأه. وتبليغُ القومِ أوسَعُ وأصعَبُ من تبليغ الملأ، ذلك أنّ دائرة الملأ ضيِّقة، وهم المحيطون بفرعون، في حين أنّ دائرة القوم واسعة "(١).

قـد يكون توجيه السامرائي محتملا، ولكنّ لنا أن نتساءل: أيُّهما كان أشق وأصعب على سيدنا موسى عليه السلام، أهو تبليغ فرعون وقومه، أم تبليغ فرعون وملـئه ؟ يبدو لي أن العبرة ليست باتساع دائرة التبليغ، وإن كان فيها مشقة، إنّما العقـبة الكـؤود فـي تبليغ الحكام وأعوانهم من الملأ الذين هم أهل العناد والثراء والمنزلة.

وأمّا في سورتي طه والقصص، فإنّ الأمر يختلف: فسورة طه ذات طبيعة هادئة، فيها اللطف، والحلم، والترفق، ومن يقرأ قصة موسى عليه السلام من هذه السورة يلحظ ذلك بوضوح، وخصوصا في الموسيقى الداخلية المنبعثة من أصوات حروفها المهموسة، فضلا عمّا فيها من كلمات وتعبيرات ذات منحى مُتّسق مع هذه الطبـيعة الهادئة. وهذا يُناسبه (أتى) التي هي أسهل، وأخف على النفس، وذلك بما فيها من رِقّة وهدوء غير موجود في (جاء).

ثُـمّ إنّ قصـة موسى عليه السلام في سورتي طه والقصص مُفَصَّلة، غير موجـزة، ولا تـتحدث عن مقطع من القصة دون غيره، كما هو الحال في سورة الـنمل، وهذا يُناسبه ورود التعبير على هيئة متناسقة مع رجائه عليه السلام. ومع أنّ القصـة واحدة، إلا أنّ ذلك لا يتناقض أبدا؛ لأنّ المجيء مشتمل على الإتيان، كمـا أن التكرار القصصي ذو أغراضٍ وفوائد متناغمة مع طبيعة السياق الواردة فيه.

---

(١) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص١٠٤-١٠٥.

المبحث الخامس: المتشابه اللفظي في الإدغام وفكّه

المطلب الأول: (يُشاقّ) و (يُشاقِق)

كثيرةٌ هي الألفاظ التي تَرِدُ في كتاب الله عز وجل مُبدَلةً مُدغَمَةً مرّةً، ومرّةً أخرى غير مُبْدَلَةٍ مفكوكة الإدغام، نحو: (يُشاقّ) و (يُشاقِق)، (يَضَرَّعونَ) و (يتضرَّعون)، (المُصَّدِّقين) و (المُتَصدِّقين)، (يَزَّكى) و (يَتَزكّى)، (المُطَّهرين) و (المُتَطهِّرين)، (يذّكر) و (يتذكَّر) وغير ذلك كثير، بحيث يُمكنُ أن تُشكِّلَ ظاهرةً لها خصائصها، ومزاياها في وجهٍ من وجوه الإعجاز القرآني.

قال تعالى: ﴿ ومَن **يُشاقِقِ** الرّسولَ من بعدِ ما تَبيَّنَ لهُ الهُدى ويتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُولِّهِ ما تولّى ونُصلِهِ جهنَّمَ وساءَت مصيرا ﴾ النساء: ١١٥.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقال تعالى: ﴿ ذلكَ بأنّهم شاقّوا اللهَ ورسولَهُ ومَن **يُشاقِقِ** اللهَ ورسولَهُ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ ﴾ الأنفال: ١٣.

وقال تعالى: ﴿ ذلكَ بأنّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومَنْ **يُشاقِّ** اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ ﴾ الحشر: ٤.

لقد وردت (يُشاقّ) مُدغَمَةً في سورة الحشر، بينما تُرِكَ الإدغامُ في سورتي النساء والأنفال، مع أنّ مثله في لغة العرب يصح إدغامه وإظهاره، كقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا مَن **يَرتَدَّ** منكُم عن دينِه ﴾ المائدة: ٥٤، وفي سورة البقرة: ﴿ ومَن **يَرتَدِدْ** منكم عن دينِه ﴾ البقرة: ٢١٧، وغيره مما سبق ذكره.

وللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص سورة الحشر بالإدغام، وعن تركه في سورتي النساء والأنفال. وهل يُكتَفى في التحليل البلاغي بالقول: إن الإدغام ورد على لغة من لغات العرب، وكذلك فك الإدغام ؟ أم لا بد لنا من البحث عن سر هذا التعبير، وإن كان ذلك في لغة من لغات العرب.

إنّ مجــيء المفردة القرآنية على لغة من لغات العرب، لا يمنع من النظر فــي سر جمالها، أو حكمة ورودها على هذه الصيغة دون غيرها، على ألّا يكون تأويلُ مجيئها مُتكلّفا، أو فيه لَيٌّ لأعناق النصوص.

فابــن جنــي يــرى أنّ إدغام الحرف في الحرف أخَفّ في لغة العرب من إظهــار الحرفيــن(١). وعليه يُمكِننا أن نسأل عن سر التخفيف في سورة الحشر، وعن ورود ما فيه ثقل في السورتين الأُخرَيين.

وللإجابة عن هذا التساؤل نعرض أولا رأي أصحاب كتب المتشابه اللفظي، وكذلــك المفســرين إن وُجِــد، ومن ثَمّ نعود لنص ابن جني، وما ترتّب عليه من استفهام.

جميع الحقوق محفوظة

فالإســكافي ومــن وافقه يرى أنّ سبب الإدغام في سورة الحشر "هو: قُوَّةُ الحــركة في القاف، وقوّتها أنّه لا يصح أن تلاقي الاسم الذي بعدها إلا ساكنا، لا يقوم مقامه مُتَحَرّكٌ في حال، وما سواه من المواضع ليس على هذا الوصف "(٢).

يقصــد الإســكافي أنّ الحركة في القاف قَوِيَت؛ لأنّه قد وَلِيَها لفظ الجلالة، والــلام الأولى فيه ساكنة؛ وهي اللام التي يهربُ القارئُ من ثقلها، فيكسر الحرف الأخير من الكلمة التي تسبقها في مثل قولنا: اعبدِ اللهَ. ومن ثَمّ لو قيل: يُشاقِقِ اللهَ، لكان ذلك ثقيلا في النطق.

---

(١)انظر ابن جنّي، الخصائص، ج٢، ص٢٢٧، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٣.

(٢)الإسكافي، المصدر نفسه، ص٣٣٠. وانظر أيضا: الكرماني، المصدر نفسه، ص٤١، وزكريا الأنصاري، ص٧٤.

والقــاعدة التــي بَنَوا عليها ما تقدّم هي: أنّ الحرف الثاني من المثلين إذا تحرك بحركة لازمة، وجب إدغام الأول في الثاني. فيجوز أن نقول: اردُدْ له، بفك الإدغام، ولكنّ لا يجوز أن نقول: أُردُدَا أو أُردُدي؛ لأنّ الدال الثانــية مــن الكلمتين تحركت بحركة لازمة. والألف واللام في لفظ الجلالة لازمتان، فصارت حركة القاف لازمة، وليس الألف واللام في الرسول كذلك.

ولكنّه قال في الأنفال:﴿ ومَنْ **يُشاقِقِ** اللهَ ورسولَهُ﴾ الأنفال:١٣. والجواب عن ذلك أنّ القاف غير مختصة باللام وحدها في هذا المقام؛ لأنّ التقدير: ومن يُشاقِق رسول الله أيضا، فقد دخلت على الراء، وذلك سائغ، إذ الواو تُصيّرهما في حكم شيءٍ واحد.

وفي النساء:﴿ومَن **يُشاقِقِ** الرَّسولَ ﴾ النساء: ١١٥. والجواب أنّ الساكن من (الرسول) الذي يُلاقيه القاف ليس كالساكن من لفظ الجلالة، لأنّه قد تُحذف اللام من (الرسول) فتدخل القاف على متحرك، وهو الراء([1]).

والغرناطي يرى أنّ ما في النساء على الأصل، فلم يقترن به ما يستدعي تخفيفه، وما جاء على الأصل لا يُسأل عنه. وأمّا الذي في سورة الحشر فقد حُمِلَ على الماضي الذي قبله﴿ شاقُّوا﴾ الحشر:٤([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

وفي حديثه عن توجيه آية الأنفال كلام طويل، ذو عبارة غامضة أحيانا، إلّا أنّ مداره كلّه على الجانب اللفظي. فهو يرى أنّ عطف(رسوله) على لفظ الجلالة بعد﴿ **يُشاقِقِ**﴾ الأنفال:١٣ يُشبه فك الإدغام. فإذا أُضيفت إليه ما تقدّم من إدغام ﴿شاقُّوا﴾ ناسب عدم الإدغام في(يُشاقِق).

ولكنْ لماذا حُمِلت (يُشاقق) على العطف، فجاءت مفكوكة الإدغام؟ ولمْ تُحمل على الماضي المدغم المتقدم عليها(شاقّوا)، فتأتي مدغمة مثله؟

يُجيب الغرناطي عن ذلك بكلام غير مقنع في التحليل البلاغي، حيث يرى أنّ الحمل على المُتأخّر البعدي(اللهَ ورسولَهُ) أقوى في الرعي منه على المتقدّم

([1])انظر الإسكافي، المصدر نفسه، ص٣٢٩-٣٣٠.

([2])انظر الغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٣.

الـــذي يلي كلمة(شاقّوا)؛ وذلك قياسا على المنع في الإمالة(١)؛ ففي لفظة (مناشيط) الشين والياء حرفان يفصلان الألف عن الطاء، وكانا سببا للمنع من الإمالة. وليس في قوّتهما فيما لو تقدّما مع حائل(٢). وكأنّ المتقدّم(الله ورسوله) التالية لـ(شاقّوا) بمقام حرفين قبل الألف لا يوجبان فك الإدغام، وإنّما الذي يوجب الفك هو المتأخر عن الألف، التالي لـ(يُشاقق) وهو هنا(الله ورسوله).

هـــذا توضـــيح لما فهمته من كلام الغرناطي، وإن كان ذلك مثل ما رأيت، فهـــو من باب الفذلكة الفلسفية التي لا حاجة لنا بها. ثُمّ على أيّ أساس بنى قياسه هـــذا، وما العلة الجامعة بين الإمالة وبين الإدغام وفك الإدغام ؟ ذلك ما لم أجد له جوابا.

قـــال الغرناطي: " وعطف (ورسوله) على اسم الله تعالى، وقد وردت نسبة المُشـــاقّة لله ورســـوله، وورود ذلك بالعطف بالواو الجامعة، وهو ما يُناسب الفك، فاستدعى الموضع داعيان: أحدهما ما قبله من الإدغام، والثاني ما بعده من العطف المشـــبه للفـــك، فروعي البَعدي؛ لأنه أقوى في الرعي، كما فعلوا في الإمالة، فلم يمـــيلوا نحو: مناشيط، وما كان مثله مما تأخر فيه حرف الاستعلاء، وإن حال بينه وبيـــن الألـــف حرفان، ومع ذلك فإنه يُمنع الإمالة، وليس كذلك في قوته المنع إذا تقـــدّم مـــع حائل، فكذا فعلوا فيما تقدّم، فراعوا ما بعد كما ذكرنا، فلم يُدغموا، إذ المـــتقدّم في قوّة المفروغ منه المنقطع المتّصل بعد في النطق أقرب، فورد على ما

---

(١)إذ إنّ مـــن موانعهـــا ثمانـــية، وهي: الراء، وأحرف الاستعلاء السبعة(الخاء، والغين، والصاد، والضاد، والظـــاء، والقـــاف). وشرط المنع بالاستعلاء المتأخر عن الألف: أن يكون إمّا متّصلا، كساخر، وحاطب. أو منفصـــلا بحرف: كنافق، وبالغ، أو بحرفين: كموانيق، ومناشيط. ولكنّ ابن هشام عقّب قائلا: وبعضهم يميل موانيق ومناشيط لتراخي الاستعلاء. انظر: ابن هشام، عبد الله جمال الدين، (ت٧٦١هـــ).أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك،٤م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العربية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٤، ص٣١٩.

(٢) وتوضـــيح ذلك: أن شرط الاستعلاء المتقدّم على الألف أن يتصل بها، نحو: صالح، وضامن. أو ينفصل بحـــرف نحـــو: غـــانم. وليس فيه خيار ثالث فيقولون : والمنفصل بحرفين مثلا. إلا أنّهم قالوا في المتأخّر، والمنفصل بحرفين كما تقدّم في لفظتي: مواثيق ومناشيط. انظر: ابن هشام، المصدر نفسه، ج٤، ص٣١٩.

يجب ويُناسب "(١).

وممـــن تنـــبه لقضية الإدغام وفكّه أبو حيان، فقال في بحره: "أجمعوا على الفـــك في ﴿يشاقق﴾ اتباعا لخط المصحف، وهي لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم كما جاء في الآية الأخرى ﴿ومن يشاقّ الله﴾ "(٢). وقوله: اتباعا لخط المصحف، أو إنّ ذلـــك لغـــة، لا يمـــنع هـــو الآخر من تلمّس الحكمة البلاغية في تعليل هذا المجيء.

ولقد اجتهد البقاعي في تبيُّن حكمة الفك والإدغام، فجاء بكلام لطيف مفاده: أنّ آيـــة الأنفال هي في قصة العرب الذين كانت عداوتهم لرسول الله – صلى الله علـــيه وســـلم – بعد الهجرة النبوية مجاهرة قوية شديدة، ولذلك أظهر الإدغام في المضـــارع. وتـــرك الإدغام على حاله في سورة الحشر (يُشاقّ)؛ لأنّ القصة في الـــيهود، ومـــا أظهروا معاداة، وإنما كان ما فعلوا مكرا ومسارة، وذلك أخف من المجاهرة وأضعف(٣).

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقول أبي السعود والألوسي: إن آية الحشر قُرِئت بالفك كما في الأنفال(٤) لا يحجـــب جمـــال أســـرارها؛ ففـــي القـــراءات القرآنية نكات بلاغية لا ينبغي تجاهلها(٥).

---

(١)الغرناطـــي، المصـــدر نفسه، ج١، ص٣٥٣. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرناطي ذكر أنّ هذه الآيات لم يعـــرض لها الإسكافي، والصحيح غير ذلك كما سبق وتقدّم. اللهم إلا أن يكون مقصوده أنه لم يعرض لها في توجـــيهه للآيات المتشابهة من سورة النساء، حيث قام الإسكافي بتوجيه متشابهها عند حديثه عن آيات سورة الحشر، وتركها في النساء، وهذا وفقا لطبيعة المنهج الذي اختاره.

(٢)أبو حيان، البحر المحيط، ج٥، ص٢٨٨، وانظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨، ص٧٤-٧٥.

(٣) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ج٨،ص٢٣٨، و ج١٩، ص٤١٤-٤١٥.

(٤)انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج٦، ص٢٢٥، والألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص٣٣٠.

(٥)ولعـــل كـــتاب الباحث أحمد سعد محمد من الكتب النافعة في هذا المجال. انظر أحمد سعد محمد، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ط١، مكتبة الآداب، ١٩٩٨م.

وقـــال فاضل السامرائي: " ولعلّه وحّد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنّه ذكر الله وحده، وفكّهما وأظهرهما لأنّه ذكر الله والرسول فكانا اثنين "([1]).

وأحسب أنّ كلام السامرائي في هذه المسألة ليس وجيها، فقد أظهر الحرفين فـــي ســـورة النساء:﴿ ومَن **يُشاقِقِ** الرَّسولَ ﴾ النساء: ١١٥، ولو لم يُذكر لفظ الجلالـــة. وقولـــه: إنّه سبحانه وتعالى أدغم الحرفين في حرف واحد لأنّه ذكر الله وحـــده في سورة الحشر: ﴿ ومَنْ **يُشاقِّ** اللهَ ﴾ الحشر:٤ تأويل ضعيف. وأقرب مـــنه مـــا ذكره البقاعي، قال: " ولم يعد ذكر الرسول تفخيما له بإفهام أنّ مشاققته مشـــاققة لله من غير مثنوية أصلا، وإشارة إلى أنّهم بالغوا في إخفاء مشاققتهم، فلم يظهـــر عليها غير الله"([2]). فمرة ذكر الرسول، ومرة لم يذكره للحكمة التي ذكرها البقاعي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وتأسيســـا على ما قاله ابن جني، والبقاعي من قبل، فإنّ لفظة(يُشاقِق) التي فـــي سورة النساء جاءت في سياق الولاء والبراء؛ فمخالفة رسول صلى الله عليه وسلم، واتباع هدي الكافرين، إشراكا بالله وإلحادا، لهو الضلال المبين الذي لا يقبل الله فـــيها صرفا ولا عدلا، حيث ينفكّوا بذلك من جسم المسلمين، وبالضرورة من شـــرع الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ومَن **يُشاقِقِ** الرَّسولَ من بعدِ ما تبيَّـــنَ لهُ الهُـــدى ويتَّـــبعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُولِّهِ ما تولَّى ونُصلِّهِ جهنَّمَ وساءَت مصيرا(١١٥)إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ويغفرُ ما دونَ ذلك لِمَن يشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بـــاللهِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً(١١٦)﴾ النساء: ١١٥-١١٦. فإضافة إلى ما قالوه في الجانب اللفظي، يُمكن أن نلحظ شدة المقام الذي يُناسبه الإظهار دون غيره.

وفـــي سورة الأنفال كذلك جاءت لفظة(يُشاقِق)، في معرض الحديث عن ألدّ أعـــداء الدعوة الإسلامية آنذاك:﴿ وإذْ يَمكُرُ بِكَ الذينَ كفروا لِيُثْبِتوكَ أو يَقْتُلوكَ أو

([1]) فاضل السامرائي، التعبير القرآني،ص١٦.

([2]) البقاعي، نظم الدرر، ج١٩،ص٤١٥.

يُخْـرِجوكَ ويَمكُـرونَ ويَمكُـرُ اللهُ واللهُ خـيرُ الماكرين﴾الأنفال:٣٠، ولقد كان مصـيرهم متوقّعا. والسياق نفسه شديد لا لين فيه، ولا تخفيف، ولا جرم فقد كان يوم الفرقان، يوم أنْ فرّق الله فيه بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ إذ يوحي ربُّكَ إلـى الملائكَـةِ أنّي معكُم فثبّتوا الذينَ آمنوا سأُلْقي في قلوبِ الذينَ كفروا الرُّعبَ فاضـربوا فوقَ الأعناقِ واضربوا منهم كُلَّ بنانٍ(١٢)ذلكَ بأنّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومَـنْ **يُشـاقِقِ** اللهَ ورسولَهُ فإنّ اللهَ شديدُ العقابِ(١٣) ذلكم فذوقوهُ وأنّ للكافرينَ عـذابَ النار(١٤)﴾ الأنفال:١٢-١٤. وكأنّ هذه اللفظة جاءت متناغمة مع وصف العرب في عداوتهم للدعوة الإسلامية، ومُخاصمتهم لها.

ولـيس كذلـك(يُشـاقّ) التي في سورة الحشر، فإنّها جاءت في مقام غلبة المؤمنيـن علـى الـيهود خاصة، وهؤلاء تختلف عداوتهم في طبيعتها عن عداوة العرب، فإن كان العرب على مدار التاريخ إلى وقتنا هذا يُجاهرون في عداوتهم، فإنّ اليهود لا يفعلون مثل ذلك، بل تراهم يستعينون بالعرب لكي يكونوا وجها لهم، أمّـا هـم فيستترون خلفهم يحوكون المكائد في الليل البهيم، وعلى كل فالسياق في سورة الحشر أخف شدة ووَطأ منه في السورتين الأوّليَين، قال تعالى: ﴿ ولَوْلا أنْ كَتَـبَ اللهُ عليهِمُ الجَلاءَ لعذّبَهُم في الدُّنيا ولهم في الآخرَةِ عذابُ النّارِ(٣)ذلكَ بأنّهم شـاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومَنْ **يُشاقِّ** اللهَ فإنّ اللهَ شديدُ العقابِ(٤) ما قطعتُم من لينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أُصولها فبإذن اللهِ ولِيُخْزِيَ الفاسقينَ(٥)﴾ الحشر:٣-٥.

وفي اللفظتين لطيفة أخرى: مبناها على المد اللازم الكلمي المثقل الذي في (يُشـاقّ) وكأنّ عداوة اليهود، مع استتارها وخفائها أحيانا، تظلّ دائمة مستمرة بما أفاده طول المد؛ إشارة إلى الحرمة الأبدية في مُصالحتهم، أو موالاتهم، كونهم في شـقّ غـير الشق الذي فيه المسلمون. وفي صوت القاف كذلك مزيد تأكيد؛ حيث أفـادت الفصل والقطع، ولم تترك مجالا لمعاودة النظر ما داموا مستمرين على ما هم عليه، إذ الوعيد مقيد بالاستمرار.

وليس في (يُشاقق) مد، ولا فيها دلالة القاف المشددة. وبيان ذلك أنّ عداوة العـــرب ليست دائمة لله ورسوله، فهي على فترات، ولو وُجد المد لكانت عداوتهم مستمرة. وفي صوت القاف مكسورا مرّتين حِسٌّ تدرّجٍ ذو إشارة إلى أنّ المخالفة ديدن في نفوسهم، وكأنّهم يتوبون، أو يُحجِمون، ثمّ يَعودون من جديد.

ويُمكِـــن أن أقرِّب الصورة بمثل-ولله المثل الأعلى- فإنّ أثر صوت القاف المشـــدد في لفظة(يُشاقّ) إن نحن قرأناه بصوت مرتفع، ووقفنا عليه حسب أحكام تجويد القرآن الكريم، يبدو لنا أنّه كحال امرئٍ يضربُ صخرةً مرّة واحدة بعد شدة وعـــناء فـــيفلقها. وأمّـــا الذي في يُشاقِق، فكأنّه يضرب الصخرة مرّتين ضربتين خفيفتيـــن، لا تؤديان إلى انفلاقها. وذلك متناسب مع ما تقدّم، فعداوة اليهود حاسمة لا رجعـــة فيها، بخلاف عداوة العرب للإسلام، وإن عظمت، فهم ذوو طبيعة غير طبيعة اليهود، اللهم إلا أن يُوالوهم فيصبحوا مثلهم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الثاني:(يَضَّرَّعون) و (يَتَضَرَّعون)

قال تعالى:﴿ولَقدْ أَرْسَلْنا إلى أُمَمٍ من قبلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بالبأساءِ والضَّرَّاءِ لعلَّهُم **يتضَــرَّعونَ**(٤٢)فلــوْلا إذْ جــاءَهُم بأسُنا تضرَّعوا ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهُم وزيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ ما كانوا يَعْمَلونَ(٤٣)﴾ الأنعام:٤٢-٤٣.

وقال تعالى:﴿وما أَرْسَلْنا في قريَةٍ من نبيٍّ إلَّا أخذْنا أَهلَها بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلَّهُــم **يَضَّرَّعونَ**(٩٤)ثُمَّ بَدَّلْنا مكانَ السيِّئَةِ الحسنةَ حتَّى عَفَوْا وقالوا قد مسَّ آباءَنا الضَّرَّاءُ والسرَّاءُ فَأَخَذْناهم بغتَةً وهم لا يشعرونَ(٩٥)﴾الأعراف:٩٤-٩٥.

لــم يُوَجِّــه أصحاب كتب المتشابه اللفظي الإدغام وفكَّه في هاتين الآيتين حســب المعــنى، واكــتفوا بالحديــث عــن الجانــب اللفظي، كما فعلوا من قبل مــع(يُشــاقق)و(يُشــاقّ). فرأوا أن ذلك من باب حمل اللفظ على مُجاورِهِ لمجرد المضــارعة اللفظــية وإن اختلف المعنى. فماضي الفعل من الضَّراعة، ولا إدغام فــيه، وفــي الآيــة التالية من سورة الأنعام: ﴿ فلوْلا إذْ جاءَهُم بأسُنا تضَرَّعوا﴾ الأنعــام:٤٣. ومــن ثَــمّ ورد مــا في الأنعام مفكوكا رعيا للمناسبة، ولم يرد في الأعراف ما يستدعي هذه المناسبة، فجاء مدغما على الوجه الأخف([1]).

وكالعــادة تفــرّد البقاعي بكلام نفيس في حكمة الإدغام والإظهار، فقال في تعلــيل الإظهــار فــي سورة الأنعام: " أي ليكون حالهم حال من يرجى خضوعه وتذلُّــلــه علــى وجــه بليغ، بما يرشد إليه - مع صيغة التفعل- الإظهار. ولأن مقصودها الاستدلال على التوحيد، وعند الكشف للأصول ينبغي الإبلاغ في العبادة بخلاف ما يأتي في الأعراف"([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1])انظــر الكرمانــي، المصــدر نفســه،ص٥١، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٥٥-٤٥٦، وزكريا الأنصاري، المصدر نفسه، ص٩٦.

([2])البقاعي، المصدر نفسه، ج٧،ص١١٤.

إنّ صــيغة (يتَفعَّل) أطول من (يَفعَّل)، وهذا يقتضي أن يكون فيها دلالات تزيد عن أُختها، وهو ما يُشار إليه بالقوّة والمبالغة. وهذا مُتَّسِقٌ مع مقصود سورة الأنعام الذي أشار إليه البقاعي، وهو الاستدلال على ما دعا إليه الكتابُ في سورة الأعراف، من توحيد الله عز وجل، وعدم الإشراك به(١).

ثُمَّ إنّ الحديث في آية الأنعام عن الإرسال إلى أُمَمٍ، وليس إلى أُمّة واحدة. وهــذا يُناســبه المبالغة والتكثير. وكأنّ القرآن الكريم يستخدم الإظهار في موطن العموم غير المُخَصَّص، أو المُطلق غير المُقيَّد.

وفــي تعلــيله للإدغام في آية الأعراف قال البقاعي:" أي ليكون حالهم عند المساءة حال من يرجى تضرّعه وتذلُّــله وتخضعه لمن لا يكشف ذلك عنه غيره، ولو كان التضرع في أدنى المراتب، على ما أشار إليه الإدغام؛ لأن ذلك كافٍ في الإنقاذ من عذاب الإنذار الذي هذه سورته، بخلاف ما مضى في الأنعام"(٢).

مركز ايداع الرسائل الجامعية

قال تعالى في مطلع سورة الأعراف على وجه الإجمال: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾الأعراف:٤، ثُمّ تبع ذلك تفصيل ما انفــردت به كُلّ أُمّة من العذاب. فكانت قصة نوح، فهود، فصالح، فلوط، فشعيب علــيهم الصــلاة والسلام. ثُمّ تلا ذلك حديث عن وصف تكذيب الأمم واستكبارها، حــتى إنّهــم لم يُكلّفوا أنفسهم بأدنى درجات التذلل لله عز وجل، ولو كان ذلك في الستر والخفاء على ما أفادته﴿يضَّرعون﴾، وقد استدرجهم الحق تبارك وتعالى في كــل مــرّة﴿ثمّ بَدّلنا مكانَ السيئة الحسَنَةَ حتّى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءَنا الضرّاءُ والسرّاءُ فأخذناهم بغتَةً وهم لا يشعرون﴾الأعراف:٩٥ .

إذن لقــد كــان الإجمال، ومن ثمّ التفصيل، إلى أنْ كُشِفَ النقاب عن سبب استئصــال الأُمــم بالعذاب، وهو التكذيب، والاستكبار على الحق، حتى إنّهم نسبوا

---

(١)انظر البقاعي، المصدر نفسه، ج٧،ص١.

(٢)البقاعي، المصدر نفسه،ج٨،ص١٠-١١.

طـــول مـــدة استدراجهم في الابتلاء إلى عادة الدهر، وفعل الزمان، ولم يعتبروا، واســـتمرّوا على فسادهم في حال الشدة والرخاء على حد سواء. وفي منتصف هذا الوصـــف، كانـــت﴿يَضَّـــرعون﴾ تفيد الشفقة والحسرة، ولكنّ في ظلالها التعنيف والتوبـــيخ لمـــن كانت هذه حاله؛ إذ لم يكن لهم عذر في ترك التضرع -كما يقول الزمخشـــري- "إلا عـــنادهم وقســـوة قلوبهـــم، وإعجابهم بأعمالهم التي زيّنها لهم الشيطان"([1]).

ففـــي الإظهـــار مبالغة في الاعتراف بالذنب، والتوبة منه، إذ إنّ الأمر قد انقضـــى، فكـــان لا بد من عقيدة صحيحة سليمة، لا دخن فيها. ولو ذُكِرَ اللين هنا لكـــان من الضرورة التركيز على عمل الرسل، ومتابعتهم لما يجري، حتى يُغَيّروا هـــذا الـــتفاعل البســـيط إلـــى مبدأ تام. وليس كذلك ما في الإدغام؛ لأنّ النبي بين ظهرانيهم، ولم ينقضِ الأمرُ بعد، فكان يكفي منهم أن يتفاعلوا معه، ولو في درجة بســـيطة؛ من حيث اعترافهم بخطأ ما هم عليه، وتليين القلوب من أجل اتباعه، أو لإفساح المجال لدعوته، فهو ابتداء يحتاج إلى تفعيل وجوده، وهذا لا يكون إلا بلينٍ وضـــراعة حـــتى يتَجَنّبوا العذاب الذي أخبر عنه سبحانه وتعالى في ختام قصص الأنبياء الخمسة الذين سبق أن ذكرتهم.

ولقـــد وقف فاضل السامرائي مع هاتين المفردتين، فرأى أنّ القرآن الكريم يســـتعمل بناء(يتفعّل) لما هو أطول زمنا، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل. ويستعمل(يَفّعل) للمبالغة في الحدث والإكثار منه. وبما أنّ آية سورة الأنعام حديث عـــن الأمـــم، والأُمـــم أكثر من القرية التي تحدّثت عنها آية الأعراف فهذا يعني ضرورة تطاول الإرسال على مدار التاريخ. فلمّا طال الحدث واستمرّ جاء بما هو أطولُ بناء فقال: ﴿يَتَضَرَّعون﴾. ولمّا كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال﴿ يَضَرَّعون﴾ فجاء بما هو أقصر في البناء.

([1])الزمخشري، المصدر نفسه،ج٢،ص٢٢.

ومن ناحية أُخرى فإنّ في الأنعام﴿أرسلنا إلى﴾، وفي الأعراف﴿أرْسَلْنا في ﴾. والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ، ولا يقتضي المكث. وأمّا الإرسال في القرية أو في المدينة فإنّه يقتضي التبليغ والمكث، وهذا يعني بقاء النبي بينهم يُبلّغهم ويُذكّرهم بالله ويُريهم آياته المؤيدة. ولا شك أنّ هذا يدعوهم إلى زيادة التضرُّع والمبالغة فيه، فجاء بالصّيغ الدالّة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهم يَضَّرعون﴾ (١).

إنّ قول السامرائي بأنّ بناء(يتفعّل) يستخدم لما هو أطول زمنا، وأكثر تفصيلا ، كلام صحيح يتناسب مع ذكر الأمم، الذين طال عهدهم، فاحتاجوا إلى لفظة تتناغم مع طول فترات الدعوة، وما كان فيها من توجيهات، وتفصيلات.

وأمّا قوله: إنّ بناء (يفّعل) يستخدم للمبالغة في الحدث والإكثار منه فمخالف لما عليه الجمهور، فالمعروف عندهم أنّ بناء (يفّعل) يُستخدم للتخفيف، على ماذكرت من كلام ابن جني، والغرناطي، والبقاعي، وغيرهم ممن تقدّم(٢). ومن ثمّ فكلّ بناء أو توجيه جاء عند السامرائي على هذه القاعدة يحتاج إلى مراجعة(٣). وقوله: إنّ مكوث النبي فيهم يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه كلام لا يستقيم مع ما تُفيده صيغة (يفّعل).

---

(١) انظر فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في المرجع نفسه،ص٤٣.

(٢) انظر مثلا: ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٢٢٧، والغرناطي، المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٣، وص٤٥٦ ، والبقاعي، المصدر نفسه، ج٧،ص١١٤، وج ٨،ص١٠-١١، وص٢٣٨، وج١٩،ص٤١٤-٤١٥، و محمد أبا موسى، خصائص التراكيب، ص٣٢.

(٣) يُذكر أنّ السامرائي اعتمد هذه القاعدة في جميع كتبه البيانية، ولقد أسّس عليها مباحث، وخصوصا ما في كتابه: بلاغة الكلمة في المرجع نفسه.

المبحث السادس: المتشابه اللفظي في المفردات المتماثلة

كثر الحديث عن همزة الاستفهام وأحكامها، وخصوصا ما يترتّب على الكلمة التي تليها من أحكام ودلالات. قال عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أنّ (الهمزة) فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكارٌ له لِمَ كان، وتوبيخ لفاعله عليه"(١). وذكر فضل عباس للهمزة مجموعة من الأحكام، وأهمها: أنّ المسؤول عنه يجب أن يَلِيَها مباشرة، وغير ذلك من الأحكام(٢).

ذكرت ذلك؛ لأنّ المفردة التي سأعرض لها اقترنت بهمزة الاستفهام أربع مرات في كتاب الله عز وجل، وفي كُلِّ مرّةٍ من هذه الأربع، حملت دلالات وأبعادا بلاغية ليست في واحدة من مثيلاتها الأُخَر.

قال تعالى: ﴿ ويَقولُ الذينَ آمنوا **أهؤلاءِ** الذينَ أقسَموا باللهِ جهدَ أَيْمانِهِم إنَّهُم لَمَعَكُم حَبِطَتْ أعمالُهم فأَصبحوا خاسرين﴾ المائدة:٥٣

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقال تعالى: ﴿ وكذلكَ فتنّا بعضَهُم ببَعضٍ لِيَقولوا **أهؤلاءِ** مَنَّ اللهُ عليهِم من بينِنَا أليسَ اللهُ بِأَعلمَ بالشاكرينَ(٥٣) ﴾ الأنعام:٥٣

وقال تعالى:﴿ **أهؤلاءِ** الذينَ أقسَمتم لا يَنالُهمُ اللهُ بِرحمةٍ ادخلُوا الجنَّةَ لا خوفٌ عليكُم ولا أنتم تحزنونَ(٤٩) ﴾ الأعراف:٤٩

وقال تعالى:﴿ ويومَ يحشُرُهم جميعاً ثُمَّ يقولُ للملائكةِ **أهؤلاءِ** إيَّاكُم كانوا يعبُدونَ(٤٠) ﴾ سبأ:٤٠.

---

(١)الجرجاني، دلائل الإعجاز،ص١١٤،وانظر ما يلي هذه الصفحة من أحكام أيضا.

(٢)انظر تفصيل الحديث عن الهمزة وأحكامها من: فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها(علم المعاني)،ص ١٦٨-١٧٩.

ورد اسم الإشارة ﴿هؤلاء﴾ مسبوقا بهمزة الاستفهام أربع مرات في القرآن الكريم، وقد تتبعت سياق الآيات التي جاء فيها، فألفيته ذا صورة تشخيصية تكتنفها الإيحاءات غير المتناهية. فإذا كان اسم الإشارة مسؤولا عن تشخيص الصورة وتجسيمها، فإن حرف الاستفهام صبغها بالإيحاءات والدلالات. وفضلا عن التشخيص ودلالات حرف الاستفهام، فإن أسلوب المقابلة والمفارقة أسهما معا في اكتمال الصورة وتوسيع دلالاتها.

ولقد أفدت مما قاله المفسرون في هذه الآيات، ولكنّي لم أجد منهم مَن عُنِيَ باستخراج المتشابه فيها، فلمّا جمعتُ ما قالوا، نحوت منحى آخر لم يلتفتوا إليه، فقد فسّروا الآيات واستخرجوا كثيرا من الدلالات والإيحاءات، ورُحْتُ أجمعُ عناصرَ الصورة الفنية في لفظة ﴿أهؤلاء﴾، أُرتّبها وأُنسّقها، وأبحثُ لها عن خلفية متناسقة تكون كفيلة بأن تتناغم ودلالاتها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

فآية المائدة تتحدث عن الخبث والنفاق، وقد تقدم هذه الآية نهي صريح للمؤمنين عن اتّخاذ اليهود والنصارى أولياء، ولكنّ الآيات أشارت إلى فريق من المنافقين لم يُحافظوا على ميثاقهم مع الله – وبهذا يظهر تناسبها مع مقصود السورة – وإنّما يُسارعون في موالاة اليهود والنصارى خشية الدوائر.

وعليه فقد انقسم النص من البداية إلى ثلاث فرق: فريق المؤمنين الصادقين، وفريق اليهود والنصارى، وفريق المنافقين. واضطلع الحوار بدور رئيس في الكشف عن ملامح هذه الفرق الثلاث قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا **الَّذِينَ آمَنُواْ** لاَ تَتَّخِذُواْ **الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى** أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ** يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢) ويَقولُ الذينَ آمنوا **أَهؤُلاءِ** الذينَ أَقسَموا باللهِ جهدَ أَيمانِهِم إِنَّهُم لَمَعَكُم

حَبِطَتْ أعمالُهم فَأصبحوا خاسرينَ(٥٣) ﴾

وجَــرْيا علـــى سنن القرآن الكريم فإن العاقبة للمتقين، وإن الظلم لن يدوم، وتدور الدوائر ولكنها في هذه المرة لصالح المؤمنين، وباللفظة الموجزة ﴿أهؤلاء ﴾ ذي الــدلالات الواسعة يُعيدُنا التاريخ إلى ماضي الدعوة الإسلامية، وصراعها مـــع أئمة الكفر أيام مكة والمدينة(١) . وسواء أكانت المناسبة في بني قينقاع أم في بنـــي النضير أم في بني قريظة أم في غيرهم، فهي على خصوصيتها ذات مشهد عـــام مـــتكرر في كل زمان ومكان، ومُكْتَنزا بالإرشادات والتوجيهات المتعلقة في جانب الولاء والبراء.

وهـــذا الخطاب من المؤمنين سواء أكان هو الآخر للمؤمنين فيما بينهم، أم لـــيهود والنصـــارى، أم للمنافقين، فإن فيه استدعاء واستحضارا تجسيديا لصورة أولئك الذين يسارعون في موالاة الأعداء خشية الدوائر، ليقول المؤمنون " بعضهم لـــبعض تعجـــبا مـــن حال المنافقين وتبجحا بما منّ الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخـــلاص أو يقولونـــه لليهود، فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتم لَنَنْصُرَنَّكم﴾الحشر:١١ "(٢).

فلفظة ﴿أهؤلاء﴾ استدعت لنا صورة المنافقين وصورة اليهود والنصارى في استفهامٍ خرج عن مقتضى الظاهر إلى جملة من المعاني هي:

أولا: التعجـــب: تَعَجُّبِ المؤمنين من نفاق هذا الفريق، وكذبهم واجترائهم على الله

---

(١) انظر مناسبة هذه الآيات من: ابن الجوزي، عبد الرحمن، (ت٥٩٦هـــ). زاد المسير في علم التفسير، ط٣ ، ١٠م، المكتب الإسلامي، عمان، ١٩٨٤م، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٠ ، وابن كثير، أبي الفداء إسماعيل، (ت٧٧٤ هـــ). تفسير القرآن العظيم، ط١، ١٥م، (تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرين)، مؤسسة قرطبة، ٢٠٠٠م،ج٥ ، ص٢٥٤-٢٥٦ ، والقاســمي، محمد جمال الدين، (ت١٣٢٢هـــ). محاسن التأويل، ط١، ٧م، (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٤م، مج٣، ص١٤٦-١٤٩ ، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج٢، ص٩١٧.

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٢، ص١٣١.

فـــي أيْمـــانهم الكاذبـــة وقولهـــم: ﴿وإن قوتلتم لَنَنْصُرَنَّكم﴾الحشر:١١، وقد يكون التعجـــب فـــيما بيـــن المؤمنين أنفسهم. أو في خطاب المؤمنين لليهود، وقد ظهر للمؤمنيـــن مـــا يُكشَف به أمرُهم، فيعجبون من حلفهم على الإخلاص لهم، أو من قسمهم لليهود([1]).

ثانـــيا: الفـــرح والاغتـــباط: فقد فرح المؤمنون واغتبطوا بمصير المنافقين، ومَن صدَّقهم([2]).

ثالـــثا: التـــبجح(بمعـــنى الافـــتخار): يفتخر المؤمنون في ما بينهم بمصير هؤلاء المنافقيـــن، وبنصر الله الذي كشف لهم ما استتر من أمر هذا الفريق، وبما مَنَّ الله علـــيهم مـــن التوفـــيق فـــي الإخـــلاص والصبر، إلى أن جاءهم الفتح، وتكشفت النوايا([3]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

رابعـــا: التشـــفي والتوبيخ: أي قال المؤمنون لليهود على جهة التشفي والتوبيخ: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم سيعينونكم على محمد.

خامسا: الاستهزاء: وكأن المؤمنين يُشيرون إلى المنافقين أو إلى اليهود ﴿أهؤلاء﴾ مستهزئون من مصيرهم([4]).

سادســـا: الـــتقريع: إن إشـــارة المؤمنين ﴿أهؤلاء﴾ فيها تقريع للمخاطَبين، سواء

([1]) انظـــر: الطـــبري، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٣٥ ، والطوسي، أبا جعفر محمد بن الحسن،(ت٤٦٠هـــ). تفسير البيان،١٠م،(تصحيح وترتيب أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير)، مكتبة الأمين، النجف الأشرف، مـــج٣،ص٥٤٥ ، والـــرازي، التفسير الكبير، مج٤،ص٣٧٦، و البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٢، ص١٣١ ، والبقاعـــي، المصـــدر نفســـه،ج٦،ص١٩٠ ، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم،ج٢،ص٢٨٦- ٢٨٧ ، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦،ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢)انظر الزمخشري، المصدر نفسه،ج١،ص٦٣٠ ، والبقاعي، المصدر نفسه،ج٦،ص١٩٠.

(٣)انظر البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٢، ص١٣١، والخفاجي، عناية القاضي،ج٣، ص٤٩٣.

(٤) انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

أكانوا من المنافقين أم من اليهود([١]).

ســـابعا: التنبيه: أي يُنبِّه المؤمنون بعضهم بعضا من هذه الفئة التي تعيش بينهم، وتحلـــف بالله إنها لَمِن المسلمين، فقد افتُضِحَ أمْرُهم، وانكشفت أسرارُهم، فلم يكن إسلامهم وأيْمانهم إلّا تَقِيَّة ونفاقا([٢]).

ثامـــنا: التعريض: ويكون عند حديث المؤمنين فيما بينهم ﴿أهؤلاء﴾ أي مُعَرِّضين بالمنافقين الذين سبق وصفهم([٣]).

تاسعا:الاستحقار: أي هؤلاء الحقيرون، لقد بالغوا في الاجتراء على عظمة الله([٤]).

عاشـــرا: خيبة الرجاء: يُشير المؤمنون بذلك إلى خيبة رجاء اليهود في تصديقهم للمنافقيـــن، أو إلـــى خيـــبة رجاء المنافقين من مصير اليهود، وقد ظنُّوا أن الغلبة ستكون لهم على محمد صلى الله عليه وسلم([٥]).

حـــادي عشر: التقرير والتعجب: أي ما أحبطَ أعمالَهم! فما أخسَرَهُم! ألم تكن لهم قلوب وعقول تُرشِدُهم إلى اتباع الحق، واجتناب الباطل وأهله([٦]).

ثاني عشر: الإنكار: أي يُنكِر المؤمنون ما كان من أمر المنافقين، واجترائهم على الله في الأيْمان الكاذبة([٧]).

---

(١)انظر أبا السعود، المصدر نفسه،ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢)انظر البقاعي، المصدر نفسه،ج٦،ص١٩٠.

(٣)انظر أبا السعود، المصدر نفسه،ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٤)انظر البقاعي، نظم الدرر،ج٦، ص١٩٠.

(٥)انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم،ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٦)انظر أبا السعود، المصدر نفسه،ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٧)انظر البقاعي، نظم الدرر،ج٦، ص١٩٠.

ومِمّا تقدّم يتبين لنا أنّ التعجب هو المعنى الجامع، والمعاني الأخرى مُتولّدة مـــن هذا المعنى، ومحل العجب هو قسمهم وأيمانهم أنّهم مع اليهود، ولقد كان من أمـــر يهـــود ما كان، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَـــدًا وَإِن قُوتِلْـــتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١١)لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ(١٢)﴾ الحشر:١١-١٢.

وفـــي الحديث عن آية الأنعام يقول الشعراوي مُعلّقا: " والوجود الذي نراه مبنـــي كلـــه على المفارقات "(١). وبقوله هذا، يقودنا إلى مدخل طيّب في تعرُّف صورة ﴿أهؤلاء﴾، فالله سبحانه وتعالى قد شبه ابتلاء هذه الأمة واختبارها بابتلاء الأمم السالفة؛ أي حال هذه الأمة بحال الأمم السابقة في فتون بعضهم ببعض، فهو عـــزّ وجل يمتحن الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، فيختبر صبر الفقراء على مـــا يـــرون مـــن حال الأغنياء وإعراضهم عنهم إلى طاعة الرسل، ويختبر شكر الأغنـــياء، أو يبتلـــي المؤمنين بالمشركين فيما يُلاقونه من ضروب الأذى، ويبتلي المشـــركين بالمؤمنين: وذلك أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوما لا شرف لهـــم قد عظّمهم هذا الدين، وجعل لهم عند نبيّه قدرا ومنزلة. وترتّب على ذلك أنّ الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد آمن قبله أنِفَ أن يُسلِم، ويقول سبقني هذا؟ وعلى العمـــوم فإن كل واحد من الفريقين مبتلى بصاحبه على نحو ما، ليومئ لنا الله عز وجل بأن ما اغتر به الأغنياء أو المشركون من النعم لن يدوم، ولا يبقى المؤمنون علـــى الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال، فيُسلَبَ الأقوياء ما أُعطُـــوا مـــن قوة ومال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الأئمـــة الوارثـــون ﴿ وإذ تـــأذّن ربُّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾إبراهيم:٧(٢).

---

(١)الشعراوي، تفسير الشعراوي،مج٦،ص٣٦٥٢.

(٢)انظر الطوسي، المصدر نفسه، مج، ص١٥٦، وابن عطية، المحرر الوجيز،ج٥،ص٢٠٧، وابن الجوزي،

ومـــنه يتبيـــن لنا أن لفظة ﴿أهؤلاء﴾ تتوسط بين الأشراف والأغنياء وبين الضـــعفاء والفقـــراء، في أسلوب بلاغي يقوم على المقابلة والمفارقة؛ إذ إنّ وجود هـــذه اللفظة يُعطي الملامح الشكلية والفكرية لكلا الطرفين، وتجعل القارئ يُشاهد رأيَ العين، مصير مَن ابتلاه اللهُ فنجحَ وصبر، ومن ابتلاه فضجر وكفر.

وكأنّ الاستفهام المتصدّر للفظة﴿هؤلاء﴾ في سورة الأنعام يقرب في معناه من الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عليهِ مِن بَيْنِنا﴾القمر:٢٥ فهو مع اسم الإشارة يُفيد مجموعة من الدلالات منها:

أولا: التعجـــب: وهـــو المعـــنى الأول، فالأغنياء أو الشرفاء يتعجبون من مصير الضـــعفاء مـــن المؤمنيـــن الذيـــن لـــم يكن لهم حول ولا قوة أمام عنجهية الكفر وغطرسته(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانـــيا: الإنكار: ولا يقلُّ الإنكار في رتبته عن التعجب في هذه الآية، فهو والتعجب فـــي لحمـــة واحدة، صِنوان لا يفترقان؛ فهم ينكرون أن يمُنّ اللهُ بالإنعام على هذا الفـــريق مـــن الفقـــراء الضـــعفاء أمثال: خبّاب، وابن مسعود، وصُهيب، وعمّار، والمِقـــداد، وبلال وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. وهذا قولهم ودَيْدَنُهم، فقد قالوا فـــي رســـول الله صلى الله عليه وسلم، منكرين ومتعجبين: ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ علـــى رجُلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾الزخرف:٣١ ، فيَرُدّ الحق تبارك وتعالى عليهم فـــي سورة الأنعام بأُسلوب التأكيد والتقرير: ﴿أليس اللهُ بأعلمَ بالشاكرين﴾الأنعام: ٥٣، فـــالهدى مـــن الله، والـــثّواب والجزاء لا يتعلق -كما يقول سيد قطب-: بقيم

زاد المســـير فـــي علـــم التفسير،ج٣، ص٤٧، والرازي، المصدر نفسه،مج٤،ص٥٤٣، والقرطبي، المصدر نفســـه،ج٦، ص٢٨٠، وأبا حيان، المصدر نفسه،ج٤، ص٥٢٥، والمراغي،أحمد مصطفى، (ت ١٣٧١هـــ). تفسير المراغي، ١٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٧،ص١٣٦-١٣٧.

(١)انظر ابن عاشور، المصدر نفسه،ج٦،ص٢٥٤.

الأرض الصغيرة، وغير مُهمٍّ مَن يكونوا([1]).

ونظـير هـذا الجواب قوله تعالى في سورة الزخرف، ردّاً على قولهم في رسـول الله: ﴿ أهم يَقسمون رَحمَةَ ربِّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياةِ الدنيا ورفعنا بعضهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتَّخِذَ بعضُهم بعضا سُخريّاً ورحمتُ ربِّكَ خيرٌ ممّا يجمعون ﴾الزخرف: ٣٢.

ثالـثا: الاستفهام: أي وكأن الله جعل هذا الأمر، وما آل إليه على هذا النحو؛ كي يقولوا في أنفسهم، مصرحين أو مخفين، فيؤمنوا بالله([2]).

رابعـا: السـخرية و الاسـتهزاء: ويحتمل أن تكون الإشارة من باب الاستخفاف والهزء، على نحو من التفخيم ﴿أهؤلاء﴾([3]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

خامسـا: التحقـير: ولمّا تعاموا عمّا هو مناط التفضيل حقيقة، ونظرا إلى ما بين الفريقيـن مـن تفاوت فاحش في الدنيا، فقد أشار الأغنياء إلى الفقراء محقرين لهم ([4]).

سادسـا: الاسـتحقاق: وذلـك بأن تكون اللام في ﴿ليقولوا﴾ بمعنى الصيرورة، فـيكون المعـنى أن فقـرهم وضعفهم صيَّرهم ذا مكانة عند الله يستحقون بها هذه الـنعم، فـإن قـالوا ذلـك على ما أراده الله فهم مطيعون، وإن قالوه منكرين فهم عصاة([5]).

---

(١)انظـر سـيد قطب، المصدر نفسه،ج٢،ص١١٠١. وانظر معنى الإنكار في هذه الآية بشكل عام من ابن الجوزي، المصدر نفسه،ج٣، ص٤٧،و القرطبي، المصدر نفسه، ج٦،ص٣٨٠، والبيضاوي، المصدر نفسه،ج ٢،ص١٦٤ ،وأبـاحـيان، المصـدر نفسه،ج٤،ص٥٢٥-٥٢٦، والبقاعي، المصدر نفسه،ج٧،ص١٢٩، وابن عاشور، المصدر نفسه،ج٦، ص٢٥٤.

(٢)انظر ابن عطية، المصدر نفسه،ج٥،ص٢١٢،وأبا حيان، المصدر نفسه،ج٤،ص٥٢٦.

(٣)انظر ابن عطية، المصدر نفسه،ج٥،ص٢١١.

(٤)انظر أبا السعود، المصدر نفسه،ج٢،ص٣٩٠،وابن عاشور، المصدر نفسه،ج٦،ص٢٥٤.

(٥)انظر الطوسي،المصدر نفسه،مج٤،ص١٥٨، وأبا حيان، المصدر نفسه،ج٤،ص٥٢٥-٥٢٦.

سـابعا: السـخط وعدم الرضا: لا شك في أنّ إشارتهم هذه أفادت أنهم ساخطون وغـير راضـين عـن هذا المعيار في التفاضل الذي جعل الأمور تؤول إلى هذا المصير.

إن إفـادة الاسـتفهام للتعجب والإنكار، واستعمال اسم الإشارة في التحقير والتعجيـب قـد أكسـبا النص صورة حيَّة مُفْعَمَةً بالحوار بين فريقين رئيسين في الصـراع المُجْتَمعي المُتَمَثِّل في الطَبَقِيَّة، وكأن هذه اللفظة على وجازتها قد رفعت السِّـتار عـن بنية المجتمع وتركيبته الاجتماعية والثقافية والنفسية، من لدن بعث الخلـيقة إلى قيام الساعة، فهي صورة حركية، ولكنها تبدو في استمراريتها نمطية ثابـتة، ولمّا كانت من الخطورة على جسم الدعوة بمكان، فقد لزم معالجتها وتبيان مشكلها فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَـا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِيـنَ(٥٢)وَكَذَلِـكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَـؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣)﴾ المائدة: ٥٢-٥٣

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى أن تأخير المشار إليه(الضعفاء) عن الإشـارة (كذلـك) اسـتعمال بليغ في مقام التشويق([1])؛ حيث تعلّق القارئ فتجعله ينـتظر ما الذي ستشير إليه. ويزيدك تطلُّعا وانتظارا أن الكاف في (وكذلك) يُقصَدُ مـنها " التعجيب من المُشَبَّه بأنه بلغ الغاية في العجب – بمعنى أنّنا – فتنا بعضهم بـبعض فتونا يرغب السامع في تشبيهه وتمثيله لتقريب كنهه، فإذا رام المتكلّم أن يقربه له بطريقة التشبيه لم يجد له شبيها في غرائبه وفظاعته إلا أن يشبهه بنفسه، إذ لا أعجب منه على حد قولهم: والسفاهة كاسمها "([2]).

([1])انظر ابن عاشور، المصدر نفسه،ج٢،ص١٧،

([2])ابـن عاشور، المصدر نفسه،ج٦،ص٢٥٣، وانظر تفصيل القول في (وكذلك) من: ابن عاشور، المصدر نفسه،ج٢،ص١٤-١٧.

وفـــي مشهد آخر من سورة الأعراف، قال تعالى:﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَـأَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ بَيْـنَهُمْ أَن لَّعْـنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(٤٤)الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَـبْغُونَهَا عِوَجًـا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ(٤٥)وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(٤٦)وَإِذَا صُـرِفَتْ أَبْصَـارُهُمْ تِلْقَـاء أَصْـحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٧)وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٨)**أَهَـؤُلاء** الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَـنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩)وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُـواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠)الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٥١)﴾ الأعراف:٤٤-٥١.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

تقـــرر آيـــة الأعـــراف معنى عظيما يقرب من المعنى الذي قررته سورة الأنعام في الآية التي كنا بصددها، وهو التأكيد على أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن الـــتقدم والـــتأخر على حسبه، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يـــتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، فلا اعتبار للجاه والسلطان أو للفقر والغنى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الحجرات:١٣([1]).

([1])وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبد المطلب، إني لا أملك لكـم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم "البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، (ت٢٥٦هـ).صحيح الـبخاري،ط٢،دار السلام، الرياض،١٩٩٠م، ص٨٣٧، برقم(٤٧٧١)، والترمذي، أبو عيسى محمد،(ت٢٧٩ هـــ) . ســنن الترمذي،ط٤،١م، (تحقيق محمد حسن نصار)، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٠م،ج٤، ص ١٨٥-١٨٦ بـرقم: (٣١٨٤)، وكذلك ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "...ومن أبطـأ به عمله لم يسرع به نسبه ". النيسابوري، مسلم، (ت٢٦١هـ). صحيح مسلم،ط١،(ترقيم وتبويب محمد تمـيم وهيـثم تميم، ركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م، ص١٢٩٤ برقم: (٦٩٥٢) ، والسجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث،(ت٢٧٥هـ). سنن أبي داود، ط١، (ترقيم وتبويب هيثم تميم، شركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م، ص٨٤١ برقم: (٣٦٤٣) ،و سنن الترمذي، المصدر نفسه،ج٤، ص٤١، برقم: (٢٩٤٥).

ويُفهم من الإلحاح على تأكيد هذا المعنى أن مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، خاصة في بدء الدعوة الإسلامية، كان يُعاني من هذه الآفة، ولا غرو أن يُعالج القرآن هذا المرض المستشري الذي يؤثر في بنية المجتمع وتركيبته، وما يتسبب عنه من نتائج تضر الدعوة والداعية.

ولقد كان علاج ذلك في سورة الأعراف بطريقة قصصية تقوم في أساسها على الحوار، ففي مشهد من مشاهد الآخرة يُصنَّفُ الناسُ فيه إلى ثلاثة أقسام: أصحاب الجنة، وأصحاب الأعراف، وأصحاب النار. ويكفي القارئ في هذا المقام أن ينظُرَ في معاني نداء كل صنف، فسيجد أن أهل الجنة وأهل الأعراف يسخرون من أهل النار، بينما الصوت الآتي من جهة النار ملؤه الرجاء والاستجداء، ليكون الرد الشافي ذو التذكير الأليم المرير ﴿إنَّ اللهَ حرَّمهما على الكافرين﴾الأعراف: ٥٠(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

هذا مشهد قصصي ذو عناصر فنية مكتملة يُحاول أن يُصحح وجهة النظر في معايير التقدم والتأخر عند الناس، ولكنه في هذه المرة بدأ من المصير النهائي، وما يُمكنُ أن يُفيدَ في تجديد معاني الوعظ والإرشاد.

وقراءة الآية التي نحن بصددها، فضلا عمّا قبلها وما بعدها، يجعلنا نلحظ بوضوح مدى المفارقة التي بُني عليها الحدث؛ فنحن أمام فريقين: رؤساء أو أغنياء، أصحاب سلطة وقوة دنيوية شاخصة، وفريق الفقراء الضعفاء من المؤمنين. والفريقان: الأغنياء والضعفاء هما أنفسهما موضوع آية الأنعام التي عرضتُ لها من قبل.

إن لفظة ﴿هؤلاء﴾ في هذه الآية قد تكون من تتمة قول أصحاب الأعراف للرجال:﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ

---

(١)انظر سيد قطب،في ظلال القرآن،ج٣،ص١٢٩٣-١٢٩٤.

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٨)**أَهَـؤُلاء** الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩)﴾ الأعراف:٤٨-٤٩([1]). وسواء أكانت من تتمة قول أصحاب الأعراف، أم من خطاب الله أم الملائكة، فإن الخطاب مُوَجَّهٌ لأهل النار، والمقصود باللفظة هم الضعفاء، وقد تضمن الخطاب فيما تضمنه مجموعة من المعاني هي: التوبيخ، والتقريع، والتحزين، والتيئيس، والتعجب والإنكار على أهل النار، بسبب تحقيرهم لأناس ضعفاء أصبحوا من أهل الجنة. لقد وُبِّخوا ولكنْ، ممّا زادهم حسرة و غمّاً -كما يقول القرطبي- بأنْ قيل لهؤلاء الضعفاء ادخلوا الجنة([2]). والتفت البقاعي إلى معنى بديع آخر حين قال- وهو متنبه يقظ إلى دور التشخيص في المعنى الدلالي الذي اجتُرِحَ من لفظة ﴿أهؤلاء﴾ -:" وكأنه (أي الله عز وجل) يكشف لهم(لأهل النار) عنهم(الضعفاء) حتى يروهم **زيادة** في عذابهم "([3]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فالمعنى الجامع إلى الآن هو توسط لفظة ﴿أهؤلاء﴾ وما ينتج عنها من دلالات أسلوبية بين فريقين رئيسين في الحوار هما: فريق أصحاب الجنة، وفريق أصحاب النار، وإجراء الحوار بينهما بأسلوب تشخيصي يكشف عن مجموعة من المعاني أهمها: معيار التفاضل الحقيقي بين الناس.

وتتناغم آية سبأ مع الآيات الثلاث من سورة المائدة والأنعام والأعراف، فيَحْشُرُ الله الفريقين: المستكبرين والمستضعفين في مشهد آخروي لمناقشة الحساب، فيكشف لنا الخطاب الربّاني عن لون من ألوان الشرك بالله يتعلّق بادّعاء عبادة الملائكة، أو عبادة الجن.

([1])انظر البيضاوي،أنوار التنزيل،ج٣،ص١٤-١٥.

([2]) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج٧،ص١٣٨.

([3])البقاعي،نظم الدرر،ج٧،ص٤٠٧.

وتقـــوم لفظـــة ﴿أهؤلاء﴾ بتشخيصِ عذابِ هؤلاء المستكبرين، فتحمل بين ثـــناياها جملـــة مـــن معاني عذاب من استكبر عن عبادة الله، وسَخرَ من الضعفاء الفقراء في عبادتهم لله عز وجل، فيُخاطبُ اللهُ الملائكة بهذا الاستفهام، ويقصد إلى جملـــة من المعاني أهمها: تقريع المشركين، وتبكيتهم، مع توبيخ وإهانة واضحة، بحيث تقود إلى اليأس والقنوط من شفاعة منْ كانوا يرجون شفاعتهم من الملائكة. على أن في طريقة السؤال والجواب تقريعا شديدا، وفيها أيضا أبلغ التعيير وأعظم التخجـــيل، وفي ذلك الزجر للجاهلين، والاقتصاص من الكافرين، والتنبيه للغافلين. على مثلِ الاستفهام في قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخذوني وأُمِّـــي إلهيـــنِ منْ دونِ اللهِ﴾المائدة:١١٦. وقد علم سبحانه وتعالى كون الملائكة وعيســـى منزهيـــن بـــرآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، فالمقصود من الاستفهام إقامة الحجة على نحو من التعريض البلاغي على طريقة المثل: (إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة). وقد أورد أغلب المفسرين هذه المعاني.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وربّما تختلف آية سبأ عن سابقاتها الثلاث في كون الفريقين الرئيسين اللذين تفصل بينهما لفظة ﴿أهؤلاء﴾ هما: فريق المستكبرين، وفريق الملائكة. ومع هذا الاخـــتلاف إلا أن عناصر التشابه هي الأخرى كثيرة بين الآياتِ موضع الدَّرْس؛ فالمشـــهد آخروي، ومن مشاهد القيامة، ومصير المستكبرين المشركين بالله واحد، والمعانـــي التـــي خرج إليها الاستفهام المتصدّرُ لاسم الإشارة يكاد يكون متقاربا، علـــى أن الضـــعفاء وإن اســـتتروا في آية سبأ، إلا أنّ لهم حضورا مُتَخَيَّلا، وهو مصـــيرهم وحسن ختامهم على المعنى المُجْتَرَح من وجه المخافة، فهم لم يشركوا بالله عز وجل، وثَبَتوا على إيمانهم. ليَعودَ النص إلى المقارنة بين مصير الفريقين: الأغنياء المتكبّرين الذين أشركوا بالله، وبين الضعفاء من المؤمنين. ولكنَّ الخطاب فـــي آيـــة سبأ أولى جانب المستكبرين مزيدا من التوبيخ والتقريع الذي غاب عنه الضعفاء حقيقة، وإن كان ظِلُّ حُضورهم ماثلا للعيان(١).

---

(١)وتتمّة للفائدة انظر تفسير آية المائدة من : الطبري، جامع البيان،ج٦،ص٣٣٥-٣٣٦، والطوسي، تفسير البيان،مج٣،ص٥٤٤-٥٤٥،والزمخشري،الكشاف،ج١،ص٦٣٠، وابن عطية،المحرر الوجيز،ج٤،ص٤٨٣-

٤٨٦، وابـــن الجـــوزي،زاد المســـير،ج٢،ص٣٧٩-٣٨٠، والـــرازي، التفســـير الكبـــيرمج٤،ص٣٧٦، القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،ج٦،ص١٤١-١٤٢،والبيضاوي،أنوار التنزيل،ج٢،ص١٣١، وأبا حيان، البحر المحيط،ج٤،ص٢٩٤-٢٩٦، وابن كثير،تفسير القرآن العظيم،ج٥،ص٢٥٤-٢٥٦، والبقاعي، نظم الدرر،ج٦ ،ص١٩٠، وأبـــا السعود،إرشـــاد العقل السليم،ج٢،ص٢٨٦-٢٨٧، والخفاجي، عناية القاضي،ج٣،ص٤٩٣، والشـــوكاني، محمد بن علي، (ت١٢٥٠هـــ). فتح القدير، ط٢، ٦م، (تحقيق وتخريج عبد الرحمن عميرة)، دار الوفـــاء، مصر، ١٩٩٧م، ج٢،ص٧٢، والألوسي، روح المعاني،ج٦،ص٤٤٧-٤٤٨، والقاسمي،محاسن الـــتأويل،ج٣،ص١٤٥-١٤٦، ومحمـــد رشـــيد رضا،تفســـير المنار،ج٦،ص٤٢٢-٤٢٣، والمراغي، تفسير المراغـــي،ج٦،ص١٣٨، وابـــن عاشـــور، الـــتحرير والتنوير،ج٦،ص٢٣٣-٢٣٤، وسيد قطب، في ظلال القرآن،ج٢،ص٩١٧، والشعراوي، تفسير الشعراوي،مج٥،ص٣٢٠١-٣٢٠٢.

وانظـــر تفسير آية الأنعام من: الطبري،المصدر نفسه،ج٧،ص٢٣٩-٢٤٠، والطوسي،المصدر نفسه،مج،ص ١٥٦-١٥٨، والزمخشري،المصدر نفسه،ج٢،ص٢٧، وابن عطية،المصدر نفسه، ج٥،ص٢٠٧-٢١٢، وابن الجوزي،المصدر نفسه، ج٣،ص٤٧-٤٨، والرازي،المصدر نفسه، مج٤، ص٥٤٣-٥٤٤، والقرطبي،المصدر نفسه، ج٦، ص٢٧٩-٢٨٠، والبيضاوي،المصدر نفسه، ج٢،ص١٦٣-١٦٤، وأبا حيان،المصدر نفسه، ج٤ ،ص٥٢٥-٥٢٦، وابن كثير،المصدر نفسه، مج٦،ص٤٦، والبقاعي،المصدر نفسه، ج٧،ص١٢٩-١٣٠، وأبا السعود،المصـــدر نفســـه، ج٢،ص٣٨٩-٣٩٠، والخفاجي،المصـــدر نفســـه، ج٤،ص١٠٧-١٠٨، والشوكاني،المصـــدر نفسه، ج،ص، والألوسي،المصدر نفسه، ج٧،ص٢١٠-٢١١، والقاسمي،المصدر نفسه، مـــج٣،ص٣٢٣-٣٢٤، والمراغي،المصدر نفسه، ج٧،ص١٣٦-١٣٧، وابن عاشور، المصدر نفسه،ج٦،ص ٢٥٣-٢٥٤، وسيد قطب،المصدر نفسه، ج٢،ص١١٠٠-١١٠١، والشعراوي،المصدر نفسه، مج٦،ص٣٦٥١ -٣٦٥٤. (ولمـــزيد مـــن الـــنظر فـــي دلالات التوجيه الربّاني وما ترشد إليه آية الأنعام انظر أيضـــا: مجلة الوعي،لبـــنان،س١٧،ع١٩١،ذو الحجـــة١٤٢٣ الموافـــق لـــ:شباط٢٠٠٣م(مع القرآن الكريم:ولا تطرد الذين يدعون ربهم)ص١٥-١٦.

وانظر تفسير آية الأعراف من: الطبري،المصدر نفسه،ج٨،ص٢٣٤-٢٣٦، والطوسي،المصدر نفسه، مج٤ ،ص٤٤٤-٤٤٥، والزمخشري،المصدر نفسه، ج٢،ص١٠٣-١٠٤،وابن عطية،المصدر نفسه، ج٥، ص٥١٨ -٥١٩، وابـــن الجوزي،المصـــدر نفســـه، ج٣،ص٢٠٧، والرازي،المصـــدر نفســـه، مـــج٥،ص٢٥١، والقرطبي،المصـــدر نفســـه، ج٧، ص١٣٧-١٣٨، والبيضاوي،المصـــدر نفســـه، ج٣،ص١٤-١٥، وأبـــا حيان،المصدر نفسه، ج٥،ص٦٠-٦١، وابن كثير،المصدر نفسه،مج٦،ص٣١٤، والبقاعي،المصدر نفسه، ج٧ ،ص٤٠٧، وأبـــا السعود،المصـــدر نفســـه، ج٢،ص٤٩٦، والخفاجي،المصـــدر نفســـه، ج٤،ص٢٨٧، والشوكاني،المصـــدر نفسه، ج،ص، والألوسي،المصدر نفسه، ج٧،ص٥٠٩، والقاسمي،المصدر نفسه، مج٣ ،ص٥٣٧، ومحمد رشيد رضا،المصدر نفسه، ج٨،ص٤٣٦-٤٣٧، والمراغي،المصدر نفسه، ج٨،ص١٦٢، وابـــن عاشور،المصـــدر نفســـه، ج٨(القســـم الثانـــي)،ص١٤٦،وسيد قطب،المصدر نفسه، ج٣،ص١٢٩٣، والشعراوي،المصدر نفسه، مج٧،ص٤١٥٢.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وانظـر تفسير آية سبأ من: الطبري،المصدر نفسه،ج٢٢،ص١٢١، والطوسي،المصدر نفسه، مج٨،ص٤٠٢ ،والزمخشري،المصـدر نفسه،ج٣،ص٥٦٩-٥٧٠،وابن عطية،المصدر نفسه، ج١٢،ص١٩٧-١٩٨، وابن الجوزي،المصـدر نفسـه، ج٦،ص٤٦٣، والرازي،المصدر نفسه،مج٩،ص٢١١-٢١٢، والقرطبي،المصدر نفسه،ج١٤، ص١٩٧، والبيضاوي،المصدر نفسه، ج٤،ص٢٤٩،وأبا حيان،المصدر نفسه، ج٨،ص٥٥٦،وابن كثير،المصـدر نفسه، مج١١،ص٢٩٤،و البقاعي، المصدر نفسه،ج١٥،ص٥١٩-٥٢٠، وأبا السعود،المصدر نفسـه، ج٥،ص٢٦٣،و الخفاجي،المصـدر نفسـه، ج٧،ص٥٥٥، والشوكاني،المصـدر نفسـه، ج،ص، والألوسي،المصـدر نفسـه،ج٢٢،ص٤٤٣-٤٤٤، والقاسمي،المصـدر نفسـه،مج٦،ص٢٢-٢٣، والمراغي،المصـدر نفسـه، ج٢٢،ص٩١-٩٢، وابـن عاشور،المصدر نفسه،ج٢٢،ص٢٢١-٢٢٣، وسيد قطب،المصدر نفسه، ج٥،ص٢٩١١ .

الفصل الثالث: المتشابه اللفظي في الجمل

المبحث الأول: المتشابه اللفظي فيما يُشبه رد العَجُز على الصدر

المطلب الأول: التقديم والتأخير في الفاعل

المطلب الثاني: التقديم والتأخير في المفردات

المطلب الثالث:التقديم والتأخير في الضمائر

المبحث الثاني:المتشابه اللفظي في تقديم الجار والمجرور وتأخيره

المطلب الأول: اختلاف مُتَعلَّق الخبر في جملتين متشابهتين

المطلب الثاني: الفصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في التكرار الجُملي

المطلب الأول: التكرار الجملي في ما جاء على حرفين

المطلب الثاني: التكرار الجملي في ما جاء على ثلاثة أحرف

الفصل الثالث: المتشابه اللفظي في الجمل

تعرّفنا في الفصل الأول والثاني من هذه الدراسة إلى أضرُبٍ من المتشابه اللفظي في الحروف، ومثله في المفردات. وفي هذا الفصل من الدراسة أُعالِجُ موضوعا لطيف المأخذ، دقيق المغزى، نَظَرا لاتّساعه، واشتماله على حصاد فصلين سابقين. فمن الصعوبة بمكانٍ أن يدرس الباحث الجملة العربية دراسة نحوية بلاغية دون النظر في دلالة حروفها ومفرداتها.

ومع ما تقدّم من تمهيد لهذا الفصل، إلّا أنّ بناء المتشابه فيه عزّ على التبويب وفقا لما هو معروف من تقسيمات للجملة العربية، بسبب ازدحام هذا اللون من المتشابه على أبواب خاصّة من البلاغة، وقلّته في غيرها. من أجل ذلك سلكت طريقا يبَسا، تقوم في مجملها على تقسيم اجتهادي، أساسه المزاوجة بين المفردات النحوية والبلاغية، وإنْ كان للتقديم والتأخير وصنوه التكرار من ذلك القِدْح المُعَلّى، وذلك لكثرة وقوع المتشابه فيهما.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولا جرم، فالتقديم والتأخير أحد أشهرِ أودية البلاغة العربية؛ ولقد كان له حضوره على صفحات كتب النحو والبلاغة، فعرضوا للتقديم بين جزأي الجملة العربية، وكذلك التقديم في المتعلّقات، وما يتفرّع عنهما من أقسام. ولم يغفله أهل التفسير ولا مَن ألّف في المتشابه اللفظي. وفي كشّاف الزمخشري خاصّة مادة خصبة لهذا المبحث(١)، وفيه وفي غيره ممن عُني ببلاغة النظم القرآني لطائف بيانية، ودقائق ذكية، كُلّما قلّبها الباحث وأمعن فيها النظر ألفى كنوزا بيانية ما زالت مركوزة في أعماق كتب التفسير على وجه التحديد، بحيث يُمكنُ أن يؤصّل عليها المرء بعد استخراجها مباحث ذات ألوان متجدّدة.

---

(١) انظر محمدا أبا موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص٣٢٤-٣٤٨، ومشهور مشاهرة، التناسب القرآني، ١٧٣-١٩٥ فقد درست في مبحثٍ من مباحث "التناسب القرآني" جملة من مسائل التقديم والتأخير عند الإمام البقاعي.

وقديمـــا وصفه الجرجاني فقال: " هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصـــرّف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة "([1])، ولقـــد صـــدق ابن الأثير في وصف اتّساعه، وما فيه من أسرار مُتَجَدِّدة حين قال: "وهذا باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة"([2]).

ولمّـــا كانت مادّة المتشابه اللفظي في الجمل مُتَوَزِّعة في مجملها بين التقديم والتأخـــير من جهة، والتكرار الجملي من جهة أخرى، فقد كان لهذا الأخير نصيب مفـــروض هـــو الآخـــر من هذا الفصل. وإذا علمنا أنّ التكرار من المباحث التي ازدهـــرت فـــي ظل الدراسات القرآنية، وأنّه يزخر بالمتشابه اللفظي على صعيد الجملـــة خاصة،أيقنّا أنّه يحتاج إلى دراسات مستقلّة، تكشف النِّقاب، عمّا جاء على حرفيـــن إلـــى ثلاثـــة وعشرين حرفا. ولكن، حسبي في هذا المقام دراسة مثالين: أحدهمـــا يقوم على المتشابه اللفظي في حرفين، والآخر على المتشابه اللفظي في ثلاثـــة حروف. وبذلك أكون قد ضربت للقارئ أمثلة يستطيع القياس عليها إذا ما حاول تتبع جميع ألوان التكرار في المتشابه اللفظي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبكل تواضع، فإنّ هذا غالب ما سيجده القارئ في هذا الفصل من الدراسة، مـــع عدم خُلُوّ ذلك من إشارات وأسرار أرجو أن تكون جديدة في مادّتها، وطريقة عرضها، إن شاء الله تعالى.

([1])الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٦.

([2])انظـــر ابـــن الأثير، ضياء الدين محمد، (ت٦٣٧هـــ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط١، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٣٥.

المبحث الأول: المتشابه اللفظي فيما يُشبه رد العَجُز على الصدر

إنّ مُسَمَّيات المُحَسِّنات البديعية كثيرة، ولعلّ (العكس أو التبديل) و (رد العجز على الصدر) من أقرب هذه الأنواع إلى ما نحن بصدد الحديث عنه، أو التطبيق عليه في هذا المقام.

و(العكس أو التبديل) كما قال الخطيب القزويني: " هو أنْ يُقَدَّمَ جُزءٌ من الكلام ثُمَّ يُؤَخَّر، ويَقَعُ على وُجوه، منها أنْ يَقَعَ بينَ أحَد طَرَفي جملة، وما أُضيفَ إليه نحو: عاداتُ السادات سادات العادات. ومنها أنْ يَقع بين مُتَعَلَّقَي فعلين في جملتين، نحو: يُخرجُ الحيَّ من الميِّت ويُخْرِجُ الميِّتَ من الحي، ومنها أنْ يَقع بين لفظين في طَرَفي جُملتين، نحو: لا هُنَّ حِلٌّ لهم ولا هُم يَحِلُّونَ لَهُنَّ "([1]).

وفي تعريف(رد العجز على الصدر) قال القزويني: " وهو في النثر أنْ يُجْعَلَ أحَدُ اللفظين المُكَرَّرين المُتجانسين، أو المُلحقين بهما في أوّل الفقْرة، والآخَرُ في آخرها، نحو: وتخشى الناس والله أحقّ أنْ تخشاه، ونحو: سائل اللئيم يَرجِعُ ودمعُه سائلٌ، ونحو: استغفروا ربَّكم إنَّه كان غفَّارا...وفي النظم أنْ يكونَ أحَدُهما في آخرِ البيتِ، والآخَرُ في صدرِ المصراع الأوّل، أو آخرِه، أو صدر الثاني..."([2]).

([1]) القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت٧٣٩هـ). التلخيص في علوم البلاغة، (ضبط وشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٣٥٨-٣٥٩. وانظر أيضا: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت٧٣٩هـ). الإيضاح في علوم البلاغة، ط٣، ٢م، (تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي)، دار الجيل، بيروت، ج٦، ص٣٤-٣٦. والسبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مج٢، ص٣٤٣-٣٤٤. والتفتازاني، المُطَوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم، ص٦٥٠-٦٥١. والحنفي، إبراهيم بن محمد، (ت٩٤٣هـ). الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط١، ٢م، (تحقيق عبد الحميد هنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، مج٢، ص٣٩٤.

([2])القزويني، التلخيص، ص٣٩٢-٣٩٣. وانظر أيضا: القزويني، الإيضاح، ج٦، ص١٠٢-١٠٥، والسبكي، عروس الأفراح، مج٢، ص٣٨٧-٣٩١، والتفتازاني، المُطَوّل، ص٦٨٩-٦٩٤، والحنفي، الأطول، مج٢، ص ٤٦٥-٤٧٢

وفي القرآن كثيرة هي الآيات القرآنية التي جاءت في موضعٍ على نظمٍ، وفي آخر على عكسه. ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **وادخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ** ﴾ البقرة:٥٨، وفي الأعراف:﴿ **وقولوا حِطَّةٌ وادخُلوا البابَ سُجَّداً**﴾ الأعراف: ١٦١. وقال تعالى في سورة النساء: ﴿**كونوا قَوَّامينَ بالقسطِ شُهداءَ للهِ** ﴾ النساء:١٣٥، وفي سورة المائدة:﴿ **كونوا قَوّامينَ للهِ شُهداءَ بالقسطِ** ﴾ المائدة:٨. وقال تعالى في سورة القصص:﴿ **وجاءَ رجلٌ من أقصا المدينةِ يسعى** ﴾ القصص:٢٠، وفي سورة يس: ﴿ **وجاءَ مِن أقصا المدينةِ رجُلٌ يسعى** ﴾ يس: ٢٠، وغيره كثير([1]).

والراجح عندي في هذه الدراسة أنّ كلّ تعبير قرآني لا يخلو من حكمة بلاغية، ولكنْ لا بأس أن يذكر الباحثون أنّ التقديم والتأخير مثلا في هذه الآية أو تلك جاء وفقا للتفنن في التعبير القرآني، شرط الكشف عن السرّ البلاغي وراء هذا التفنّن، وعدم الاقتصار على مثل هذه العبارات وحدها. وعليه فإنّ كلام الألوسي، وما شاكله مردود في هذا السياق، حيث يقول: " وبالجملة، التفنن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلم ما لا يخفى، والقرآن الكريم مملوءٌ من ذلك، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام ما لا سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدني، والله يُؤتي فضله من يشاء، وسبحان من لا يُحيط بأسرار كتابه إلا هو"([2]).

وبعد، فإنّ الكلام مهما أبدع المرء في صياغته، والتمهيد من خلاله لموضوعات الدراسة، يبقى تنظيرا، ذلك ما لم يتآخ مع التطبيق العملي؛ فكل مفردة في التقديم، ينبغي عليها أن تتعانق مع دليل تطبيقي يشهد لها، ويكون حجّة في التوضيح على أيّ غموض أو إجمال يُمكنُ أن يسألَ عنه القارئ، وهو بعض ما أرجو القيام به في المباحث التالية.

([1])انظر الزركشي، البرهان، ج٢،ص٢٠٧- ٢٠٨.

([2])الألوسي، روح المعاني،ج١،ص٣٦٥.

المطلب الأول: التقديم والتأخير في الفاعل

قال تعالى: ﴿ واتّقوا يوماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً **ولا يُقْبَلُ منها شَفاعَةٌ ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ** ولا هُم يُنْصَرون﴾ البقرة: ٤٨.

وقال تعالى: ﴿ واتّقوا يوماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً **ولا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ولا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ** ولا هُمْ يُنْصَرون﴾ البقرة:١٢٣.

تُعدُّ هاتان الآيتان من أكثر الآيات وضوحا في الدلالة على تشابه النظم القرآني، ولذلك لا نكاد نجد واحدا ممن عُنِيَ بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم إلّا وذكر لهما جوابا، حتى تعدّدت الأجوبة، وكثرت وجهات النظر، ولكنّها بقيت في مجملها بعيدة عن الدراسة العلمية: في تبويبها، ومناقشة آراء العلماء وتمحيصها. فما هي الدلالات البلاغية الكامنة وراء تقديم قبول الشفاعة على أخذ الفدية في الآية الأولى، وتأخير نفع الشفاعة على قبول الفدية في الآية الثانية ؟

مركز ايداع الرسائل الجامعية

يرى **الإسكافي** أنّ الله سبحانه وتعالى يُخبر في هاتين الآيتين: أنّ أحدا لا يُغني عن أحدٍ شيئا يوم القيامة، وهو كقوله عزّ مَن قائل: ﴿ واخْشَوْا يوماً لا يَجزي والدٌ عن ولَده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئا﴾لقمان:٣٣.

وتوضيح ذلك أنّ عادة العرب قديما أنّهم إذا وقع أحدهم في شِدّة أو مكروه، وارتهنت نفسه بعظيمة، وحاولت أعزّته أو خاصّته الدفاع عنه، وتخليصه مما هو فيه، بذلت ما تستطيعه في سبيل ذلك، فذبَّت عنه كما يَذُبُّ الوالد عن ولده، فإن رأوْا أنْ لا قِبَلَ لهم بالمُمانَعة والمُدافعة لجأوا إلى الضّراعة، وصنوف المسألة والشفاعة، فحاولوا بالمُلاينَة ما قَصّروا عنه بالمُخاشنة. فإن لم تُغنِ عنه الحالتان، ولم تُنجِهِ الخلّتان من الخشونة واللّيان، لم يبق بعدهما إلّا الفداء، وفكّه من الأسر بعَدْلِه إمّا بمالٍ وإمّا بغيره. فإن لم تُغنِ هذه الثلاثة: لا الخشونة ولا المُلاينة ولا الفداء تَعَلَّلوا بما يرجونه من نصرة الله.

وقـد جاءت الآية الأولى مرتّبة وفقا لهذه الأربعة، فقوله: ﴿ **واتّقوا يوماً لا تَجْـزي نفـسٌ عـن نفسٍ شيئاً**﴾البقرة:٤٨ دلالة على محاولتهم الدفع بالخشونة، وقوله: ﴿**ولا يُقْبَلُ منها شَفاعَةٌ**﴾البقرة:٤٨ إشارةً إلى المُلاينة، وقوله: ﴿ **ولا يُؤخَـذُ مـنها عَـدْلٌ**﴾البقرة:٤٨ دلالة على الفداء، وفي آخر الآية: ﴿ **ولا هُم يُنْصَـرون**﴾ البقرة: ٤٨ نفيٌ للرابعة، وهي النصرة. وأمّا ما في الآية الثانية فهو نفيٌ أبديٌّ لاحتمال تخفيف العذاب؛ إذ إنّ الشفاعة أخفّ من الفداء(١).

وعـند **الكرمانـي**، لمّا كانت العرب تُعَوّلُ كثيرا على شفاعة الآباء، وعبادة الأصنام، فقد قدّم الحق تبارك وتعالى الشفاعة في الآية الأولى؛ قطعا لهذا المَطمَع. وأخّـرها في الآية الثانية لأنّ التقدير في الآيتين: (لا يُقبَلُ منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة)، والنفع لا يكون إلا بعد القبول، ولذلك قدّم العدل في الأخرى، ليكون لفظ القبول مُقَدّماً فيها(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثُـمّ إنّ مَن قام بعمل صالح، أو أمر أمرا اهتدى به الناس، لا شك في أنّ له نصـيبا مـن الأجر بهذا القول أو ذاك الفعل، شرط أن يكون مؤمنا بالله، ومخلصا فيما صدر عنه، وهذا غير كائن عند اليهود ابتداء ولا عند المنافقين.

ومن هذه الكلمات يُمكن أن نفهمَ رأيَ **الغرناطي**، الذي ذهب إلى توسيع دائرة الـنظر في السياق القرآني، فعاد إلى الآيات المُتَقَدّمة، فرأى أنّ آية البقرة الأولى: ﴿ واتّقـوا يوماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً **ولا يُقْبَلُ منها شَفاعَةٌ ولا يُؤخَذُ مـنها عَدْلٌ** ولا هُم يُنْصَرون﴾ البقرة: ٤٨ مُتَعَلِّقة بقوله تعالى:﴿ أتَأمُرونَ النّاسَ بالبِرّ وتَنسَونَ أنفُسكُم﴾البقرة:٤٤، ووجه تَعَلُّقها: أنّ المأمور بالبرّ(المَدعُوّ) قد يأخذ بـه فيهـتدي، فيَسْـلَم من العصيان، وتكون في ذلك نجاته. علما بأنّ الأمر بالبِرّ، والاهـتداء الـذي وقع قد صَدرا عن هؤلاء الذين قيل لهم:﴿ أتَأمُرونَ النّاسَ بالبِرّ

---

(١) انظر الإسكافي، درة التنزيل، ٨-٩.

(٢) انظر الكرماني، البرهان، ص١٩.

وتَنسَـــونَ أنفُسَكُم﴾البقرة:٤٤، وَمِنْ ثَمّ فقد أصبح عند هذا الفريق مَظَنّة رجاء نَفْعِ أولـــئك الذين اهتدَوْا على أيديهم، مع أنّ فعلهم لم يكن خالصا لله، ولكنّ الهداية قد وقعت، وهم يوم القيامة في أشد الحاجة إلى مَنْ يُخلِّصُهم ممّا هم فيه، ويَتَحقّقُ ذلك عـــند مُشـــاهَدة الجـــزاء الإحســـاني للمأمورين بالبرّ، ولسان حالهم قولُ المنافقين للمؤمنين: ﴿ألَمْ نَكُن معكُم﴾الحديد:١٤.

ولِـــتَوَهّم هؤلاء إمكانية شفاعة أولئك الذين أُمِروا بالبرّ فاهتدوا، وطمعهم في ذلـــك كـــان آكـــدَ شـــيء نفي الشفاعة لهم؛ لإمكان توهّمها. ولم يتقدّم ما في الآية الأخرى ما يستدعي هذا([1]).

ونظر **ابـــن جماعة** إلى الآيتين من جهة أخرى، فرأى أنّ الضمير في ﴿منها﴾ راجع في الآية الأولى إلى النفس الأولى، وهي النفس الجازية. وفي الآية الثانية راجع إلى النفس الثانية، وهي النفس المجزيّ عنها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وكأنّ الله سبحانه وتعالى بيّنَ في الآيةِ الأولى: أنّ النفس الشافعة الجازية عن غـــيرها لا تُقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عَدل. وفي الثانية: أنّ النفس المطلوبة بِجُـــرْمها لا يُقـــبَلُ منها عَدلٌ عن نفسها، ولا تنفعُها شفاعةُ شافعٍ فيها. وكان البدء بالعدل هنا، للحاجة إلى الشفاعة عند ردّه([2]).

وعـــند **الـــرازي وزكريّا الأنصاري** أنّ الترتيب في الآيتين إنّما هو من باب الإشارة إلى صنفين من الناس: فَمَنْ كان مَيْله إلى حُبِّ المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يُقدّم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يُقدّم الفدية على الشفاعة([3]).

([1]) انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ١٩٦-١٩٧.

([2]) انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص١٠٠- ١٠١.

([3]) انظر الرازي، التفسير الكبير،ج١،ص٤٩٤، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص٢٣- ٢٤.

وخـــالف **أبو حيّان**، فرأى أنّ مَن يَغلِب عليه حُبُّ الرّياسة يُقدّم الشفاعة على الفدية، ولذلك بُدئ في الآية الأولى بما هو أليق بعُلوّ النفس، وهو الشفاعة. أمّا من يَغلــبُ علــيه حُــبُّ المــالِ فإنّه يُقَدِّم الفدية على الشفاعة، وعلى هذا جاءت الآية الثانية([1]).

والزركشي في حديثه عن المتشابه اللفظي كان يشرح كلام السابقين، خاصة مــا أوجــزه ابن جماعة في كشف المعاني، ولقد قرّر من بداية جوابه أنّ القرآن الحكيم وإن اشتمل على النقل من أسلوب إلى آخر، لكنه يشتمل مع ذلك على فائدة وحكمــة. والآيتان موضع السؤال في حق بني إسرائيل، وكانوا يقولون: إنّهم أبناء الأنبــياء، وأبناء أبنائهم، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله أنّه لا تنفعهم الشفاعة، ولا تجزي نفس عن نفسٍ شيئا.

جميع الحقوق محفوظة

والضــمير المجــرور فــي الآية الأولى يحتمل عودته إلى النفس الأولى أو الثانــية، إلّــا أنّ الزركشي رجّح عودته إلى النفس الأولى، وهي الشافعة لغيرها، وبذلك تكون الشفاعة غير مقبولة للمشفوع له، بقصد الاحتقار وعدم الاحتفاء، ولا شك أنّ هذه الحال تكون باعثة للسامع في ترك الشفاعة، إذا علم أنّ المشفوع عنده لا يَقــبل شفاعته، وعلى هذا يكون التقدير: (لا تَجزي نفس عن نفسٍ شيئا ولا يُقبلُ مــنها شفاعةٌ لو شفعت) ومن ثَمَّ لن يشفعوا، وفي ذلك تيئيس لأولئك الذين زعموا أنّ آباءهم الأنبياء ينفعونهم من غير عمل منهم.

والضــمير فــي الآيــة الثانية راجع إلى النفس الثانية، وهي النفس التي هي صــاحبة الجــريمة، فــلا يُقــبل منها عدل، لأنّ العادة أنّ بذل العدل من صاحب الجــريمة يكون مُقَدَّما على الشفاعة فيه. وفي هذا بيانٌ أنّ النفس المطلوبة بجرمها لا يُقبل منها عدلٌ عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها.

([1]) انظر أبا حيّان، البحر المحيط، ج١، ٣١٠- ٣١١.

ونقـــل **الزركشي** كلام الرازي في هذه المسألة، ثُمَّ نَسَبَ قولا آخر في توجيه متشابه هاتين الآيتين إلى **بعـــض مشايخه**، ولعلّ فيه ردّا على ما اختاره أبو حيّان. ومفاد هذا الرأي أنّ البدء بالشفاعة إنّما هو من باب تيسيرها على الطالب أكثر من تحصـــيل العـــدل الـــذي هو الفداء، على ما هو معروف في دار الدنيا. وفي الآية الثانية أنّه لمّا تقرّر زيادة تأكيدها بدأ فيها بالأعظم الذي هو الخلاص بالعدل.

وثـــنّى بعـــد ذلك بنفي نفع الشفاعة لأنّ النفع أعمّ من القبول، ولهذا نجد في كـــتاب الله عزّ وجل في حقّ المشركين:﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾المدثّر:٤٨، وقوله تعالى: ﴿ولا تنفعُ الشفاعةُ عندَه إلا لمن أذِنَ له﴾سبأ:٢٣(١).

وقـــال **البقاعي** في الآية الأولى: " ولما تقدم أنه فضلهم وعاهدهم، وأن وفاءه بعهدهـــم مشـــروط بوفـــائهم بعهـــده ناسب تقديم الشفاعة "(٢). ثُمَّ خلُص إلى أنّ المقصود من التقديم والتأخير هو بيان أنّ الشفاعة لهم لا مقبولة ولا نافعة، وكذلك الفدية لا مأخوذة ولا مقبولة(٣).

مركز ابداع الرسائل الجامعية

والضـــميران المجـــروران بمن في الآيتين يجوز عند **أبي السعود والشهاب الخفاجـــي والألوسي** أن يعودا إلى النفس الثانية العاصية، أو إلى الأولى الجازية. وكـــأنّ المُـــراد نفـــي أنْ يدفـــعَ العـــذابَ أحدٌ عن أحد من كُلّ وجهٍ محتمل. وما تخصيصهم بتكرير التذكير، وإعادة التحذير إلّا مبالغة في النصح، وإيذان بأنّ ذلك من فذلكة القضية(٤).

---

(١) انظر الزركشي، البرهان،ج١، ٢١٥- ٢١٩.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج١، ص٣٥٢.

(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٤٦.

(٤) انظـــر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج١، ص١٣٢ و ١٩١، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي، ج٢، ص٢٤٧ و ٣٧٩، والألوســـي، روح المعاني، ج١، ص٣٤٠-٣٤٢ و ج٢، ص٥٠٧-٥٠٨ وقد شرح عبارة أبي السعود، وذكر في المسألة آراء أخرى نصّ على ضعفها.

وعـــند **ابن عاشور** أنّ ذلك من التفنن في الكلام حتّى تنتفي سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير، إلّا أنّ ابن عاشور لم يكتفِ بهذا الكلام، وأشار إلى أنّ فـــي هـــذا التفنّن نكتة لطيفة، حيث جاءت الشفاعة في الآية الأولى مسندا إليها المقبولية، فقُدمت على العدل بسبب نفي قبولها، ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء، فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس.

وأما في الآية الثانية فقدّم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية، ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة، فعطف نفي نفع الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضا.

والحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولا قد جعل في الآيتين أولا، وذكر الآخر بعده. وأما نفي القبول مرة من الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام فـــي طلـــب الفكـــاك عـــن الجناة تختلف، فمرة يقدمون الفداء، فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، ومرة يقدمون الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء([1]).

وفي **تفسير المنار** أنّ هذا اللون من النظم إنّما هو من باب التفنن في التعبير القرآنـــي، وكأنه سبحانه وتعالى يشير بهذا إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجـــواز والمـــنع، فمـــن مـــنع العوض في الآخر لزمه منع الشفاعة، فإن جوزها جوّزه([2]).

ووقـــف الشـــعراوي عـــند هاتين الآيتين وقفة متأنّية، وسأل، وضرب أمثلة، وشرح كلام ابن جماعة والزركشي في هذه المسألة، وإن لم ينصّ على ذلك. ولقد أحســـن عـــندما أنكر على كُلّ مَن يُوَجّه الآيات بالتكرار، أو مَن يكتفي بالقول: إنّ ذلك من باب جمال الأسلوب، دون أن يبحث عن سر هذا الجمال.

([1]) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٩٨.

([2]) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٤٥١.

والمعنى العام من الآيتين: أنه سيأتي إنسان صالح يوم القيامة، ويقول يا رب أنـــا سأجزي عن فلان أو أغني عن فلان أو أقضي عن فلان. في مُحاولَة مِن تلك النفس الأولى الجازية أن تتحمل عن النفس المجزي عنها شيئا.

وضـــرب لذلك مثلا –ولله المثل الأعلى– بحاكمٍ غضب على أحد من الناس، وقـــرر أن ينتقم منه أبشع انتقام، فيأتي صديق لهذا الحاكم، ويُحاول أن يجزي عن المغضوب عليه، وذلك بما له من صداقة ومنزلة عند الحاكم. وفي هذه الحالة إما أن يقـــبل شفاعته أو لا يقبلها، فإذا لم يقبل شفاعته فإنه سيقول للحاكم أنا سأُسَدِّدُ ما عليه، أي سأدفع عنه فدية، ولا يتم ذلك إلا إذا فسدت الشفاعة.

فإذا كانت المسألة في يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى، يأتي إنسان صالح ليشـــفع عـــند الله تـــبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه، فلا بد أن يكون هذا الإنســـان المُشَفَّع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله. والإنسان الصـــالح يُحاول أن يشفع لمن أسرف على نفسه، ولكنْ لا تُقبل شفاعته، ولا يؤخذ منه عدل، ولا يسمح له بأيّة مساومة أخرى. فهو لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا إذا فشلت الشفاعة، وعلى ذلك فترتيب الآية طبيعي جدا.

وفـــي الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المَجزي عنها قبل أن تستشفع بغيرها، وتطلب منه أن يشفع لها. ولا بد أن تكون قد ضاقت حيلها وعزت علـــيها الأســـباب، فيضطر صاحب هذه النفس أن يذهب لغيره، وفي هذا اعتراف بعجزه. فيقول: يا رب ماذا أفعل حتى أُكَفِّر عن ذنوبي ؟ فلا يُقبل منه، فيذهب إلى من تقبل منهم الشفاعة ؟ ولكنْ لا تُقبل يومئذ شفاعتهم.

لقـــد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تُقبل، فدخلوا في حد آخر، وهو العدل فلم يؤخذ. فالآية الأولى تتعلق بالنفس الجازية، أو التي تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه: فـــ﴿ لا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾. والضمير في الآية الثانية عائد على النفس المَجزي عنها، قال تعالى: ﴿ لا يُقبَلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة

﴾ حيث تُقدّم العدل أولا: ﴿ارجعنا نعمل صالحا﴾ فلا يقبل منها، فتبحث عن شفعاء فلا تجد، ولا تنفعها شفاعة([1]).

وحاول الدكتور عبد العظيم المطعني أن يُقدّم جديدا، وحسب أنّه نجح في ذلك، وما درى أنّ جميع الوجوه المحتملة التي ذكرها هي عينها التي أوردها العلماء الأوائل ممّن سبق أنْ ذكرت([2]).

والذي يبدو لي أنّ الحديث إخبار عن فئتين من النّاس؛ فئة اعتادت الشفاعة والواسطة في تسيير أُمورها، وشؤون حياتها، فهذه تُفكّرُ أولا باللجوء إلى ما اعتادت عليه. وعلى نحوٍ من الترقّي في الخطاب يُبكّتها اللهُ ويؤيّسها؛ فيوم القيامة لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئا، ولا تُقبّل من تلك النفس العاصية شفاعة، وهي الثانية في الآية الأولى من سورة البقرة، ويحتمل المعنى أن تكون النفس الجازية أيضا، ولا تناقض بين المعنيين.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولمّا كانت عادة هذه النفس في الدنيا اللجوء إلى الفدية إن لم تنفع الشفاعة، فقد أوصد الحق تبارك وتعالى دونهم السُّبُل كلّها، فلم يُبق لهم وجها للخلاص ممّا هم فيه، رجاءَ الاتّعاظ بذلك في الحياة الدنيا، وإشارة أُخرى إلى أنّ بني إسرائل وكثيرا ممن قلّدهم يعتمدون هذه الطُّرق في الالتفاف على حقوق العباد. ولعلّ ما يُسمّى في هذه الأيّام بالواسطة من أقرب الشواهد على ذلك.

والراجح عندي أنّ الحديث في الآية الثانية عن فئة أُخرى من بني إسرائيل ذات مال وعقار، وكذلك مَن شابههم من الناس، بحيث كانوا في حياتهم الدّنيا معتادين على الخلاص من أيّ موقف بما يملكونه من مال، حتّى لو اضطرّهم ذلك إلى شراء ذمم النّاس، وحسبوا أنّ ذلك سيكون كذلك يوم القيامة. فيُخبرهم الحق

([1]) انظر الشعراوي، تفسير الشعراوي، مج١، ص٣١٦-٣٢١.

([2]) انظر عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٢ م، ج٢،ص١٩٣-١٩٤.

تبارك وتعالى أنّ الرياح لا تجري كما تشتهي السفن، ويوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا عقار، ومِنْ ثَمّ لن يُقبَل من تلك النفس العاصية، أو التي تريد أن تجزِيَ عنها فداء.

ومـــن المعلوم في الحياة الدّنيا أنّ صاحب المال يحسب أنّ ماله سَيُخلِّصُه من كُـــلّ مشـــكلة، فتراه لا يكترث بالآخرين مهما كانت منزلتهم، معتمدا في ذلك كُلّه على ماله، ولكنّه إن وقع في عظيمة، ولم يُنجه المال، عندها –والحال يشهد بذلك– يُفتّش في النّاس عمّن له كلمة أو يدٌ يُمكن أن تشفع له، وتُخلّصه مما هو فيه. ولمّا كان ذلك كذلك فقد أيأسه الحق تبارك وتعالى حتى من هذه الفرصة، وهو في أشد الحاجة إليها.

فـــإلى كل مَن اعتاد الشفاعة والواسطة، فإن لم تُغنِ فالمال، ومَن اعتاد الفدية فإن لم تُنج فالشفاعة، إلى هؤلاء جميعا يَعِظُهم الله ويُحذّرهم مما هم فيه، ويُذكّرهم بـــأنّ يوم القيامة لا تنفع فيه مثل هذه الأمور، فمن كانت هذه سُنّته في الحياة الدّنيا فليتّق الله قبل فوات الأوان.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

المطلب الثاني: التقديم والتأخير في المفردات

قال تعالى:﴿ وادخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حطَّةٌ ﴾ البقرة:٥٨.

وقال تعالى:﴿ وقولوا حِطَّةٌ وادخُلوا البابَ سُجَّداً﴾ الأعراف: ١٦١.

وقــف أصحاب كتب المتشابه اللفظي والمفسرون عند هاتين الآيتين، وقدَّموا إجاباتٍ كثيرة، يُمكِنُ إجمالها في ما يلي:

أوّلا: إنَّ مــا جاء من قصة موسى عليه السلام، وسائر الأنبياء صلوات الله علــيهم وســلامه، ومــا حكاه الحق تبارك وتعالى من قولهم، لم يقصد منه حكاية الألفاظ بأعيانها، وإنّما قُصِدَ إلى اقتصاص معانيها. ذلك أنّ اللغة التي خُوطِبوا بها غــير العربية، ومن ثَمَّ فإنّ حكاية الألفاظ زائلة، وتبقى حكاية المعنى. ومن قصد حكاية المعنى كان مُخيَّرا بأن يؤديه بأي لفظ أراد، وكيف شاء، ويعضد هذا القول: أنّ الواو لا تدل على الترتيب(١).

صــحيحٌ أنّ الــواو لا تدل على الترتيب، إلّا أنّنا لا نعدم وجود حكمة بلاغية مُترتِّبة على هذا النحو من النظم. أمّا القول بأنّ الألفاظ غير مقصودة، وتعليل ذلك بــأنّ اللغــة التــي خوطــبوا بها غير العربية، فهذا قريب -إلى حدٍّ ما- من قول الألوسي الآنف الذكر، بعدم البحث عن كل سر بلاغي.

ثانــيا: وعــند الكرماني وزكريا الأنصاري: أنّ الحق تبارك وتعالى قدّم ﴿ وادخُلــوا الباب﴾ في سورة البقرة، لمناسبة تقديمه فيها﴿وإذ قلنا ادخلوا﴾. و في الأعراف قدّم ﴿وقولوا حِطّة﴾ لبيان كيفية الدخول المأمور به في سورة البقرة(٢). وهذا التوجيه، وإن كان محتملا، إلا أنّ اقتصاره على الجانب اللفظي وحده يجعله ناقصا.

---

(١)انظر الإسكافي، درة التنزيل،ص١٢.

(٢)انظر الكرماني، البرهان، ص٢٠، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص٢٤-٢٥.

ثالـــثا: وعند الغرناطي أنّ المراد: القول في حال السجود(حِطّة) لا قبله ولا بعـــده، ولـــو لـــم يكـــن في الآيتين تقديم وتأخير لأوهم أنّ الأمر بالسجود والقول منفصـــلان، علـــى احـــتمال أنّ العطف بالواو يُفيد التغاير، وعدم الترتيب. وعلى حســـب ترتيـــب المصـــحف، فقد قدّم الأمر بالسجود في سورة البقرة، لأنّ ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء(١).

رابعا: بما أنّ الواو تفيد مطلق الجمع، فلا اعتبار إذن للتقديم والتأخير في الآيتين، فالمعـــنى مُـــتّحد، ولو كان التعبير في الموضعين واحدا، لَفُهِمَ منه أنّ المُقَدَّم في الذكر أرجـــح أو أهـــم، ومن ثَمّ كان الاختلاف في النظم دالا على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخـــير ذلك، وبين عكسه. والمقصود من الاختلاف هو التفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وعـــند الـــرازي وأبـــي حيان أيضا أنّ الخطاب في هاتين الآيتين لصنفين من الـــناس؛ فمحـــتمل أن يكـــون بعضهم مذنبين، والبعض الآخر غير مُذنبين. ومن المعلوم أنّ المذنب لا بد وأن يكون اشتغاله بحط الذنب مُقَدَّمٌ على اشتغاله بالعبادة. فلا جرم كان تكليف مَنْ في سورة الأعراف أن يقولوا (حِطّة) ثم يدخلوا، وأمّا الذي لا يكون مذنبا فالأولى به أن يشتغل أولا بالعبادة ثم يذكر التوبة. ولما كان الخطاب لفريقين فقد ذكر حكم كل واحد منهما في سورة. على أنّ المعنى النفسي المراد من تقديم العبادة هو: هضم النفس، و إزالة العجب من صدورهم(٣).

---

(١)انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ص٢٠٥.

(٢) وممـــن قـــال بذلك: الزمخشري، والرازي، وأبو حيان، والسيوطي، وابن عاشور، ومحمد رشيد رضا ، انظر: الزمخشري، الكشاف،ج٢،ص١٦٤، والرازي، التفسير الكبير،مج١،ص٥٢٢-٥٢٧ و مج٥، ص٣٨٩-٣٩٠، وأبا حيان، البحر المحيط، ج١،ص٣٦٥، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت٩١١هـــ). معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط١، ٢م، (تحقيق محمد عبد الرحيم)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١، ص٣٦٥ ، والألوســـي، روح المعانـــي،ج١، ص٣٦٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٤٥، ومحمد رشيد رضـــا، تفسير المنار، ج٩، ص٣٤٦-٣٤٧. ومجمل كلامهم يُشبه كلام الألوسي الذي علّقت عليه مطلع هذا المبحث.

(٣)انظر الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥٢٢-٥٢٧، وأبا حيان، البحر المحيط، ج١،ص٣٦٥.

وقد اعترض الألوسي على هذا بأن القصة واحدة، وكون بعضهم مذنبين وبعضهم غير مذنبين متحقق في كلتا السورتين، وعليه ينبغي أن يذكر ﴿وقولوا حِطَّةٌ﴾ مقدّما في السورتين(١).

وإضـــافة لمـــا تقـــدّم، يُمكـــنُ أنْ أذكر: أنّ هذين الجزأين من آيتي البقرة والأعـــراف يُحـــيطُ بهما مجموعة من التعبيرات المتشابهة؛ قال تعالى:﴿ وإذْ قُلْنا ادخُلـــوا هـــذه القـــريةَ فَكُلوا منها حيثُ شِئتُم رغَداً وادخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لكم خَطاياكُم وسَنَزيدُ المُحْسنينَ ﴾ البقرة:٥٨، وقال تعالى:﴿ وإذْ قيلَ لَهُمْ اسكُنوا هذه القريَةَ وكُلوا منها حيثُ شِئتُم وقولوا حِطَّةٌ وادخُلوا البابَ سُجَّداً نغفِــر لكم خَطيئاتِكُم سَنَزيدُ المحسنين﴾ الأعراف: ١٦١. وهذا جدول يُوضّح ما بين الآيتين من تشابه:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

في سورة البقرة	في سورة الأعراف
وإذْ قُلْنا	وإذْ قيل
ـــــــ	لهم
ادخُلوا	اسكُنوا
فَكُلوا	وكُلوا(٢)
رَغَدا	ـــــــ
وادخُلوا البابَ	وقولوا حِطَّة
وقولوا حِطَّة	وادخُلوا البابَ
خَطاياكُم	خَطيئاتِكُم
وسَنَزيدُ	سَنَزيدُ

(١) انظر الألوسي، روح المعاني، ج١،ص٣٦٥.

(٢) ملاحظة: لقد عرضت لهاتين الكلمتين(فكلوا، وكلوا) في الفصل الأول من هذه الدراسة.

والســـؤال: هل يُمكنُ أنْ تُسعِفُ هذه المتشابهات في حل إشكال نظم الآيتين اللتيـــن جاءتا على هيئة رد العجز على الصدر على نحوٍ من التقديم والتأخير في المفردات؟ هذا ما سأحاولُ تبيّنه اعتمادا على وجه الشبه، وعلى التناسب القائم بين التعبيرات القرآنية، وما فيهما من دلالات مشتركة أو مُتقابلة.

ذكـــرَ البقاعـــي أنّ آيـــات الأعراف غلب عليها الإنذار والتحذير بقوارع الداريـــن، الذي هو أساس مقصدها([1]). والإنذار والتحذير يقودانِ إلى التخلص من الذنـــوب الكثيرة المتراكمة، وخصوصا شركهم بالله. ولذلك كان تقديم حَطّ الذنوب أنســـب مـــن تقديم الدخول الوارد في سورة البقرة. فمن البداية يبدو أنّ سياق آية الـــبقرة أخـــف مـــن ســـياق آية الأعراف؛ فآية البقرة في بعض ما اجترحوا من الســـيئات، وأمّـــا آيـــة الأعراف، فبعد أنْ أنعم الله عليهم ورزقهم، ظلموا أنفسهم بالشرك وغيره، ثمّ فتح لهم البلاد التي وعدهم إيّاها، وبدلا من أن يشكروا الله على الفتح، حرّفوا وبدّلوا فعُذّبوا([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفـــي ســـورة الأعراف: ﴿وإذ قيل﴾ في غاية التناسب مع ما ذكرت؛ فإنّ عظم ذنوبهم جعلت الحق سبحانه وتعالى يُعرضُ عن تلْذيذهم بالخطاب، ومثل هذا الســـياق يتطلّـــب التوبة أوّلا، ومن ثمّ الدخول، قال البقاعي: "وعدل عن الإكرام بالخطاب ونون العظمة؛ لأنّ السياق للإسراع في الكفر...وعبّر هنا بالمجهول في ﴿قـــيل﴾ إعراضـــا عـــن تلذيذهم بالخطاب، إيذانا بأن هذا السياق للغضب عليهم بتساقطهم في الكفر، وإعراضهم عن الشكر"([3]).

ولمّـــا كـــان الحديث في سورة الأعراف أيضا عن السكنى وليس الدخول، خصّصه بـــ﴿لهم﴾ تأكيدا للخطاب، وإلصاقا بصيغة الغائب، حتى لا تتردّد النفس في هذه النعمة العظيمة التي سيمنحهم الله إيّاها، إن هم أطاعوا أمره.

([1])انظر البقاعي، نظم الدرر،ج٧،ص٣٤٧.

([2])انظر المراغي، تفسير المراغي، ج١، ص١٠٧، و سعيد حوّى، الأساس في التفسير، مج٤،ص٢٠٣٤.

([3])البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص١٣٥.

ثُمَّ إنّ مَن يُريدُ أنْ يَنعَمَ بالسكنى، فيعيش حياة رغدا، قوامُها الأمن والهدوء والراحة، لا بُدَّ له من التخلُّص من الذنوب كُلِّها، بَلْهَ نفض غُبارِها عن كاهله، حتّى لا يَعيشَ دهره في وسْوَسَتِها، وهذا ما يُرشدُ إليه فعل السكنى في سورة الأعراف. وهــو على خلاف فعل الدخول في آية سورة البقرة، الذي لا يتطلّب من حيث هو دخــولٌ ما يتوَجَّب على مَن يُريدُ السكنى. ولذلك قُدِّمَ الأهم، والذي النفس إليه أكثر حاجة.

وذُكِــرتَ﴿رغــدا﴾ في سورة البقرة ولم تُذكر في آيات الأعراف لاختلاف المقامين؛ ففي البقرة كان تعدادُ النعم، وفيها نون العظمة﴿وإذ قلنا﴾. وعند الشهاب الخفاجي أنّ ذكر﴿رغدا﴾ في سورة البقرة " لأنّه في أول الدخول يكون ألذ، وبعد الســكنى واعتــياده لا يكــون كذلــك"(١). ولم تُذكر تلك اللفظة في آية الأعراف إعراضــا أيضــا عن تلذيذهم بالخطاب المتناسق مع الوعيد والتهديد، وذلك على الرغم من تضمينها في المعنى العام للفظة السكنى.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبمــا أنّ الحديــث في سورة البقرة عن طائفة مخصوصة لم تتلبس بجميع الذنوب، فقد ورد التعبير بصيغة جمع التكسير﴿خطاياكم﴾الذي يفيد التكثير؛ وذلك فــي تناسب تامٍّ أيضا مع تقديم السجود، وتأخير التوبة، حيث إنّهم لم يقوموا بذنب عظــيم يلزم منه عدم الدخول؛ فإن دخلوا وتابوا جازاهم الله بغفران جزء كبير من خطايــاهم. ويــبدو أنّ ذنب الذين في سورة الأعراف كبير، ومتناسب مع اشتمال الخطاب على عموم بني إسرائيل؛ ولذلك ناسبه جمع المؤنث السالم، في دلالة على وجود ذنوبٍ كبيرة تحتاج إلى توبة من نوع آخر، وربّما يكون ذلك بعد السكنى.

وممــا يــزيد المعنى تأكيدا: ورود﴿سنزيد المحسنين﴾ في سورة الأعراف مــتجرِّدة من الواو، في استئنافٍ بياني، فيه معنى الزيادة على الغفران؛ تنبيهاً على عظــم ذنــبهم، ومرتكــبهم. الأمر الذي جعل التوبة منه، والدخول في القرية سببا

---

(١)الشهاب الخفاجي، عناية القاضي،ج٤،ص٣٨٩.

للجزاء والمغفرة، إضافة إلى زيادة خاصة من المولى للمحسنين منهم([1]).

ومـــن ذلك يتبيّن لنا أنّ توجيه البقاعي لهاتين الآيتين هو عين الصواب، ذلك أنّ سياق آيات سورة البقرة أخف من سياق آيات سورة الأعراف، من حيث دلالتها علـــى عظـــم الذنوب المرتكبة. ومن ثمّ ناسبها هذا اللون من التقديم والتأخير في المفردات، الذي شكّل هو وغيره من التشابه في الآيتين صورة للمقصد العام الذي تدور عليه أحداث هاتين الآيتين.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

([1])انظر الرازي، التفسير الكبير،مج١،ص٥٢٤-٥٢٥ و مج٥، ص٣٩٠ ، وأبا حيان، البحر المحيط،ج١، ص ٣٦٥، وابن عاشور،التحرير والتنوير، ج٨،ص١٤٦، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٩،ص٣٤٧.

المطلب الثالث:التقديم والتأخير في الضمائر

قال تعالى:﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ **نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾الأنعام:١٥١.

وقال تعالى:﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ **نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم** إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ الإسراء:٣١

والسؤال عن هاتين الآيتين هو: ما الذي أوجب اختصاص سورة الأنعام بتقديم ضمير المُخاطَب، وأوجب اختصاص سورة الإسراء بتقديم ضمير الغائب على هيئة من الكلام تُشبِهُ ردّ العجز على الصدر في جُمَلٍ متعاطفة ؟

مركز ايداع الرسائل الجامعية

يكاد يُجمِعُ كُلُّ مَن نظر في هاتين الآيتين من أصحاب كتب المُتشابه اللفظي، والمفسّرين والبلاغيين على حدٍّ سواء أنّ تقديم ضمير المُخاطب في سورة الأنعام يعود إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قال قبل ذلك: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ الأنعام:١٥١، أي من أجل فقرٍ بكم أو بسببه. فظاهر الكلام إذن حصول الإملاق، لا توقّعه وخشيته. وفي ذلك تبشيرٌ للآباء بزوال العَوَزِ أو العَيْلة، وإحالة أمر الرزق على الله الخلّاق الرزّاق. ثمّ جاء عطف الأولاد، في إشارةٍ إلى أنّ هذا الأمر ينبغي ألّا يَجرّ إلى معصية الله عز وجل، فأنتم أيّها الآباء إنّما تُرزَقون بهؤلاء الأبناء فلا تقتلوهم.

وأمّا ما في سورة الإسراء فهو تحذير للآباء من قَتْلِ أبنائهم خشية الإملاق ، كالذي كان يفعله كُفّار العرب من وأد بناتهم خشية الفقر المتوقع، والعجز عن مؤونتهم فيما يتوقعونه مستقبلا، فَجُعلت الخشية هي العلّة في فعلهم، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ الإسراء:٣١. فظاهر التركيب أنّ

الإملاق لم يقع بعد، وكأنّه تحذير للموسرين من قتل أبنائهم لتوقّع حصول الإملاق معهم والخشية منه، ولذلك بُدئ بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ الإسراء:٣١.

وبذلك تكون الآيتان قد أفادتا معنيين اثنين: " أحدهما: أنّ الآباء نُهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم. والآخر: أنّهم نُهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين؛ لتوقّع الإملاق وخشيته "([1]).

هـذا مجمل ما قيل في هذه المسألة، في إشارة إلى أنّ أمر الرزق ربّما يقود المـرء إلى المهالك إن هو لم يُدرك حقيقته. ولذلك كثُرت الآيات التي تتحدث عن الـرزق ومصدره في كتاب الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وما من دابّةٍ في الأرضِ إلّـا على الله رزقُها﴾هود:٦، وقال تعالى: ﴿وكأيّن من دابّة في الأرض لا تحملُ رزقَها اللهُ يرزُقُها وإيّاكم﴾العنكبوت:٦٠، وغير ذلك كثيرة.

مكتبة الجامعة الاردنية

ولعـلّ فـي الـتقديم والتأخير كشفا لحقيقة النفس البشرية، التي تتوجّس من الغيـب، فتجنح إلى أفعالٍ، لو أدركت قبلها حقيقة الرزق لما عقدت مؤتمرا، ولما جيّشت أعوانها للحدّ من النسل.

وفـي ذلك توجيهٌ عامّ للأمة جمعاء مفاده: عدم اعتبار الفقر أو خشيته أساسا فـي الـتعامل مـع الناس، خاصة إذا تعلّق الأمر بأحكامٍ شرعية أخرى، كأن يُردّ صاحب الدين عن الخطبة مثلا لأجل الفقر أو توقُّعه، ومثله مما يفعله الناس كثير. وفي الآيتين أيضا توجيه آخر مفاده أنّ الرزق يكون للآباء بأبنائهم، ويكون للأبناء بآبـائهم مـع تباين الزمان وتحوّله، وبهذا تكون إحدى الآيتين تتحدث عن حاضر، والأخرى تتحدث عن مستقبل غائب.

([1]) أبـو حـيّان، الـبحر المحـيط، ج٤، ص٦٨٧. وانظـر ما تقدّم من تأويل الآيتين من: الإسكافي، درة التنزيل،ص٩٩، والكرماني، البرهان، ص٥٥، والغرناطي، ملاك التأويل،ج١،ص٤٧٩-٤٨٠، وابن جماعة، كشف المعاني، ص١٧٥، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص١٠٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج٧، ص٣١٧ و ج١١، ص٤٠٨-٤٠٩، والقزويني، الإيضاح،ج٢، ص١٦٧.

المبحث الثاني: المتشابه اللفظي في تقديم الجار والمجرور وتأخيره

ما زال دَرْسُ الجار والمجرور في كتاب الله عز وجل يحتاج إلى مزيد من العناية والبحث، فهو على ما كُتِبَ فيه من دراسات نافعة، وبحوث قيّمة يبقى رحب المدى، سخيّ المورد، فيه أبواب بكر في بلاغتها، أُنُفٌ في أسرارها، لم تُطرق بعد. فآمل من خلال هذه الدراسة أن أكشف النِّقاب عن جمال هذا اللون من التعبير القرآني.

ومن المُسَلَّمات في هذا المبحث وغيره من هذه الدراسة: عدم الاكتفاء بالقول إنّ الجار والمجرور قُدِّم في هذه الآية للعناية والاهتمام، وتأخّر في الآية الأخرى لأنّه غير مراد، ويُخطئ كذلك من يُقسّمه إلى مفيد وغير مفيد(١). كما لا يكفي القول بالاختصاص، وحسن النظم، والمكافأة والمساواة، والتشويق وغير ذلك من المعاني دون إيضاح لدلالاتها، وإماطة اللثام عن عللها وأسرارها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

وفي هذا المقام أعرض لمثالين من أربع آيات، أحدهما: في اختلاف مُتعلّق الخبر، والآخر في الفصل بين الفعل والفاعل. وأحاول من خلال ذلك دراسة الجار والمجرور، والبحث في أسرار تقديمه في آية، وتأخيره في أخرى، وكلّ ذلك تحت لواء المتشابه اللفظي.

---

(١) انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٧-١١١، فقد رفض تلك الكلمات دون النظر في الأسرار الكامنة وراء هذه الأحكام.

المطلب الأول: اختلاف مُتَعلَّق الخبر في جملتين متشابهتين

قال تعالى:﴿ **كونوا قَوَّامينَ بالقسطِ شُهداءَ لله** ﴾ النساء:١٣٥.

وقال تعالى:﴿ **كونوا قَوّامينَ لله شُهداءَ بالقسطِ** ﴾ المائدة:٨.

ومن دقيق المتشابه اللفظي في ما يُشبه رد العجز على الصدر أنْ تتقدّم لفظة﴿بالقسط﴾على قوله تعالى:﴿ شهداء لله﴾في النساء، وتأخيره في آية المائدة. إذ الخطاب في آية النساء -كما يقول الإسكافي- لعموم الناس، والتي في المائدة مختصّة بالولاة. وبيان ذلك: أنّ الله أمر كل مَن عنده شهادة أنْ يقوم بالحق فيها، ويشهد لله بالعدل على كل ظالم، مهما كانت صلة قرابته، حتى يُؤخذ الحق منه. ولذلك قَدَّمَ القسط لأنه من تمام ﴿قوّامين﴾؛ ففعله يتعدى إلى مفعوله بالباء. وأمّا مجيء﴿لله﴾ بعد شهداء فلتعلقه بالشهادة، كأنه قال: كونوا شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوي القربى. والدليل قوله تعالى:﴿ولو على أنفُسكم أو الوالدينِ والأقربينَ﴾النساء:١٣٥.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي المائدة: كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل، والحكم فيه في حال كونكم وسائط بين الخالق والخَلْق، عدْلا واحدا على الولي والعدو. وقيل في آية المائدة أيضا: إنها في الشهادة في الحقوق، أو الشهادة لأمر الله بأنه حق([1]).

وعند الغرناطي أنّ المقصود من آيات النساء هو التركيز على العدل والقسط، أما آيات المائدة فإنّ مقصودها تذكُّر نعم الله، والوقوف على ما عهد به؛ إذ الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية في مجملها على الأمر بالعدل و القسط، قال تعالى: ﴿مَنْ يعملْ سوءا يُجزَ به ولا يَجِدْ له من دون الله وَلِيّاً ولا نصيرا﴾ النساء:١٢٣، وقال: ﴿ويستفتونك في النساء﴾النساء:١٢٧، وقال: ﴿وأنْ تقوموا لليتامى بالقسط﴾النساء:١٢٧، ثُمَّ توالت الآيات بعد على هذا المعنى، ولذلك قَدَم لفظة ﴿بالقسط﴾ ليناسب ما ذُكِر.

([1])انظر الإسكافي، درة التنزيل،ص٦٢-٦٣، والكرماني، البرهان،ص٤١، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن،ص٧٥.

وأمّا آية المائدة فقد ثبت قبلها الأمر بالطهارة، ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه، والوقوف مع ما عهد به إلى عباده، والأمر بتقواه، فناسب ذلك قوله: ﴿كونوا قوّامين لله﴾ ثم أتبع بما بُني على ذلك من الشهادة بالقسط(١).

ولقد أحسن ابن جماعة وأجاد حينَ وَسَّعَ دائرة السياق؛ فرأى أنّ آية النساء تقدَّمها نشوز الرجال، وإعراضهم عن الناس، والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، والإحسان إليهن، وقوله تعالى: ﴿ولَنْ تستطيعوا أنْ تعدِلوا بين النساء ولَوْ حَرَصتُم﴾النساء:١٢٩، وقوله تعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾النساء: ١٢٧ وشبه ذلك. ومن ثَمَّ ناسب تقديم القسط، وهو العدل؛ أي كونوا قوّامين بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله، لا لمراعاة القرابة.

وأمّا آية المائدة فقد جاءت بعد أحكام تتعلق بالدِّين، والوفاء بالعهود والمواثيق، وقوله تعالى في أول السورة: ﴿أوفوا بالعقود﴾المائدة:١، وفي الآية السابقة على الآية التي نحن بصدد الحديث عنها قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمةَ الله عليكم وميثاقَهُ الذي واثَقَكم به﴾المائدة:٧، وما تضمَّنته الآيات قبلها من أمرٍ ونهيٍ. فناسب تقديم ﴿لله﴾: أي كونوا قوّامين بما أُمرتم أو نُهيتم لله، وإذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بالهوى(٢).

وعند المفسِّرين أنّ آية النساء أمر منه تعالى لجميع المُكلَّفين بأن يكونوا مبالغين في اختيار العدل، مواظبين عليه بكثرة، ومجتهدين في إقامته، محترزين بذلك عن الجور والميل، بحيث لا يكون هناك أي خلل بهذا القيام في حال من الأحوال. وفي معنى المبالغة(قوّام) كذلك تكرار القيام بالقسط؛ وهو العدل، حتى لا يكون منهم جور ما(٣).

---

(١)انظر الغرناطي، ملاك التاويل، ج١، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٢)انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص١٤٩-١٥٠.

(٣) انظر: الرازي، التفسير الكبير، مج٤، ص٢٤١، وابن عطية، المحرر الوجيز، ج٤، ص٢٥٥، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص٢٣-٢٦٤، وأبا حيان، ج٤، البحر المحيط، ص٩٤، وأبا حيان، النهر الماد،

ويقـفُ الـرازي عند آية النساء، فيمتح منها معاني دعوية، حيث يرى أنّ تقديـم العـدل على الشهادة في سورة النساء من باب العدل أوّلا، ومن ثَمّ الشهادة على الغير.

ابـدأ بنفسـكَ فانههـا عـن غيّها فـإذا انتهـت عـنه فأنـتَ حكيمٌ

فهـناك يُقـبَلُ إن وعظتَ ويُقتدى بالـرأيِ مـنكَ ويـنفعُ التعلـيمُ

إذ إنّ أكثَرَ الناسِ عادتهم أنهم يأمرونَ غيرَهم بالمعروف، فإذا آلَ الأمرُ إلى أنفُسِـهم تـركوهُ، حـتى إنّ أقبَحَ القبيحِ إذا صدَرَ عنهم كان في محل المسامحة، وأحسـن الحسـن. وإذا صـدَرَ عن غيرهم كان في محل المنازعة. فاللهُ سبحانه وتعالى نبّهَ في هذه الآية على سوء هذه الطريقة؛ حيث أمرهم بالقيام بالقسطِ أولا، ثـم أمـرهم بالشـهادة على الغير ثانيا؛ تنبيها على أنّ الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع غيره.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعـنده وجهـان آخـران يُنازَعُ فيهما؛ فالقيام بالقسط: هو دفعُ الضررِ عن الآخريـن. ودفـعُ الضررِ عن النفس مقدّمٌ على دفع الضرر عن الآخرين. ثمّ إنّ القيامَ بالقسطِ فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول(١).

ويـرى أبـو حـيان أنّ القيام بالقسط فعل وقول، ولذلك فهو أعمّ، والقيام بالشهادة قول فقط، فهو أخص، ومن ثمّ فقد تقدّم العموم على الخصوص(٢). إلّا أنّ أبـا حـيان لم يُبَيّن لنا دلالة العموم والخصوص في الآيتين، فتبقى بذلك محاولته ناقصة تحتاج إلى التتميم.

ج٢، ص١٣٥، والبيضاوي، ج٢، ص١٠٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥، ص٢٢٤-٢٢٥.

(١)انظـر الرازي، التفسير الكبير، مج٤، ص٢٤١. وفي رأي لأبي حيان أيضا أنّ القيام بالقسط: فعل وقول، والشهادة: قول فقط. انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٤،ص٩٤.

(٢) انظر أبا حيان، البحر المحيط، ج٤، ص٩٤.

ومجمـــلُ كلامـــه فـــي تأخير القسط في سورة المائدة، وتقديمه في سورة النســـاء: أنّ ذلك يعود إلى التوسع في الكلام، والتفنن في الفصاحة؛ فيلزم مَن كان قائماً لله أنْ يكون شاهدا بالقسط، ومَن كان قائما بالقسط أن يكون قائماً لله.

ولكنَّ أبا حيّان لم يقف عند هذه الكلمات، وأردف قائلا: إنّ التي في معرض المحـــبة والمحاباة بُدِئَ فيها بما هو آكد وهو القسط، وفي معرض العداوة والشنآن بُدِئ بالقيام لله، فناسب كل معرض بما جيء به إليه.

وتفصـــيل قولـــه هذا: أنَّ التي في النساء جاءت في معرض الاعتراف على النفس، وعلى الوالدين والأقربين، فبُدِئ فيها بالقسط الذي هو العدل والمساواة، من غـــير محابـــاة نفسٍ ولا والدٍ ولا قرابة. والتي في المائدة جاءت في معرض ترك العـــداوات والإحـــن، فبُدئ فيها بالقيام لله تعالى؛ لأنه أردع للمؤمنين، ثم الشهادة بالعدل.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وكذلـــك لم يُغفِل في توجيهاته هذه ما ذكره الأولون من أنّ في سورة النساء حديـــثا عـــن النشـــوز والإعراض، وقوله تعالى:﴿ فلا جناح عليهما أن يُصلِحا﴾ النســـاء:١٢٨، وقوله: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا﴾النساء:١٢٩، ولذلك ناسب ذكر تقديم القسط.

وفي المائدة كان تأخير القسط أولى من تقديمه؛ ليُناسبَ تأخّر ذكر العداوة في الســـورة فَـــيُجاورها. وهذا الأخير غير مقبول وحده، ولكنْ إذا ضُمَّ إلى غيره من التوجيهات زاد المعنى وضوحا(١).

ولعـــلَّ الإمـــام البقاعي من أكثر أئمة التفسير غَوصا وراء دلالات التقديم والتأخـــير في هاتين الآيتين؛ فهو يرى ابتداءً أنَّ تقديم القسط في سورة النساء على الشـــهادة لله، لأنَّ أعظـــمَ مباني هذه السورة هو العدل. فكونوا قوّامين على النساء

---

(١)انظر أبا حيان، البحر المحيط،ج٤، ص١٩٦.

اللاتـــي أخذتموهـــن بعهـــد الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وعلى غيرهن في الصلاة وغيرها من جميع الطاعات التي عاهدتم على الوفاء بها.

وقـــدَّم قوله تعالى﴿لله﴾ في سورة المائدة؛ لأنّ مبنى السورة على الوفاء بما هـــدى إلـــيه الكـــتاب، وهو العهد الوثيق الذي قد يخفُّ على النفوس، فيصح فيه النشـــاط، ويعظم العزم عليه بتذكر جلال الله وموثقه، وحفظ حدوده، ومن ثَمَّ عدم انتهاك حرمته؛ لأنّ المُعاهد إنما يُعاهِدُ باسم الله عزّ وجل(١).

ويـــرى الشـــهاب الخفاجي أنّهم لن يُصبحوا شهداء لله إلّا بعد مواظبتهم على العـــدل، واجتهادهم في إقامته، والمُحافظة على ذلك؛ تعظيما لمراعاة هذه العدالة. ولكنّه لم يكشف لنا عن سر هذا النسق القرآني في التعبير(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ونقل الألوسي عن الراغب الأصفهاني في تفسيره لقوّامين، وليس بيان دلالة الـــتقديم والتأخير أنّ التنبيه بلفظ القوامين لكون العدالة مرة أو مرتين لا تكفي، بل يجب أن تكون على الدوام، فالأمور الدينية لا اعتبار بها ما لم تكن مستمرة دائمة، ومـــن عـــدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلا. ومنه ينبغي أن يكون من عـــادتهم القـــيام بالحق في أنفسهم بالعمل الصالح، وفي غيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ابتغاء مرضاة الله، وذلك من باب تأكيد موضوع العدل(٣).

وتفصيل كلام الراغب ما ذكره محمد رشيد رضا، من أنّ قوّامين جمع قوّام، وهـــو المـــبالغة فـــي القيام بالشيء، وفي لفظة القيام دلالات واسعة دقيقة، فالقيام بالشـــيء هو الإتيان به مستويا تامّاً لا نقص فيه ولاعوج. ولذلك أمر تعالى بإقامة الصـــلاة، وإقامة الشهادة، وإقامة الوزن بالقسط لتأكيد العناية بهذه الأشياء. والآية

---

(١) انظـــر البقاعـــي، نظم الدرر، ج٥، ص٤٣١، وج٦،ص١ و ص٤٠. ومثله عند ابن عاشور في التحرير والتنوير،ج٦، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) انظر الخفاجي، عناية القاضي، ج٣، ص٣٧٠.

(٣) انظـــر الأصفهاني، المفردات، مادة(قوم)ص٦٩٠-٦٩٢، والألوسي، روح المعاني،ج٥،ص٢١٨ وج٦، ص٢٤٧-٢٤٨.

من سورة النساء هي أبلغ ما يُمكن أن يُقال في تأكيد أمر العدل والعناية به. فكونوا عادليـــن أو مُقسطين أبلغ من اعدلوا واقسطوا؛ لأنها أمر بتحصيل الصفة لا مجرد الإتـــيان بالقســـط الذي يصدق بمرة. وكونوا قائمين بالقسط أبلغ من أقيموا القسط، وأبلـــغ من ذلك كله: ﴿ **كونوا قوّامينَ بالقسط** ﴾ ؛ أي لتكن المبالغة والعناية بإقامة القســـط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحرَّوْهُ بالدقة التامة، حتى يكون ملكة راسخة في نفوسكم.

وعلى الجانب الصرفي فإنّ شهداء جمع لشهيد، بوزن فعيل، والأصل في هذه الصـــيغة أن تدل على الصفات الراسخة، كعليم وحكيم. فهو على هذا أمر بالعناية بموضوع الشهادة والرسوخ فيها([1]).

وأوجـــز فضل عباس فرأى أنّ آية سورة النساء نزلت في شأن تحقيق العدل مـــع ذوي الرّحم، والتي في سورة المائدة نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام؛ فتقدمـــت كلمة﴿لله﴾ في سورة المائدة، لكي لا يظُنّ أحدٌ أنّ عدم العدل مع الأعداء مـــن الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله. ولا كذلك آية النساء، لأن القسط فيها هو الأهم([2]).

وأقـــرب الأقـــوال قـــبولا في توجيه متشابه هاتين الآيتين، رأي أولئك الذين نظروا في مقصد السورتين، فوجَّهوا التقديم والتأخير على هذا الأساس؛ فكان تقديم القســـط في سورة النساء؛ لمناسبة عموم مقصدها، وهو العدل في أحكام الله كُلِّها، مع النفس ذاتها، ومع الآخرين، وخصوصا قضية الشهادة.

وفـــي ســـورة المـــائدة، ســـورة العقود، قُدِّمت القوامة لله، لأنّ ذروة العقود والمواثـــيق لا تكـــون صحيحة إلا إذا كان أساسها ميثاق الله؛ ومن ثَمّ لا حيف ولا ظلـــم. إذ إنّ العقـــود والمواثيق بعمومها وخصوصها لا تستمرُّ طويلا، ولا يُضفى عليها جانب التقدير ما لم تكن مبنية على الإخلاص لله، وعدم الخيانة.

([1]) انظر محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٥، ص٤٥٥-٤٥٦.

([2]) انظر فضل عباس، إعجاز القرآن، ص٢١٨.

المطلب الثاني: الفصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور

يتقدّم الفاعل و يتأخّر الجار والمجرور تارةً، ويتقدّم الجار والمجرور ويتأخّر الفاعل تارة أخرى، وكلّ ذلك لحكم بلاغية، وأسرار ربّانيّة.

قال تعالى: ﴿ **وجاءَ رجلٌ من أقصا المدينةِ يسعى** ﴾ القصص:٢٠.

وقال تعالى :﴿ **وجاءَ مِن أقصا المدينةِ رجُلٌ يسعى** ﴾ يس: ٢٠.

عزا الإسكافي نظم الآيتين إلى التبكيت والتعجب؛ ففي آية سورة يس قُدّم ما تبكيتُ القومِ به أعظم، والتعجب منه أكثر، ولم يكن في آية سورة القصص تبكيت للقوم بكونه ﴿مِن أقصا المدينة﴾ كما كان ذلك في الآية المتقدّمة([1]).

وعند الكرماني وزكريا الأنصاري لمّا كان في سورة القصص:﴿فوَجَدَ فيها رَجُليــنِ يقتَــتِلان﴾القصص:١٥ ناسبه تقديم﴿رجل﴾، فقال:﴿وجاءَ رجُلٌ﴾. وفي سورة يس قُدّم الجار والمجرور؛ لما رُوِيَ من بُعد المكان الذي يقطنه الرجل([2]).

ويــرى الغرناطــي أنّ الســؤال وارد على آية سورة يس، وليس على آية ســورة القصــص التــي جاءت وفقا للنظم الاعتيادي؛ لأنّ مرتبة الفاعل التقديم. والمعــنى المُجترح عنده دَعَوِيٌّ خالص. فالآية مثال على مَن بَعُدَ فلم يضرّه بعده، مقــابل كُفْرِ مَن باشر الرسل وشافههم، وطالت مراجعته، وشاهد الآيات، فلم ينتفع بقرب الدار.

وكأنّــه مــثالٌ لحال كُفّار قريش من أهل مكة، حيث لم ينفعهم التحام النسب، واتّحــاد الــدار، وعَتَوْا عن أمر ربِّهم، وعاندوا وتكبّروا. على حين آمنَ الأنصار برسول الله صلى الله عليه وسلم مع بعد دارهم. فلإحراز هذا المعنى قُدّم المجرور وتأخّر الفاعل([3]).

([1])انظر الإسكافي، درة التنزيل،ص٢٦٨.

([2])انظر الكرماني، البرهان، ص١٣٧، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص١٣١.

([3])انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج٢، ص٩٠٤-٩٠٧.

ولابن جماعة رأي مفاده: أنّ الرجل في سورة القصص أراد نُصحَ موسى علـيه السلام وحده، وفي يس قصد نُصح قومه، فلا جرم كان أشد وأسرع، فلذلك قَدم من أقصى المدينة([1]).

وبهـذا يكـون كلام الغرناطي شرحا لمجمل ما أورده الإسكافي، أما توجيه الكرماني والأنصاري فيحتاج إلى تتميم؛ فقد أشارا إلى الجانب اللفظي، ولكنّهما لم يُعنَـيا بالمعنى على ما له من قيمة في التوجيه والتأويل. ورأي ابن جماعة الأخير مُحـتَمل، ولكنّه في ما أرى ضعيف، ولا أظنّ أنّ الأمر متعلّقٌ بالسرعة من حيث كـون سيدنا موسى عليه السلام وحده، وأصحاب القرية جماعة، ومن ثَمَّ فالرجل على مصلحتهم أكثر حرصا.

وعند الرازي أنّ تقديم الجار والمجرور في سورة يس للإشارة إلى أنّ بلاغ الرسل وصل إلى أقصى المدينة([2]).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومـن لطيف القول في توجيه هاتين الآيتين ما جاء عند السكّاكي، في حديثه عن تقديم بعض معمولات الفعل على بعض، الذي رأى أنّ تقديم الجار والمجرور قـد يكـون للعـناية به، والاهتمام بشأنه، وعلة تقديمه في سورة يس خاصّة: هو اشـتمال ما قبله على سوء معاملة أهل القرية الرسل؛ من إصرارهم على تكذيبهم، وانهمـاكهم في غوايتهم، وغير ذلك من المعاندة والكبر. فكان ذلك مظنة أن يلعن السامع –على مجرى العادة – تلك القرية قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتا، ويـبقى بعد ذلك مجيلا في فكره، أكانت كلّها كذلك أم كان فيها قطر، دانٍ أم قاصٍ منبـت خير، منتظرا لإلمام الحديث به، بخلاف ما في سورة القصص التي لم يكن فيها هذا العارض([3]).

([1]) انظر ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٩٣.

([2]) انظر الرازي، التفسير الكبير، مج٩، ص٢٦٢-٢٦٣.

([3]) انظـر السـكّاكي، أبـا يعقوب يوسف، (ت٦٢٦هـ). مفتاح العلوم،ط١، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١١٤، والقزويني، الإيضاح، ج٢، ص١٦٩، والتفتازاني، المطول، ٣٧٩.

ولـــيس جواب أبي حيان بجواب في هذه المسألة حيث قال:" وفي القصص تأخر، وهو من التفنن في البلاغة"(١).

ولعلّ في كلام البقاعي توضيحا لما أوجزه الأولون من أمر السياق، وكذلك بعـــد الدار وعلاقة ذلك بالرسل والرسالة، حيث قال: " ولما كان السياق لأن الأمر بـــيد الله، فـــلا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى، فهو يهدي البعيد في البقعة والنسب إذا أراد، ويضل القريب فيهما إن شاء، وكان بعد الدار ملزوما في الغالب لـــبعد النسب، قدّم مكان المجيء على فاعله بيانا لأن الدعاء نفعَ الأقصى ولم ينفع الأدنـــى فقال: ﴿وجاء من أقصا﴾ أي أبعد، بخلاف ما مر في سورة القصص(٢)، ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية كما تقدّم وقال: ﴿المدينة﴾ لأنها أدل على الكبر المستلزم لبعد الأطراف وجمع الأخلاط "(٣).

ويـــرى ابن عاشور أنّ علّةَ تقديم الجار والمجرور في آية سورة يس لأجل الثناء على أهل أقصى المدينة؛ في إشارة إلى أنّ الإيمان بالله ظهر في أهل المدينة وطـــرفها قبل ظهوره في قلب المدينة، لأن قلب المدينة هو مسكن حكّامها، وأحبار الـــيهود، وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة ســـكانها تبع لعظمائها، لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم، بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملَةٌ ومن البدو. ومن ثَمَّ قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأنّ الإيمـــان يســـبق إليه الضعفاء، لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السعادة من تـــرف وعَظَمَـــة، إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة. وفي سورة القصص كان الـــرجل ناصـــحا، ولم يكن داعيا للإيمان، ولذلك جاء النظم على الترتيب الأصلي (٤).

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط،ج٩، ص٥٥.

(٢) حيـــث قُـــدّم فـــاعل المجـــيء(الرجل)، لأنّ الأمر يحتاج إلى مزيد عزم، وعظم قوّة.انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١٤،ص٢٦١-٢٦٢.

(٣) البقاعـــي، نظـــم الدرر،ج١٦، ص١٠٩، وانظر الخفاجي، عناية القاضي،ج٨، ص١٣، والألوسي، روح المعاني، ج٢٢، ص٥٤٣-٥٤٥.

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢، ص٣٦٥-٣٦٦.

وحاصل الأمر أنّ تقديم الجار والمجرور في سورة يس يرسم جانبا من جوانب الدعوة الإسلامية، في مرحلة من مراحلها؛ ففي التقديم بشارة وأمل، وتبكيت وتعجّب؛ أمّا التبكيت والتعجّب فظاهر، حيث عارض وتحدّى أصحابُ القرية المرسلين، ولم يؤمنوا لهم، مع ما جاؤوهم به من الأدلة والتعزيزات، في حين آمن رجل من أطراف المدينة، لم يشهد ما شهدوا، ولكنّه نأى بنفسه عن المكابرة، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤)قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥)قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦)وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨)قَالُوا طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(١٩)**وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى** قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(٢٠)اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ(٢١)وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٢)أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ(٢٣)إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٢٤)إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(٢٥)قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يس:٢٧.

وكأنّ في هذا إشارة واضحة إلى أنّ الكبر يَجُرُّ على أهله الويلات، بل هو أحد الأسباب الرئيسية في حجب الخير عن الناس. وفي التقديم كذلك دلالة على ما في أطراف المدن من خير إيماني، يجب استثماره، وتوجيه الأنظار الدعوية إليه، وقديما قيل:(الأطراف منازل الأشراف)([1]).

وأمّا البشارة فتكمن في نصرة الله لدينه، وتجاوز القوانين البشرية إلى القوانين الربّانية. ففي العُرف البشري أنّ التعزيز يُولِّدُ القبول والغَلَبة، ولذلك أراد

([1]) هذا من أقوال الحسن بن سهل ذي الرياستين، وزير المأمون ووالد زوجته بوران، كان مجوسيا فأسلم، اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة، وتوفي بسرخس سنة ٢٣٦هـ. انظر الثعالبي، عبد الملك،(ت٤٣٠ هـ).خاص الخاص، ط١، (شرح وتعليق مأمون الخيّان)، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٤م ص٢١.

الله سبحانه وتعالى أن يؤكّد لخاصة الدعاة، فضلا عن عامّتهم، أنّ الاستجابة منوطة بهداية الله وحده، وما جهد الدعاة إلّا وسيلة في سبيل هذا المقصد، ودليل ذلك إيمان هذا الذي جاء من أقصا المدينة، من غيرِ جهدٍ بشريٍ يُذكر.

وفي سورة القصص جاء النظم القرآني وفقا للأصل في التقديم والتأخير. ودلالة ذلك أنّ المقام مقام نصح وإعلام، وفيه التركيز على نصرة الله لأوليائه، بغض النظر عن جهة القُدوم، ولكنّها تعيّنت هنا عقب الفاعل، إشارة إلى أنّ الحُكّام قد يسكنون أطراف المدينة توقّيا عن النعرات والانقلابات، ولِتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف، أو أنّهم يعتمدون كثيرا على البدو، أو يستخدمون مَن هم في أطراف المدن، فما أنْ سمع هذا الرجل الخبر حتّى جاء ناصحا لموسى عليه السلام.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وبهذا فإنّ المقام ليس مقام دعوة وانتشارها أو قبولها، إنّما هو توجيهٌ ربّاني إلى وجوب تقديم النصح والمشورة إلى أولياء الله، ويتعيّن ذلك عند احتمال وجود خطر أو مكيدة بهم، قال تعالى:﴿ فلمّا أنْ أرادَ أنْ يبطشَ بالذي هو عَدُوٌّ لهما قالَ يا موسى أتُريدُ أنْ تقتُلَني كما قتلْتَ نفْسا بالأمسِ إنْ تُريدُ إلّا أنْ تكونَ جبّاراً في الأرضِ وما تُريدُ أنْ تكونَ منَ المُصلحين(١٩) **وجاءَ رجلٌ من أقصا المدينة يسعى** قالَ يا موسى إنّ الملأَ يأتَمرونَ بكَ ليَقتُلوكَ فاخرُجْ إنّي لَكَ من النّاصِحين(٢٠)فخَرَجَ منها خائفا يترَقّبُ قالَ ربِّ نجّني منَ القومِ الظّالمين(٢١) ﴾ القصص: ١٩-٢١، فلا اعتبار حينئذ بالمكان أو المقام، فكلّ من يقدر على المساعدة يتعيّن عليه تقديمها.

المبحث الثالث: المتشابه اللفظي في التكرار الجُمَلي

هـذا نمـط مـن الـتكرار، سمّيته اجتهادا: التكرار الجملي، ولقد بنيته على مطلبين اثنين، فعرضت لما جاء منه على حرفين، ولما جاء على ثلاثة أحرف(١). ويعـود سـبب الاقتصار على هذين المطلبين دون غيرهما إلى طول هذا المبحث فيما لو أردت تتبع هذا اللون التكراري، ولكنّي حاولت أن أرسم طريقا تُحتذى في دراسـته، فمـن يفقـه ما جاء على حرفين، بإمكانه أن يدرس ما جاء على ثلاثة أحرف، ومن يتبنّى هذه الكيفيّة من الدراسة، بإمكانه بعد ذلك أن يُتابع مسيرته مع بقية الأعداد التكرارية، على صعيد المفردة، والجملة على حدٍّ سواء.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

(١) وقصـد بالحرفيـن، والـثلاثة أحرف: أنّ الجملة تكرّرت دون تغيير في ترتيبها على الرغم من اختلاف السـياق، مرّتيـن، أو ثـلاث مرّات، وهذا مصطلح في كتب علوم القرآن؛ فقد أورد الزركشي تحت عنوان المتشـابه اللفظي جملة من التقسيمات، منها: ما جاء على حرفين، وما جاء على ثلاثة أحرف، وما جاء على أربعة حروف، وما جاء على خمسة حروف...إلخ. انظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٢٤-٢٤١

المطلب الأول: التكرار الجملي في ما جاء على حرفين

قال تعالى:﴿ **وَأَخَذَ** الذينَ ظَلَموا الصَّيحَةُ **فَأَصبَحوا في ديارِهِم جاثمينَ**﴾ هود:٦٧.

وقال تعالى:﴿ ولَمَّا جاءَ أَمْرُنا نجَّينا شُعَيْباً والذينَ آمَنوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا **وأَخَذَتِ** الذين ظَلَموا الصيحَةُ **فَأَصْبَحوا في دِيارِهِم جاثِمينَ** ﴾ هود:٩٤.

يصعب دراسةُ آيةٍ أو جزء من آية دون النظر في ما يُجاورهما؛ لعلاقاتٍ بلاغية وشيجةٍ لا يُمكن تجاهلها في فهم السياق القرآني؛ ففي آيَتَي سورة هود تشابهٌ آخر على صعيد الحرف والكلمة، وبينهما وبين آياتٍ أخر تشابه يَصُبُّ في تَجلية العلاقة القائمة بين عناصر الصورة القصصية التي رَسَمَتْها الجملة الأخيرة من نهاية قوم صالح وشعيب عليهما السلام، ولأجل ذلك فقد اقتضى ذكر هذا التشابه ومعالجة ما يخدم هاتين الجملتين.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

فالاشتراك حاصل بين آيتي سورة هود الآنفتي الذكر وآيتي سورة الأعراف، إضافة لآية سورة الشعراء وآية سورة العنكبوت. ففي حق **ثمود**؛ قوم صالح عليه السلام، قال تعالى:﴿ فَأَخَذَتهُمُ **الرَّجفَةُ** فَأَصبَحوا في **دارهم** جاثمينَ﴾ الأعراف: ٧٨ ، وقال تعالى:﴿ **وَأَخَذَ** الذينَ ظَلَموا **الصَّيحَةُ** فَأَصبَحوا في **دِيارِهِم** جاثمينَ﴾ هود: ٦٧.

وفي أهل مدْيَن؛ قوم شعيب عليه السلام قال تعالى:﴿ فَأَخَذَتهُمُ **الرَّجفَةُ** فَأَصبَحوا في **دارهم** جاثمينَ﴾ الأعراف:٩١، وقال تعالى:﴿ ولَمَّا جاءَ أَمْرُنا نجَّينا شُعَيْباً والذينَ آمَنوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا **وأَخَذَتِ** الذين ظَلَموا **الصيحَةُ** فَأَصْبَحوا في **دِيارِهِم** جاثِمينَ ﴾ هود:٩٤، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبوهُ فَأَخَذَتهُمُ **الرَّجْفَةُ** فَأَصبحوا في **دارهم** جاثمينَ﴾ العنكبوت:٣٧. وفي أصحاب الأيكة؛ قوم شعيب عليه السلام أيضا قال تعالى:﴿ فَكَذَّبوهُ فَأَخَذَهُم عذابُ يومِ **الظُّلَّةِ** إنّه كان عذابَ يومٍ عظيم﴾الشعراء: ١٨٩.

إنّ آيـــة هـــذا المبحـــث هي قوله تعالى في حقّ قوم صالح وشعيب عليهما السلام: ﴿ **فأصبحوا في ديارهم جاثمين**﴾ هود:٦٧، هود:٩٤. ولكنّ المُلاحظ أنّ هذه الآيات تتشابه على صعيدٍ آخر من حيث: اختلاف الفعل(أخذ)، فهو يتجرَّد من علامـــة التأنيث مرة، ويتّصل بها في أخرى، وكذلك التعبير مرة بالصيحة، وثانية بالـــرجفة، وثالـــثة بالظُّلَّة، وفي الآيات أيضا توحيد الدار في موضع، وجمعها في آخـــر، أضـــف إلـــى ذلك كلّه ما نحن بصدد التفصيل فيه، وهو ختام قصة صالح وشعيب عليهما السلام في سورة هود بقوله تعالى:﴿ **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ هود:٦٧، ٩٤.

أمّـــا تأنيث الفعل في قصة شعيب﴿**وأخذتِ** الذين ظلموا **الصيحةُ**﴾ فهو عند الإسكافي للتغليب ومناسبة التأنيث؛ إذ إنّ في القصة ثلاث لفظات مؤنّثة في التعبيرِ عن العذاب الذي أهلكوا به، وهي: ﴿الصيحة﴾ و ﴿الرجفة﴾ و ﴿الظُّلَّة﴾(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

وعند الكرماني هما حسنان، إلّا أنّ التذكير أخف في قصة صالح، وفي قصة شعيب ليُوافق ما بعدها، وهو قوله تعالى:﴿ **كما بعدت ثمودُ** ﴾ هود:٩٥(٢).

وعـــند الغرناطـــي يجوز الوجهان: الحذف والإثبات، استنادا إلى الفصل بين الفعـــل وفاعلـــه؛ فمن المشهور في العربية أنّه إذا حجز بين الفعل والفاعل فاصل جـــاز التذكير والتأنيث، وفي القرآن الكريم: ﴿ فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فلـــه مـــا سلف﴾البقرة:٢٧٥، ومنه قوله تعالى في حق قوم صالح: ﴿ **وأخذ** الذينَ ظلموا **الصَّيحةُ**﴾ هود:٦٧، إلّا أنّ الحذف أحسن، وما اختلافهما في الآيتين إلّا من باب الجمع بين الوجهين، خصوصا أنّهما في سورة واحدة(٣).

---

(١) انظر الإسكافي، درة التنزيل، ص١٦١، وكذلك عند زكريا الأنصاري في فتح الرحمن،ص١٤٦-١٤٧.

(٢) انظر الكرماني، البرهان، ص٨٥.

(٣) انظر الغرناطي، ملاك التأويل،ج٢، ص٦٦٠-٦٦١.

وروى القرطبـــي في تفسيره أنّ ابن عبّاس قال: " ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب؛ أهلكهم الله بالصيحة، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم "(١). ولكنّ هذا التفريق ليس على أساس العناصر الداخلية للنص.

ولئـــن كـــان الكرماني يرى أنّ حذف الحرف في قصة صالح يدل على خفة الفعل، فإنّ البقاعي يرى أنّ الحذف يدل على قُوّة في الفعل، فقال في صيحة شعيب الـــواردة بالتاء: " وكأنها كانت دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم، فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك "(٢).

وأمّـــا عـــن توحـــيد الدار في موطن، وجمعها في موطن آخر، فمردّه عند الإسكافي إلى وجهين:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أولا: لأنّ المقصـــود بدارهـــم إنمـــا هو بلدهم على التوحيد، وبالجمع على الجنس كما في قولنا: دينارهم شرٌّ من درهمهم.

ثانيا: إنّ في التوحيد والجمع معنى آخر مفاده: أنه سبحانه وتعالى حيث ذكر فـــي ابتداء القصة ﴿وإلى﴾، ولم يُخرج النبي ولا الذين آمنوا معه من بينهم **وحّد** الـــدار، رجـــاء أن يصـــيروا بالإيمان فِرقة واحدة. أو خاطبهم بالأصل، وهو أن يكونوا أهل دار واحدة، قال تعالى: ﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحا ... فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج٩، ص٦٢ .

(٢) البقاعـــي، نظم الدرر،ج٩،ص٣٦٧. ولقد أوجز الرازي والقرطبي وابن منظور في تخريج حذف حرف الـــتاء لأن الصـــيحة محمولـــة على الصياح. وفي تأنيث الفعل روعي لفظ الصيحة. انظر الرازي، التفسير الكبير،مج٦،ص٣٧٠-٣٧١ و القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج٩،ص٦٢ وابن منظور، لسان العرب، مادة: (صيح) إلا أن الرازي قال: " وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث " الرازي، التفسير الكبير،مج٦،ص٣٧٠-٣٧١.

فَأَصبَحوا في **دارهم** جاثِمينَ﴾الأعراف:٧٣-٧٨. وقال تعالى: ﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُـعيباً... فَأَخَذَتهُمُ **الرَّجفَةُ** فَأَصبَحوا في **دارهم** جاثِمينَ﴾ الأعراف:٨٥-٩١. وقال تعالى: ﴿ وإلى مدْيَنَ أخاهم شُعيبا... فَأَخَذَتهُمُ **الرَّجفَةُ** فَأَصبَحوا في **دارهم** جاثِمينَ ﴾العنكبوت:٣٧.

وكـلّ موضع أخبر فيه عن تفريقه بينهم، وإخراج النبي، ومَن آمن معه من بيـنهم **جمـع** الدار؛ إشارةً إلى تفرّق شملهم، وتشتت أمرهم، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأبٍ واحدٍ ودار واحدة، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة([1]).

وعند الكرماني حيث ذكر الحق تبارك وتعالى﴿الصيحة﴾ جاء التعبير بـ﴿ ديارهم﴾ لأنّ الصيحة كانت من السماء، وحيث ذكر ﴿الرجفة﴾ عبّر بـ﴿دارهم ﴾ لأنّ الـرجفة تخـتص بالزلـزلة ومجالها الأرض، كما أنّ فيها إشارة إلى شدّة العذاب بعظم الاضطراب. ولأن الصيحة كانت من السماء فإنّ بلوغها أكثر، وأبلغ مـن الزلـزلة، وفيها كذلك إيماء إلى عموم الموت بشدة الصوت([2]). وبهذا يكون الكرمانـي قـد أجـاب عن سؤالين: عن توحيد الدار وجمعها، وكذلك عن التعبير بالصيحة والرجفة.

ومـع أنّه لا كبير اختلاف في المعنى الحاصل عن العبارتين عند الغرناطي، إلّـا أنّه أجاب برأي الكرماني في التعليق على سؤالي: الصيحة والرجفة، والتعبير بـ﴿دارهم﴾ و﴿ديارهم﴾. وأورد تعليقا آخر على اختصاص سورة هود بـ﴿ الصـيحة﴾ دون ﴿الرجفة﴾ في إخبارها عن نهاية قوم شعيب، حيث رأى أنّ قبل التعبـير بـ ﴿الصيحة﴾ ذكر مرتكبات قوم شعيب، وسوء ردّهم على نبيّهم؛ من اسـتهزاء، وإساءة، وتشنيع، وذلك لم يرد مثله في سورة الأعراف، ولا العنكبوت،

([1]) انظر الإسكافي، درة التنزيل، ص١١٥.

([2]) انظـر الكرماني، البرهان،ص٦٣، و ص٨٥، ومثله ما جاء عند أبي حيان، البحر المحيط، ج٥، ص٩٧، وابـن جماعـة في كشف المعاني، ص١٨٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج٧، ص٤٤٩-٤٥٠، و ج٩،ص٣٢٥-٣٢٦، و زكريا الأنصاري في فتح الرحمن،ص١١١.

ولأجل ذلك ناسبهم عموم العذاب، وهو ﴿الصيحة﴾. أو أنّ قوم شعيب عليه السلام أُخِــذوا بأنواع من العذاب: بالصيحة والرجفة والظلّة لقبيح مرتكبهم وسوء ردّهم، فورد ذلك على التدريج والتناسب(١).

هذا مُجمل ما قدّمه الأوّلون في مسألة تذكير الفعل وتأنيثه في الآيتين، وذكر الصيحة والرجفة، وتوحيد الدار وجمعها، وذلك من الناحية النحوية واللغوية. ومع عظــيم جهدهــم إلّــا أنّهم أغفلوا ربط ذلك بالسياق ربطا يكشف لنا عن دلالة هذه التعبيرات، وكذلك عن حقيقة سر الجملة الأخيرة من الآيتين.

والــذي يــبدو لــي أنّ الجملة الأخيرة تُمثِّلُ صورةً من نهايةٍ لمقطعٍ دَعَوِيٍّ سـجلته سورة هود على نحو من النظم المتشابه؛ فقد كذّب قومٌ صالح كمن سبقهم مــن قــوم نوح وهود، وجادلوا وتكبّروا وعتوْا وعقروا، فنجّى اللهُ صالحا والذين آمنوا معه، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يَغنَوْا فيها.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

لقــد قامت الحُجّة على قوم صالح عليه السلام بتذكيرهم بحال من سبقهم من الأمــم، وبالناقة التي أخرجها الله لهم من الصخر، وغير ذلك من البراهين، ولكنهم زادوا فــي تكــبرهم وتطاولوا على قدرة الله وقوته، فنزل بساحتهم العذابُ نتيجةً لعصيانهم، وقتْلهم ناقة الله، وبرهانا على قوة العزيز الجبّار ﴿فلمّا جاءَ أمْرُنا نجّينا صــالحاً والذينَ آمنوا معه برحمةٍ منّا ومن خزيِ يومئذ﴾ هود:٦٦ وكانت النجاة لمن آمن، ثم خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿**إنّ ربّك هو القويُّ العزيز**﴾ وشاهد ذلك: ﴿**وأخَــذَ الذين ظلموا الصيحة...**﴾ بمعنى إنّ بداية هذه الآية دليل على نهاية التي قبلها.

وفــي قوله تعالى: ﴿ **فأصبَحوا في ديارِهم جاثمينَ**﴾ هود:٦٧ دلالة واضحة علــى اجتثاث القوم، هذا فضلا عمّا فيها من تصوير للعذاب، حيث تركت ديارهم خالية، كأنّ أحدا لم يسكنها من قبل، وهي صورة مُتخيَّلة.

---

(١) انظر الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٥٣٣-٥٣٦.

وفـــي الآيـــة أيضـــا دلـــيل على أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين؛ فمهما عمّر الظالم، وبنى القصور ونحت الجبال، فإن الظلم سبب رئيس في محق هذه النعم وغيرها من الآلاء.

وفـــي قصة مدين قوم شعيب عليه السلام أمر ونهي وترغيب وترهيب، ومع ذلك لم يَصيخوا لدعوة شعيب، وتكبروا فلم يعبدوا الله، ونقصوا المكيال والميزان، ولم يعدلوا، وولجوا سُبُلَ الفساد، وجادلوا شعيبا واستهزؤوا بدعوته، فأرشدهم إلى الاعتبار والاستغفار، وحذّرهم نهاية من سبقهم من الأمم، ولقد وصل الأمر ذروته، ومـــا حال بينهم وبينه عليه السلام إلا رهطه على ما زعموا، متخذين الحق تبارك وتعالى وراءهم ظهريا، إلى أنْ جاء أمر الله، فنجّى شعيبا ومن آمن معه، وأخَذَت الذيـــن ظَلَمـــوا الصـــيحَةُ فَأَصْبَحوا في ديارهم جاثمينَ، كأنْ لمْ يَغْنَوْا فيها ألا بُعْداً لمَدْيَنَ كما بَعِدَت ثمودُ.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

مشـــهدان يثيران الحزن على مصير أمتين من الأمم السالفة، ويوجبان الحمد والشـــكر علـــى أمـــة محمـــد صـــلى الله عليه وسلم، حيث لم يأخذهم الله بالتكبر والعصيان كما أخذ من سبقهم من الأمم.

ولقـــد مُثّلت العناصر القصصية في المشهدين خير تمثيل، وما يعنينا من ذلك في هذا المقام، هو النهاية التصويرية، التي جاءت على نحو من التشخيص الحي، ذي الحركة الظاهرة.

فصـــوت صفير الصاد في ﴿**الصيحة**﴾، وفي لفظة ﴿**أصبحوا**﴾ يبعث على القـــوة فـــي انتشار الفزع، وذلك بما في صفته من دلالة على علوّ الصوت وقوته، وهـــو بذلـــك متناســـب مع ما تقدّم من حديث عن الصيحة. وليس الأمر كما قال الطـــبري من أن الرجفة هي الصيحة([1])، بل كل لفظة لها دلالتها التي تميزها من غيرها.

([1]) انظر الطبري، جامع البيان،ج٨،ص٢٧٣.

وبعـــيدا عـــن معمعة الترادف وما قيل فيه، فإنّ خلاصة ما أريد تبيانه: أني اســـتقريت الآيات التي وردت فيها لفظة الصيحة، والآيات التي وردت فيها لفظة الـــرجفة، فألفيت سياق اللفظتين متشابها إلى حد كبير، غير أن الآيات التي وردت فـــيها لفظـــة الصيحة كانت تدل على النهاية، أما آيات الرجفة ففيها مجال لعذاب لاحق، ولا حسم في هذا التبيان، إلا أن الرجفة –فيما يغلب على ظني– هي نتيجة للصيحة. وقد فرّق البقاعي من قبل بين صيحة القومين، ولكنّه لم يقطع هذا الأمر، بل بناه على الظن والاحتمال. ولعلّ مبنى كلام البقاعي على القوة والضعف مأخوذ مـــن وصف قوم ثمود، وما اشتهر عنهم من قوة خارقة إذا ما قيست بزماننا، ولقد عُذّب القوم بالرجفة والصيحة.

وفـــي حذف التاء من لفظة﴿**أخذت**﴾ دلالة أخرى على عظم هذه الصيحة، وكـــأن الخطـــب الذي صورته سورة هود أعظم من غيره، ولذلك كانت الديار مع الصـــيحة التي عمّت الأماكن القريبة والمتباعدة، فأهلكت أهلها، ومزّقت جماعتها، وفرّقـــت شـــملها، فكانـــت بهذا الوصف من القوة المفرطة، والشدة البالغة بحيث تنزعج من وصفها النّفوس، وتَجبّ لها القلوب.

وفـــي الفصـــل بين الفعل والفاعل ملحظ آخر، إذ لولا الفصل لما جاز حذف التاء من الفعل (أخذ) في الآية الأولى، وفي هذا دلالة على أنّ المأخوذ بهذا العذاب هـــم الظالمون وحدهم دون غيرهم؛ لأن الصف قد انقسم قسمين: قسما آمن وقسما كفر، فكان لا بد من نتيجة عاجلة لهذه الحال.

وفي قوله تعالى: ﴿ وأخذ الذين ظلموا﴾ دلالة على نجاة من آمن، وعليه فقد حمـــل هذا الجزء من الآية في ظلاله معنيين، معنى قريبا ظاهرا، ومعنى آخر هو ظلال للمعنى الظاهر، وهو نجاة من آمن مع النبيين. ولم يُظهر الناجين على حين أظهـــر الظالميـــن؛ لأن إظهار الظالمين لم يكن تشريفا لهم بل تقريعا وتوبيخا في ســـياق البطش والعذاب، واكتفى بالمعنى الظلالي فيما يتعلق بجانب الناجين؛ إبعادا لهم عن صيحة العذاب وهولها، ولعلّ في ذلك تشريفا عظيما للمؤمنين.

ومـــن حيـــث الدلالة الصرفية فإنّ كلمة ﴿**جاثمين**﴾ تُعَدُّ لبنة رئيسة في بناء المشـــهدين، فاسم الفاعل بدلالته على الحدث والحدوث وفاعله، يفيد الاستمرارية، ولكـــنه لـــيس ملازما لصاحبه، فقصد الثبوت فيه طارئ، يدل على ذلك ما ذكره الزمخشـــري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فلعلَّك تاركٌ بعضَ ما يوحى إليكَ وضائقٌ بـــه صـــدرُك﴾ هود: ١٢، قال : " فإن قلت: لم عدلَ عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: لـــيدل علـــى أنه ضيق عارض غير ثابت، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أفســـح الـــناس صدرا. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد "(١).

وفـــي دلالـــة هذه الصيغة على الاستمرارية تحذير كذلك من نزول العذاب بساحة مَن يجترحُ مثل سيئات قوم صالح، أو يعصي الله ويتمرد على أوامره تكبرا واســـتهزاء. وأمـــا عدم ملازمته لصاحبه فظاهر، فقد أصابهم العذاب فمكثوا زمنا غـــير دائم على حالهم هامدين لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، موتى لا يـــتحركون، إلـــى أنْ بعث الله قوما غيرهم، أو تحولوا إلى عناصر أولية، كأن لم يعيشـــوا فيها. دل عليه قوله تعالى: ﴿**فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يَغْنَوْا فيها**﴾.

ولما كان الجامع بين القصتين في هذا المقام هو التهكم والاستهزاء والتفاخر بالشدة والقوة على صالح وشعيب عليهما السلام، كان لا بد من عذاب شديد يكون رادعـــا لكـــل مـــن يعـــتدي على أولياء الله، ويُظهر ضعفَ القوم أمام قوة العزيز الجـــبار. ومـــن ثَـــمّ ليس من المستغرب أن تكون لفظة﴿**جاثمين**﴾ في نهاية الآية تحمـــل شـــيئا مـــن الدلالة على أفعالهم في الحياة الدنيا، فإنّ فيها صورة تهكمية، واضـــحة معالمهـــا، ومـــا ذلك إلّا جزاء تهكّمهم على أولياء الله، وكأنّ في الجزاء قسطا من جنس العمل، فإنّ في اللفظة صورة حركية لسقوطهم على وجوههم، وقد لصقوا بالتراب، كالطير إذا جثمت.

---

(١) الزمخشري، الكشاف،ج٢،ص٣٦٨.

ومـــن ثَـــمَّ فإنَّ الجملة الأخيرة من الآيتين ممزوجة برائحة الحدث، الذي قام برســـم صورة تشخيصية تبعث الحزن والحسرة، فيضطر المرء إلى الحوقلة أمام هـــذا المشـــهد الاعتباري؛ قوة وشدة، وتمرد وعصيان، فعذاب تركهم جثِيًا هامدة تـــتقزّز منها النفوس السليمة. إلى أن تسمو لفظة العذاب في دلالة واسعة لا تخص قوما بعينهم، مُعلنة نهاية الظالمين، وسوء مصيرهم.

ولا تقل لفظة ﴿ **فأصبحوا**﴾ هي الأخرى في دلالتها عن لفظة ﴿**جاثمين**﴾؛ فقـــد بـــدأ الشريط في الآية التي نحن بصددها بالأخذ المُتَسبَّب عن ظلمهم، فكانت الصيحة، صباح يومهم، وبمجرد ورودها كانت النتيجة، دلّ على ذلك تصدير لفظة الصـــباح بالفاء. وخُصَّ الصباح بالذكر دون غيره لأنه مظنة توقع الارتياح، فهو أدعـــى للألـــم والتبكيـــت. فلم يأتهم العذاب في وقت السآمة والضجر، بل جاءهم مُصبحين حسرة وموتا وهم يُشاهدون. ولعلّ في لفظة ﴿ديارهم﴾ زيادة في الحسرة والتوبيخ، مع ما في ذلك من إظهار لقوة البطش، فلم تمنعهم حصونهم و قصورهم ولا ما نحتوا من جبال وبنَوْا من بيوت. لتكون النتيجة النهائية: ﴿ **وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذَ القُرى وهيَ ظالمةٌ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ** ﴾ هود: ١٠٢(١).

---

(١) لقـــد أفدت من مجموعة من كتب التفسير فيما يتعلّق بآيتي سورة هود فانظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، ج١٢، ص٨١-٨٢ وص١٣٠، والزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٣٩٢ و ص٤٠٩، والقرطبي، الجـــامع لأحكام القرآن، ج٧، ص١٥٤ و ج٩، ص٤١-٤٢ و ص٦٢، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٣، ص ١٤٠ و ص١٤٧، الرازي، التفسير الكبير، مج٦، ص٣٧٠-٣٧١، وأبا حيان، البحر المحيط، ج٥، ص٩٦-٩٧ و ج٦، ص١٧٨ و ص٢٠٢-٢٠٤، والبقاعـــي، نظـــم الـــدرر، ج٧، ص٤٤٩-٤٥٠ و ج٩، ص٣٦٧، والألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص٤٠١-٤٠٢ ، وفضل عباس، قصص القرآن الكريم،ص٢٢٩-٢٤٩.

المطلب الثاني: التكرار الجملي في ما جاء على ثلاثة أحرف

قـال تعالى:﴿ **وإذْ قالَ موسى لِقوْمِه يا قومِ** إنَّكُم ظَلَمتُم أنفُسَكُم باتِّخاذِكُمُ العِجْـلَ فتوبوا إلى بارِئِكُم فاقتُلوا أنفُسَكُم ذلِكُم خيرٌ لَكُم عندَ بارِئِكُم فتابَ عليكُم إنَّهُ هوَ التوّابُ الرَّحيمُ(٥٤) ﴾ البقرة:٥٤

قـال تعالى: ﴿ **وإذْ قالَ موسى لِقوْمِه يا قومِ** اذكُروا نِعمَةَ اللهِ عليكُم إذْ جَعَـلَ فـيكُم أنبـياءَ وجعَلَكُـم مُلوكاً وآتاكُم ما لم يُؤْتِ أحَداً من العالمينَ(٢٠) ﴾ المائدة:٢٠

قـال تعـالى: ﴿ **وإذْ قالَ موسى لِقوْمِه يا قومِ** لِمَ تُؤذونَني وقد تعلمونَ أنّي رسولُ اللهِ إليكُم فلَمّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهُم واللهُ لا يَهدي القومَ الفاسقينَ(٥) ﴾ الصف:٥

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إن توسـع دائـرة المتشابه تقتضي إمعان النظر في سياق كل آية مقصودة، وربطـه بسياق الآيات الأخرى التي يتشابه معها، لكي يكون وجه الشبه المُجترَح سـائغا غير نابٍ ولا مُتكلَّف. فمن الخطورة والمجازفة أن يُعالَجَ الجزءُ المختصُّ بالمتشـابه دون الـنظر فـي سياق الآية التي ورد فيها، وعلاقته بالآيات السابقة واللاحقة، وعلاقة ذلك كله بالمقصد العام للسورة.

ففـي سـورة البقرة التي كشفت النقاب عن أخلاق بني إسرائيل، وفي سورة المـائدة؛ سـورة العهـود والمواثيق، وفي سورة الصف التي أرشدت إلى طاعة الرسـول وتعظيمه، وعدم عصيانه أو مخالفة أوامره، في هذه السور الثلاث ورد التعبير القرآني: ﴿ **وإذْ قالَ موسى لِقوْمِه يا قومِ**﴾.

وقبل الكشف عن سياق الآيات الثلاث، نلحظ أن هذا الأسلوب في التعبير فيه الشفقةَ والتحَنُّنُ والتقرّب على نحو من التنغيم التحبُّبيِّ الذي يستميل القلوبَ ويَهزُّها هزّا، وكأنَّه مقدّمة لأمر عظيمٍ موصول بعضه ببعض، وَصلَ المعلولِ بالعلَّةِ.

فـــإذا أمعـــنا النظر في سياق الآيات، وجدنا أن الجزء الذي يلي هذا التعبير عظـــيمٌ جدا، بَلْ في غاية الأهمية؛ فآية سورة البقرة تأكيد من موسى عليه السلام لبنـــي إسرائيل أنَّهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم العجل، وإشراكهم بالله، مع جليل النعم المُـــتَقَدِّمة التي أكرمهم الله بها. وأي ذنب أعظم من الشرك بالله ﴿**إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عظيم**﴾لقمان:١٣، وليس هذا حسب، بل إن المرء – كما يقول الإمام البقاعي–: " لا يصـــلح أن يـــتذلل ويتعـــبد لمثله، فكيف لمن دونه من حيوان! فكيف بما يُشَبَّه بالحـــيوان من جماد..."([1]). خَطْبٌ جَلَل، تلزمه توبة صادقة لا نفاق فيها ولا رياء. وأمـــر التوبة في غاية الأهمية لهم، فهي كفيلة بأن تنقلهم من سخط الله عليهم إلى ســـعةِ رحمـــته ورضاه، ولكنَّ عِظَمَ الأمرِ في كيفية التوبة التي بيّنها لهم نبيُّ الله؛ موســـى علـــيه الصلاة والسلام، فهي توبة من جنس خاص، تقوم على أن يستسلم الواحـــد مـــنهم للقـــتل، فيقـــتل نفسه على الحقيقة لا على المجاز. وكما نقل أكثر المفســـرين: عمـــدوا إلى الخناجر، فجعل يطعن بعضهم بعضا، لا يحنُّ رجل على رجلٍ قريبٍ ولا بعيد، فجعل الرجل يقتل أباهُ، ويقتل ولده، حتى استحرَّ القتل فيهم. وفـــي الـــروايات كادوا يهلكون من كثرة القتل، حتى قتل منهم سبعون ألفاً إلى أنْ تِيـــبَ علـــى القـــاتل والمقتول، فكان من قُتِلَ من الفريقين شهيدا، وتاب الله على الباقين([2]). فذنبهم عظيم، وكيفية توبتهم توجب الحمد والشكر على أمة محمد صلى الله علـــيه وســـلم، الأمـــة التي أكرمها الله، بأنْ جعل توبتهم–وإن تكررت ذنوب مُسيئيها– قائمة على مجرد الندم والإقلاع وعدم العودة.

ولا يقلُّ عظم الأمر وأهميته في سورة المائدة عنه في سورة البقرة، فالسورة سورة العقود والمواثيق، والآية التي نحن بصددها وثيقة الصلة بالآية الثانية عشرة مـــن السورة نفسها ﴿**ولقد أخذَ اللهُ ميثاقَ بني إسرائيل**﴾؛ فلقد عصى بنو إسرائيل

([1]) انظر البقاعي، نظم الدرر،ج١، ص٣٧٣.

([2]) انظـــر الطبري، جامع البيان،ج١، ص٣٢٨-٣٣١، و القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج١،ص٢٧٣، و الرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥١٥-٥١٨، و أبا حيان، البحر المحيط، ج١، ص٣٣٥، و الخفاجي، عناية القاضي،ج٢،ص٢٥٧، و الألوسي، روح المعاني، ج١، ص٣٥٢.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وتمرّدوا، وتنكّروا لنعم الله عز وجل، فأخبر الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تسـلية له وإعلامـا: بـأن يهود جارون مجرى أسلافهم مع موسى عليه السلام، فكونـوا على حَذَرٍ وبيِّنةٍ من أمرهم، فهم قوم لا يصبرون على العهود والمواثيق، وفي هذا المعنى يقول سيد قطب: " وإننا لنلمح في كلمات موسى – عليه السلام – إشـفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب، فلقد جربهم من قبل في (مواطن كثـيرة) في خط سير الرحلة الطويل...لقد جربهم فحق له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات "([1]).

إنّ المُتَدبّر لآية المائدة يرى أنّ فيها تذكيرا بثلاث نعم عظيمة، أولاها بالذكر وأشرفها: أن جعل فيهم الأنبياء، والثانية: أن جعلهم ملوكا، والثالثة: أنه آتاهم ما لم يـؤتِ أحـدا من العالمين في زمانهم. هذه نعم جليلة، تقدّمها خطاب موسى عليه السلام ناصحا إياهم ومستميلا لهم بإضافتهم إليه، لعلّى أنه منهم، وهم منه، تذكيرا لهـم وتوطئة لنفوسهم، وكما يقول أبو حيان: "وليعلموا أن من أنعم الله عليه بهذه الـنعم العظـيمة لا يخذـله الله، بل يعليه على عدوه، ويرفع من شأنه، ويجعل له السـلطنة والقهـر عليه "([2]). والآيات التي تلي ذلك عظيمة الشأن – وكل القرآن عظيم –، وليس هذا حسب، بل موجبة لدوام النعم السابقة، أو على تعبير البقاعي: مقيِّدة لها([3]).

ويـبقى السـؤال: مـا هو موضوع هذه الآيات التي استدعت هذا اللون من الخطاب، وهذا الحشد من عظيم النعم، والحث على الوفاء بما عاقدوا الله عليه من الطاعـة، وهـو مقصد سورة المائدة؟ إنه دخول الأرض المقدّسة، وقتال الجبّارين فيها، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ**

([1]) سيد قطب، في ظلال القرآن،ج٦، ص٨٦٩.

([2]) أبو حيان، البحر المحيط، ج٤،ص٢١٦.

([3]) انظر البقاعي، نظم الدرر، ج٦، ص٧٤.

جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ(٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢)قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٣)قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(٢٤)قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٥)قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٦) ﴾المائدة:٢٠-٢٦.

ولأجل ذلك اقتضى التعبير هذا اللون من الخطاب دون سواه، فهي صورة لتماديهم في العصيان، ذلك بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق، وأعطاهم من النعم أعظمها. ولعلّ في ذلك عبرة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا يُمكنُ إحصاؤها في هذا المقام، ولربّما يكون في الإحالات غنى لمن أراد المزيد.

ونقطة أخرى جديرة بالذكر، نبّه إليها الشعراوي وهي: " أن موسى عليه السلام لا يقول لقومه ذلك إلا إذا كان قد رأى منهم عملا لا يتناسب مع النعم التي أنعم الله بها عليهم، وذلك – ولله المثل الأعلى – كما يقول الواحد منا لولد عاق: اذكر ما فعله والدك معك، ولا يقولن الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم، ومقدمات الفضل عليه. فكأن قوم موسى قد أرهقوه، وتحمل منهم الكثير، لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون "([1]). وهذه لفتة طيبة، وسبر لما وراء النص، فموسى عليه السلام صاحب خبرة طويلة مع قومه، فحقا ما كان ليقول مثل هذا الكلام لو كان عنده أدنى طمع في استجابة القوم، بخلاف حال أصحاب محمد؛ فلقد استشار رسول الله

([1]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، مج٥، ص٣٠٤٠-٣٠٤١.

صـــلى الله عليه وسلم أصحابه عندما علم بخروج قريش فكان مما قاله المقداد بن عمرو: " يا رسول الله، امضِ لما أراكَ الله فنحنُ معك، والله لا نقول لك كما قالت بـــنو إســـرائيل لموســـى: ﴿فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾المائدة:٢٤، ولكن اذهب أنت وربُّكَ فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلـــى بَرْك الغُماد(موضع بأقصى اليمن)لَجالَدْنا معك من دونه حتى تبلغه ". وقول ســـعد بـــن معـــاذ لما قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم استشارة الأنصار في الغـــرض نفسه(استعدادا للخروج إلى بدر): " والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله، قال: (أجـــل)قال: فقد آمنّا بك، وصدّقناكَ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناكَ علـــى ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ، فنحنُ معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَهُ لخضناهُ معك ما تخلّفَ منّا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ الله يريكَ منّا ما تقرُّ به عينكَ، فسِرْ بنا على بركة الله "(1).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

أمّـــا الآية الخامسة من سورة الصف، فقد سبقها حديث عن الجهاد في سبيل الله، وأنّ الله عز وجل يُحِبّ من القول ما يُترجَمُ إلى عملٍ، ويمقت من يخالف فعله قوله، وضرب لهم مثلا يُحذرهم فيه من التقاعس، وعدم الصدق والوفاء والتقدير. ولعـــلّ خطاب موسى عليه السلام لبني إسرائيل بالنداء والوصف بـــ (قوم) ما هو كما يقول ابن عاشور: إلا تمهيد للإنكار عليهم في قوله تعالى:﴿لِمَ تؤذونني﴾ (2). ولا شـــك فـــي عظم جُرمِ من يعصي الرسل، ويتمرد على ما يقولون، فكيف بمن يقـــوم بـــإيذائهم، فقـــد آذى بـــنو إســـرائيل رسولهم موسى عليه السلام، وعابوه، وانتقصـــوه، وعصَـــوْا، وجحدوا بالآيات، وعبدوا العجل، وطلبوا رؤية الله جهرة، وتقاعسوا عن القتال، وبالجملة فلم يُطيعوا أوامره، هذا مع علمهم علم اليقين الذي

---

(1)انظـــر النصـــين المقتبســـين من: ابن هشام، أبي محمد عبد الملك، (ت٢١٨هـ). السيرة النبوية،ط٣، ٤م، (تحقيق سعيد اللحام)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢،ص١٩٩-٢٠٠.

(2) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٨،ص١٧٨.

لا شبهة فيه أنه رسول الله إليهم. ولذلك كان استهلال الآية بـ ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم**﴾ لقد آذَوْه كثيرا، ومع ذلك يُعاتبهم بلطف ومودة، ويستنكر عليهم، ولكنه استنكار المُشفق المُتَوَدِّد﴿ **فلما زاغوا أزاغ اللهُ قلوبهم واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقين**﴾.

بقي أن أشير إلى شيء يسير من بلاغة النظم في هذا الأسلوب التعبيري: فالواو المتقدمة على (إذ) هي إما للاستئناف، أو من عطف القصص بعضها على بعض. ومن المعلوم أنّ الواو تأخذ بعين الاعتبار ما سبق، وتبني عليه، فتاريخ بني إسرائيل ذو حلقات متسلسلة الأحداث. وأما (إذ) فكثيرة في الاستعمال القرآني، وقد خصها ابن عاشور بالدرس والتوجيه في تفسيره، وخلاصة ما قال فيها إنّ: " (إذ) اسم زمان مفعول به بتقدير اذكر، ونظيره كثير في القرآن، والمقصود من تعليق الذكر والقصة بالزمان إنما هو ما حصل في ذلك الزمان من الأحوال، وتخصيص اسم الزمان دون اسم المكان؛ لأن الناس تعارفوا على إسناد الحوادث التاريخية والقصص إلى أزمان وقوعها"(١).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وهذا ملمح بلاغي من ابن عاشور ذو دلالة وجيهة؛ فقد تصدَّرت (إذ) سياق قصة أو مثل، أي اذكر يا محمد لقومك حين، وكأنه شريط من الزمان فيه من الأحداث ما يقصد الإشارة إليه، فارجعوا بخيالكم وتذكروا هذا الشريط الإخباري، وما فيه من محطات دعوية بين موسى عليه السلام وقومه.

وتلا ذلك فعل ماض يدل على أن موسى لم يكن في قومه صامتا، بل كان يأمرهم ويبلغهم رسالة ربه، واللام في (لقومه) تشير إلى ذلك. ولعلّ ذكر اسم نبيهم موسى عليه السلام في هذا الخطاب إشعار لهم أنه منهم ولا يزيد عنهم إلا بالرسالة والنبوة. وفي إضافتهم إليه تحبب وشفقة رجاء أنْ يستجيبوا له، وتمام ذلك تصدير رسالته بـ (يا قوم)؛ يناديهم نداء من أبعد عنه لكثرة المخالفة والمعاصي

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٣٧٤-٣٧٥.

مشـــفقا ومتحننا لعل ذلك يكون سببا لقبول ما يُلقى إليهم. ونداؤه بهذا الأسلوب ﴿يا قوم﴾ ليقترب منهم، كقولك للرجل متحببا ومتلطّفا وقد أردت منه غرضا: يا أخي، ويـــا صديقي، فلم يُنادهم باسمهم، أو بوصف قبيح، كأن يقول لهم: وإذ قال موسى لقومـــه يا من تمرد، أو عصى، أو تكبّر، أو باسمهم: يا يهود أو غير ذلك مما فيه وصف بالقبح والبعد.

وبعـــد، فـــإن هذا هو ما استطعت الوقوف عليه من فرق بين الجمل الثلاث المتشـــابهة في سورة البقرة، والمائدة، والصف. وهو جهد المقل، ولكن حسبي أنّي اجـــتهدت في فهم السياق، وربط أجزائه بعضها ببعض، في محاولة متواضعة لفهم هذا التكرار الجملي المبني على ثُلاثِيّة الحروف(١).

---

(١)**انظر تفسير آية البقرة من:** الطبري، جامع البيان،ج١، ص٣٢٨-٣٣١، والزمخشري، الكشاف، ج١، ص ١٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص٢٧٢-٢٧٤، وابن عطية، المحرر الوجيز، ج١، ص٢٩٦ -٢٩٩، والبيضـــاوي، أنوار التنزيل، ج١، ص٨١، والرازي، التفسير الكبير، مج١، ص٥١٥-٥١٨، وأبي حـــيان، الـــبحر المحيط، ج١، ص٣٣٢-٣٣٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج١، ص٣٧٢-٣٧٧، وأبي السعود، إرشـــاد العقـــل الســـليم، ج١، ص١٣٥، والخفاجي، عناية القاضي، ج٢، ص٢٥٦-٢٥٨، والألوسي، روح المعانـــي، ج١، ص٣٥١-٣٥٤، ومحمـــد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٣١٨-٣٢١، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٧١-٧٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٤٨٠-٤٨٣، والشعراوي، تفسير الشعراوي، مج١، ص٣٤٠.

وانظر تفسير آية المائدة من: الطبري، جامع البيان، ج٦، ص٢٠١-٢٠٥، والزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٦٠٧، والقرطبـــي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص٨٢-٨٣، وابن عطية، المحرر الوجيز، ج٤، ص٣٩٧- ٣٩٩، والبيضـــاوي، أنوار التنزيل، ج٢، ص١٢١، والرازي، التفسير الكبير، مج٤، ص٣٣١، وأبي حيان، الـــبحر المحـــيط، ج٤، ص٢١٤-٢١٦، والبقاعي، نظم الدرر،ج٦، ص٧٢-٧٤، وأبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج٢، ص٢٥٥-٢٥٦، والخفاجي، عناية القاضي، ج٣، ص٤٤٩-٤٥٠، والألوسي، روح المعاني، ج٦ ، ص٣٧٦-٣٧٨، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٦، ص٣٢٢-٣٢٤، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٢، ص٨٦٨-٨٧٠، وابـــن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦، ص١٦٠-١٦٢، والشعراوي، تفسير الشعراوي، مج٥، ص٣٠٤٠-٣٠٤١.

وانظـــر تفسير آية الصف من: الطبري، جامع البيان، ج٢٨، ص٩٨-٩٩، والزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥١٢، والـــرازي، التفســـير الكبـــير، مج١٠، ص٥٢٨، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٨، ص٥٤، والبيضـــاوي، أنـــوار التنزيل، ج٥، ص٢٠٨، وأبي حيان، البحر المحيط، ج١٠، ص١٦٥، والبقاعي، نظم

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الـدرر، ج٢٠، ص٩-١٠، وأبـي السـعود، إرشـاد العقل السليم، ج٦، ص٢٤٢-٢٤٣، والخفاجي، عناية القاضي، ج٩، ص١٦٦، والألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص٣٨٨، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص ٣٥٥٥-٣٥٥٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨، ص١٧٦-١٧٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمـــد لله الـــذي هدانـــا لهذا، وما كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

وبعـــد، فهذا ضربٌ من الدراسة كلّما قطعت فيه شوطا أحسست بقصوري فيه، وضآلة ما في يديّ منه، وكيف لا ؟ وأنا بصحبة كتاب لا تحدُّه عقول الأفراد ولا الأجيال.

جميع الحقوق محفوظة

ومـــع ذلـــك، فقد جهدت في رفع الحُجب، وكشف الستر عن هذه الدّراسة، حـــتّى تبرّجت مباحثها ومطالبها أمامي، فبان لي حسنها، وظهر لي جمالها، وذلك اعـــتقادا مني بأنّ منهج القدماء الصافي في الكشف عن بلاغة النصوص، ووجوه إعجازهـــا منهج صالح، وقادر على أن يفتح مغاليقها، وأن يفسح للدارس معالمها إلـــى أبعـــد الآماد، وأنّه أبر بمزاج هذه اللغة، وأقرب إلى روحها من كل مجتلب غريب، ولكنّه يحتاج في وعيه إلى صبر جاهد وعمل دؤوب.

وقـــد كرهـــتْ هذه الدراسة أن تجري في آفاق مستحدثة غربية، إلّا أنّها لم تغفـــل الاندفـــاع وراء كل فكر جادّ، وجهد أصيل، شرط أن يزيدها بصرا باللغة، وأن يرفد حسّها بالنصوص شفافية، وتذوّقها عذوبة وملاحة.

وقد خلصت في نهاية المطاف إلى جملة من الآراء أرغب في تقييدها:

أولا: لا يُمكـــن دراســـة المتشـــابه اللفظـــي كلّه في رسالة ذات متطلّب علمي أو منهجـــي، فهو يحتاج إلى جهد جماعي مشترك يقوم على تتبّع وجوده في كتاب الله عز وجل، ومن ثَمّ دراسته دراسة شاملة.

ثانـــيا: إن ما في كتب المتشابه اللفظي المتخصصة من توجيهات وتأويلات يحتاج إلـــى مـــراجعات، لتنقيح ما تكرّر منه، وتهذيب ما اعتوَره من زيادات وتعقيدات، ومن ثمّ جمع ما تشتّت منه.

ثالثا: إنّ ما في كتب التفسير من علاج للمتشابه قليل، ذلك أنّ المفسّرين يقتصرون علـــى ما شاع من الأمثلة، وليس من مقصودهم تتبّعه. ومع ذلك فإن في تفاسيرهم جهدا طيّبا جديرا بالتفرُّد بدراسة مستقلة.

رابعـــا: جمـــيع الـــتأويلات التي يقوم بها الباحثون في خدمة المتشابه اللفظي تبقى محاولات للإجابة على ما يُثار من أسئلة، وما يعترض من شبهات، وهي صحيحة بمقدار ما تُقنع القارئ، وبما تلجأ إليه من أدوات معرفية.

جميع الحقوق محفوظة

خامسا: إنّ التضمين، والتناوب، والزيادة، والحذف، والترادف كلّها مباحث شائكة، ينبغـــي تجـــاوز ما فيها من خلاف، والبحث عمّا فيها من لطائف بلاغية، وأسرار ربّانية، غير أنّها تظل القاعدة الأساس، والمنطلق المكين.

سادسا: جميع ما في الفصل الثاني والثالث عيّنات رغبت أن تكون أنموذجا لكيفية دراســـة المتشـــابه اللفظـــي في المفردات والجمل، وإلّا فكلّ مبحث يمكن أن يقوم بدراسة مستقلّة.

وفي الختام، وقد حططت الرّحال، وأنخت الرّكاب، فإنّي أضرع إلى المولى فـــي عُـــلاه أن يجعلنا من العاملين بما علمنا، وان يُعيننا على تفهيم ما فهمنا، وأن يهب لنا علما نافعا يبلّغنا رضاه، وعملا زاكيا يكون عُدّة لنا يوم نلقاه، إنّه على كُلّ شـــيء قدير، وبالإجابة جدير، هذا والله المستعان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

المصادر والمراجع المطبوعة

ابن الأثير، ضياء الدين محمد، (ت٦٣٧هـ). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ط١، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

الأخفش، سعيد بن مسعدة،(ت٢١٥هـ). **معاني القرآن**،ط١، (تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد) ،عالم الكتب، بيروت،٢٠٠٣م.

الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، (ت٤٣١)، **درة التنزيل وغرة التأويل**،ط١، (اعتنى به: الشيخ خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢م.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، (ت٤٢٥هـ). **مفردات ألفاظ القرآن**، ط١، (تحقيق صفوان عدنان داوودي)، دار القلم، دمشق،١٩٩٢م.

حقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الأطرش، عطية،(١٩٩٧).**دراسات في كتب المتشابه اللفظي**(رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الأردنية،عمان.

الألوسي، أبو الفضل محمود، (ت١٢٧٠هـ). **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، ط١، ١٥م، (تحقيق وتقديم الشيخ محمد أحمد و الشيخ عمر عبد السلام السلامي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن، (ت٥٧٧هـ). **الإنصاف في مسائل الخلاف**، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٣م.

الأنصاري، أبو يحيى زكريا، (ت ٩٢٨هـ). **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن**، ط١، (تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني)، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠١م.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦هـ).**صحيح البخاري**،ط٢،دار السلام، الرياض،١٩٩٠م.

بدوي، أحمد، من بلاغة القرآن.ط٢. مكتبة نهضة مصر.

البَطلْيَوْسي، ابن السِّيْد أبو محمد عبد الله بن محمد، (ت٥٢١هـ). **الاقتضاب في شرح أدب الكتاب**، ٢م، (تحقيق الأستاذ مصطفى السقّا و حامد عبد المجيد) مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.

البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر، (ت٨٨٥هـ). **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ط١، ٢٢م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٦٩م.

البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، (ت٦٩١هـ). **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط١، ٢م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٨م.

الترمذي، أبو عيسى محمد، (ت٢٧٩هـ). **سنن الترمذي**، ط١، ٤م، (تحقيق محمد حسن نصار)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، (ت ٧٩٢هـ)، **المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم**، ط١، (تحقيق عبد الحميد الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

الثعالبي، عبد الملك منصور، (ت٤٣٠هـ).**خاص الخاص**، ط١، (شرح وتعليق مأمون الخبّان)، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٤م

الجرجاني، عبد القاهر، (ت٤٧١هـ). **دلائل الإعجاز**، ط٣، (قراءة وتعليق محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢م.

ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم، (ت٧٣٣هـ). **كشف المعاني في المتشابه المثاني**، ط١، (تحقيق مرزوق علي إبراهيم)، دار الشريف، الرياض، ١٤٢٠هـ.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (ت٣٩٢هـ).

الخصائص، ٣م، (تحقيق محمد علي النجار).

سر صناعة الإعراب،ط١، ٣م،(تحقيق مصطفى السقّا وآخرين)،مطبعة البابي الحلبي، مصر.

ابن الجوزي، عبد الرحمن، (ت٥٩٦هـ). **زاد المسير في علم التفسير**، ط٣، ١٠م، المكتب الإسلامي، عمان، ١٩٨٤م

حسن،عباس،(١٩٧٣). **النحو الوافي**.(ط٤).٤م. القاهرة: دار المعارف.

الحنفي، إبراهيم بن محمد،(ت٩٤٣هـ). **الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم**، ط١، ٢م، (تحقيق عبد الحميد هنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

حوّى، سعيد،(١٩٨٥). **الأساس في التفسير**، ١١م .(ط٢). القاهرة: دار السلام.

أبو حيان، محمد بن يوسف، (ت٧٥٤هـ).

البحر المحيط في التفسير، ١١م، (عناية صدقي محمد جميل)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.

النهر الماد من البحر المحيط، ط١، ٦م، (تحقيق الدكتور عمر الأسعد)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥م.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح،

(٢٠٠٠).**إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني**.(ط١).عمان: دار عمّار.

(١٩٨٩).**نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**.(ط٢).جدة: دار المنارة.

الخضري، محمد الأمين،

(١٩٨٩).**من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم**.القاهرة: مكتبة وهبة.

من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم(الفاء وثم).القاهرة: مكتبة وهبة.

الخضري، محمد بن مصطفى الدمياطي الشافعي،(ت١٢٨٧هـ). **حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ٢م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد، (ت٣٨٨هـ). **بيان إعجاز القرآن**.ط٤، (تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام)، دار المعارف، مصر.

مكتبة الجامعة الاردنية

الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (١٠٦٩هـ). **عناية القاضي وكفاية الراضي**، ط١، ٩م، (ضبط وتخريج الشيخ عبد الرزاق المهدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

درّاز، محمد عبد الله،(١٩٩٧). **النبأ العظيم**.(ط١).الإسكندرية: دار المرابطين.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، (ت ٦٠٦هـ). **التفسير الكبير**، ط٢، ١١م، دار إحياء التراث العربي،بيروت، ١٩٩٧م.

الرافعي، مصطفى صادق،(١٩٧٤).**تاريخ آداب العرب**.(ط٢).٣م.بيروت: دار الكتاب العربي.

رشيد، كمال عبد الرحيم،(١٩٩٦).**الترادف في القرآن الكريم**، الجامعة الأردنية. (رسالة دكتوراه غير منشورة)،عمان.

رضا، محمد رشيد،(ت ١٣٥٤هـ). تفسير المنار.(ط٢).١٢م.بيروت: دار المعرفة.

الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى، (٣٨٤هـ). **معاني الحروف**، ط٢، (تحقيق عبد الفتاح شلبي)، دار الشروق، جدة، ١٩٨١م.

الزجّاجي، أبو القاسم عبد الرحمن،(ت٣٣٩هـ)، **كتاب اللامات**، ط٣، (تحقيق مازن المبارك)، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (ت٧٩٤هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، ط٢، ٤م، (تحقيق يوسف المرعشلي وآخرين)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (ت٥٣٨هـ).

أساس البلاغة، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ٤م، (ترتيب وضبط محمد عبد السلام شاهين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، (ت ٦٥١هـ). **البرهان الكاشف عن**

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إعجاز القرآن، ط١، (تحقيق خديجة الحديثي و أحمد مطلوب)، مطبعة العاني، بغداد،١٩٧٤م.

الزين، سميح عاطف،(٢٠٠١). **معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.بيروت: دار الكتاب اللبناني.

أبو زينة، منصور،(٢٠٠٢). **الحذف والذكر في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم**(رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الأردنية،عمان.

السامرائي، إبراهيم، (١٩٦٨).

فقه اللغة المقارن، بيروت، دار العلم للملايين، بيروت.

النحو العربي نقد وبناء، ط١، دار البيارق ودار عمار، عمان، ١٩٩٧م.

السامرائي، فاضل،

(٢٠٠١).بلاغة الكلمة في التعبير القرآني.(ط٢).عمان: دار عمّار.

(٢٠٠٢).التعبير القرآني.(ط٢).عمان: دار عمّار.

(٢٠٠١).**لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**.(ط٢).عمان: دار عمار.

جميع الحقوق محفوظة

السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، (ت٧٧٣هـ). **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ط١، ٢م، (تحقيق خليل إبراهيم خليل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث،(ت٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**، ط١، (ترقيم وتبويب هيثم تميم، شركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م.

سعد، محمد أحمد(١٩٩٨). **التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية**.(ط١). مكتبة الآداب.

أبو السعود، محمد بن محمد، (ت٩٨٢هـ). **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

السكّاكي، أبو يعقوب يوسف، (ت٦٢٦هـ). **مفتاح العلوم**،ط١، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م.

سلطان، منير،(١٩٨٨). **بلاغة الكلمة والجملة والجمل**. الإسكندرية: منشأة المعارف.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، (ت١٧٧). **الكتاب**،ط٢، ٥م،(تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجيل، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ). **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، ط١، ٢م، (تحقيق محمد عبد الرحيم)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م.

الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**،١٢م. أخبار اليوم، قطاع الثقافة.

الشوكاني، محمد بن علي، (ت١٢٥٠هـ). **فتح القدير**، ط٢، ٦م، (تحقيق وتخريج عبد الرحمن عميرة)، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٧م.

جميع الحقوق محفوظة

الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (ت٤٧٦هـ). **اللمع في أصول الفقه**، ط١، (تحقيق محيي الدين مستو و يوسف علي بديوي)، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٥م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ). **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط١، ١٦م، (ضبط وتعليق محمود شاكر)، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.

الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن،(ت٤٦٠هـ). **تفسير البيان**،١٠م،(تصحيح وترتيب أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير)، مكتبة الأمين، النجف الأشرف.

ابن الطيب الفاسي، أبو عبد الله محمد، (ت١١٧٠هـ). **فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح**، ط١، ٢م، (تحقيق محمود يوسف فجّال)، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ٢٠٠٠م.

عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، **الإعجاز البياني للقرآن**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

ابن عاشور، محمد الطاهر،(ت ١٣٩٣هـ). **تفسير التحرير والتنوير**،١٥م، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

عباس، فضل،

(١٩٩٧).**إتقان البرهان في علوم القرآن**.(ط١).٢م.عمان: دار الفرقان.

(١٩٩١).**إعجاز القرآن الكريم**.عمان: دار الفرقان.

(١٩٩٧).**البلاغة فنونها وأفنانها**(علم المعاني).(ط٤).عمان: دار الفرقان.

(١٩٨٧).**سلامة الحرف من الزيادة والحذف**.مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة الرابعة، العدد التاسع، ديسمبر.

(٢٠٠٠).**قصص القرآن الكريم**.(ط١).عمان: دار الفرقان.

(٢٠٠٠).**قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن: وردّ شبهات**.(ط١).عمان:دار الفتح.

(١٩٨٩).**الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية**، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، ع٤.

(١٩٨٩).**لطائف المنّان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن**.(ط١).بيروت: دار النور.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

عبد الباقي، محمد فؤاد،(١٩٩٦). **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**(ط١).القاهرة:دار الحديث.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، (ت٢١٠هـ). **مجاز القرآن**، ط١، ٢م، (تعليق محمد فؤاد سزكين)، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٤م.

العسكري الحسن بن عبد الله، (ت٤٠٠هـ). **كتاب الفروق**، ط١، (تقديم وضبط أحمد سليم الحمصي)، طرابلس، لبنان، ١٩٩٤م.

عضيمة، محمد عبد الخالق،(١٩٨٤). **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**.١١م، القاهرة:دار الحديث.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، (ت٥٤٦هـ). **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط١، ١٥م، (تحقيق الرحالي الفاروق وآخرين)، الدوحة، ١٩٧٧م.

العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، (ت٦١٦هـ). **التبيان في إعراب القرآن**، ط١، ٢م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

أبو علي، محمد بركات،

(١٩٩٩).**كيف نقرأ تراثنا البلاغي**.(ط١).عمان: دار وائل.

(١٩٩٦).**فن الاختيار والبلاغة العربية**.(ط١).عمان: دار الفكر.

عواد، محمد حسن،(١٩٨٢).**تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم**.(ط١).عمان: دار الفرقان.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد،(ت ٢٠٧هـ). **معاني القرآن**، ط٣، ٣م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، (ت١٧٥هـ). **كتاب العين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (ت٨١٧هـ).

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٦م، (تحقيق محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي)، المكتبة العلمية، بيروت.

القاموس المحيط، ط١، ٢م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م.

القاسمي، محمد جمال الدين، (ت١٣٢٢هـ). **محاسن التأويل**، ط١، ٧م، (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ). **تأويل مشكل القرآن**، (شرح وتحقيق السيد أحمد صقر)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م،

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت٦٧١هـ). **الجامع لأحكام القرآن**، ط١، ١١م،(تحقيق سالم البدري)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م

القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت٧٣٩هـ).
التلخيص في علوم البلاغة، (ضبط وشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت.
الإيضاح في علوم البلاغة، ط٣، ٢م، (تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي)، دار الجيل، بيروت.

قطب، سيد،
(١٩٥٦).**التصوير الفني في القرآن**.(ط٢).القاهرة: دار المعارف.
(٢٠٠١).**في ظلال القرآن**.(ط٣٠). ٦م،القاهرة: دار الشروق.

ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ). **بدائع الفوائد**،ط١، (تحقيق معروف زريق وآخرين)، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠١م.

جميع الحقوق محفوظة

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (ت٧٧٤هـ). **تفسير القرآن العظيم**، ط١، ١٥م، (تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرين)، مؤسسة قرطبة، ط١، ٢٠٠٠م.

الكرماني، برهان الدين محمود بن حمزة،(ت٥٠٥هـ). **البرهان في توجيه متشابه القرآن**،(تحقيق السيد الجميلي)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة،١٩٩٤م.

لاشين، عبد الفتاح،(١٩٨٣). **صفاء الكلمة**.الرياض: دار المريخ.

المالقي، أحمد بن عبد النور، (ت ٧٠٢هـ)، **رصف المباني في شرح حروف المعاني**، ط٣، (تحقيق أحمد الخرّاط)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢م.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت٢٨٥هـ). **المقتضب**، ط٢، ٣م، (تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٩م.

مجلة الأزهر، ابتداء من (٥) عدد شوال ١٣٨٦هـ.
مجلة الأزهر، سنة٤٧،محرم،١٣٩٥،فبراير،١٩٧٥.وسنة٤٧،ربيع الأول،١٣٩٥هـ،إبريل،١٩٧٥.

مجلة المجمع العلمي العربي، (اللامات) لأحمد ابن فارس(ت٣٩٥هـ)، (تحقيق شاكر الفحّام)، مج٤٨، ج٤، ١٩٧٣م.
مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، العدد الأول، سنة١٩٣٤م.
مجلة الوعي،لبنان،س١٧،ع١٩١،ذو الحجة١٤٢٣ الموافق لـ:شباط٢٠٠٣م.

المرادي، الحسن بن قاسم، (ت٧٤٩هـ). **الجنى الداني في حروف المعاني**، ط١، (تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

المراغي،أحمد مصطفى، (ت ١٣٧١هـ). **تفسير المراغي**، ١٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مسلم بن الحجّاج، أبو الحسين مسلم القشيري النيسابوري، (ت٢٦١هـ). **صحيح مسلم**،ط١،(ترقيم وتبويب محمد تميم وهيثم تميم،شركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م.

مشاهرة، مشهور موسى مشهور،(٢٠٠١). **التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية**.(ط١).عمان:الجامعة الأردنية.

المطعني، عبد العظيم،(١٩٩٢).**خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**.(ط١).القاهرة: مكتبة وهبة.

مكرم، عبد العال سالم،(١٩٨٨).**أسلوب (إذ) في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية**.(ط١).بيروت: مؤسسة الرسالة.

منجد، محمد نور الدين،(٢٠٠١). **الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق**.بيروت: دار الفكر.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ). **لسان العرب**، ط٢، ١٨م، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أبو موسى، محمد،

(١٩٨٨).**البلاغة القرآنية**.(ط٢).القاهرة: مكتبة وهبة.

(١٩٨٠).**خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**.(ط٢).القاهرة: مكتبة وهبة.

نوفل، أحمد،(١٩٩٩). **سورة يوسف دراسة تحليلية**. ط٢. عمان:دار الفرقان.

ابن هشام الأنصاري، عبد الله جمال الدين، (ت٧٦١هـ).

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك،٤م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العرية، بيروت، ١٩٩٩م،

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢م

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، (ت٢١٨هـ). السيرة النبوية،ط٣، ٤م، (تحقيق سعيد اللحّام)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.

ياسوف، أحمد،(١٩٩٤). **جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير**.(ط١).دمشق: دار المكتبي.

ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي، (ت٦٤٣هـ). **شرح المفصل للزمخشري**، ط١، ٦م، (تقديم الدكتور إميل يعقوب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

Lexical Polysemy in the Holy Koran:a Syntactic,Rhetorical Study.

By
Mashhour Mousa Mashhour Mshahreh

Supervisor

Dr.Mohamad Hasan Aawwad

ABSTRACT

This study presented the syntactic and rhetomical aspects of the lexical polysemy in the Holy Koran. Some of the aims were (١) to try to exclude the confusion and problems concerning many polysemy of Koran verses in its formulation, (٢) to oppose those who challenge such verses and (٣) the practical application on Koran inimitability, hoping to have a practical research methods for the study of Koran lexical polysemy in general.

The study relied on choosing some of the verses that represent such phenomenon of polysemy depending on analytical and explainable methology of research.

Some of the recommendations revealed from this study are:

a. The need to study the Koran polysemy in order to solve the syntactic and rhetomical obscurity.
b. The need for indexing the lexical polysemy in the Holy Koran.
c. In addition, it revealed the necessity of reevaluating previous studies done on similar aspects.

Nevertheless; it should be noticed that there are many studies concerning Koran text that have not to be emphasized on due to its controversy, and to emphasize a syntactic and Rhetorical aspects instead.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع رسائل الجامعة